ثرثرة..

زمن يأجوج ومأجوج

محمد إبراهيم محمد

اسم الكتاب: ثرثرة زمن يأجوج ومأجوج

اسم الكاتب: محمد إبراهيم محمد

تصميم الغلاف: مي مجدي

تنسيق: نورهان هاني

رقم الإيداع: ٢٠٢٥/٤٤٧٣م

الترقيم الدولي: ٦-٠٤-٨٢٩٧-٦٣٣-٩٧٨

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

ثرثرة..

زمن يأجوج ومأجوج

إهـــــــــداء

إلى وطنٍ.. في زمن يأجوج ومأجوج.. فوضى واضطراب..
ليست حرباً.. لأن للحرب أصول وقيم.
إلى وطنٍ.. شرفه مغدور.. غزاه حثالة بشر..
نيرون، مغول تتار، نازيو هذا الزمان.
عالمٌ حقير أبله يتفرج.
قريب، وجار، وبعيد يتآمر.
من أبنائه.. تشبث بأرضه من تشبث..
هاجر من هاجر.. نزح من نزح..
مات شهيداً من مات.. ثبت على الحق من ثبت..
مات فطيساً من مات.. خانه من خان.
وبقينا وحدنا.. هم وأنا...
هم، جنود شرفاء قلوبهم بنادق..
وإعلاميون شرفاء أقلامهم بنادق..
ومدونون بررة ألسنتهم بنادق..
ورجال قالوا لا في وجه من صنعوا أقذر ميليشيا..
وكان جزاؤهم، إبعاد، تهميش، ونسيان.
وأنا، شيخ عجوز لا يحمل سوى قلباً حاراً وقلماً..
أثرثر، وشهداء وطني، قتلوا دون عرضهم ومالهم ودينهم..
بإذن الله في روضات يحبرون.

(١)

الفحيل كان أستاذاً لمادة التاريخ بالمدارس الثانوية، طاف عديداً من بلاد الدنيا، إفريقية وعربية، وطاف عديداً من مدائن بلاده الحبيبة قبل أن يحال إلى التقاعد لبلوغه سن (أدينا عرض أكتافك)، عمل في فترة شبابه وفحولته في مدن كثيرة، الأبيض، النهود، الفولة، بابنوسة، أم درمان، عطبرة، والجنينة، سبعة عقود ما بين طفولة وكهولة، رحلة طويلة وشاقة، عاشها بالطول والعرض، ناء ظهره من حملها، قامته طويلة، منكباه عريضان، جسمه نحيل، بشرته سمراء، عوده رقيق، أسنانه ربعها انخلع ذهب إلى غير رجعة، الربع الآخر تركيب، والنصف المتبقي يتخلخل مع كل مضغة طعام، حتى شية لحم الضأن الحمري التي يموت فيها أصبحت تعكر مزاجه بدلاً من أن تعدله، نظر في المرآة تعجب من قسوة الحياة مع طول العمر، قال: لله درك يا لبيد (من حياة قد مللنا طولها.. وجدير طول عيش أن يمل -ألا كل شيء ما خلا الله باطل.. وكل نعيم لا محالة زائل - ولقد سئمت من الحياة وطولها.. وسؤال الناس كيف الفحيل...)، سرح مع ماض بعيد، كان طفلاً بريئاً، كان عصفوراً بريش جميل، ملأ على أمه وأبيه عشهما بهجة ومسرة، طار في أرجائه من مكان إلى مكان، شقشق فيه كما يشاء، قفز فيه كما يشاء، لعب وعبث كما يشاء، سلاحه بكاء عندما لا يحصل على ما يشتهي ويريد، عيون أمه لا تفارقه أبداً، أمه ليست كباقي البشر بعينين وإنما لها عيون كثيرة، مرئية ومخفية، في النهار، مثلما الشمس تبدد ظلام الليل بضوئها، فهي تبدد ظلام حياته بنور حنانها، ما كان مدركاً لمعنى الموت عندما عاجل أباه وهو على أعتاب تعلم المشي بقدمين ثابتين، أدركه بعد فوات الأوان، أدركه عندما اكتشف أنه لا يستطيع أن ينادي ويقول (يابا) مثل غيره من الأطفال، أدركه وهو يراهم يمسكون بأطراف جلابيب آبائهم، أو فرحين يهرولون من ورائهم بغية اللحاق بهم،

ثم أدخلوه الكتاب، المدرسة، (تنهد عميقاً: يا سلام.. يا سلام).. سندوتش طعمية ما أشهاه وأحلاه في فسحة فطور، أحلى من كريات صمغ وحبات نبق كان مع أنداد له يذهبون إلى الخلاء يجمعونها بكل سهولة ويسر، حبات تمر ما أحلاها، كانوا يخفونها في جيوبهم وحقائب كراريسهم، يختلسون مضغها في لذة لا تضاهيها لذة في غفلة من الآخرين، ثمرة دوم وكرة شراب (دافوري) ما أمتعها وهم يقعون ويقومون يطاردونها كما يطاردون قططاً وكلاباً، يمسكون بحفاوة بالأولى، ويرشقون الثانية بحجارة؛ حصة المدونة، وزياراتهم لتاجر، حلاق، موظف، مكتب بريد، كبانية تلفونات، وخريطة كنز مفقود، ما أمتعها وهم يمشون كقطيع حملان خلف (شيخ حبر) أستاذ الجغرافية، الطعام في ديوان جده ما أشهاه، كل أفراد الأسرة، جده، أعمامه، أخواله، ضيوفهم، يلتئمون يومياً في الساعة الثالثة بعد الظهر، يمسك مع باقي أولاد بيوتهم بأباريق وطست، يصبون لهم ماء غسول أيدي، ينتظرونهم حتى يفرغوا من تناول طعامهم، يجلسون على مقربة منهم، تحت بصرهم ومراقبتهم، يتناولون في لذة مدهشة ما فضل من كسرة، لحمة، سلطة، ملاح، ويخرطون ما بقي من لحم في عظام تتحاشاها الكلاب لبياضها الناصع، الفصول ما أروعها، صيف، موسم سموم وشمس حارقة، وأبو فرار، وسرب طيور عطشى ترد سواقي خضراء يانعة فتكون صيداً سهلاً لبندقية جده (حولي) الخرطوش أبو ماسورة واحدة، خريف، موسم أمطار، خضرة، بطيخ، تبش، قصب ذرة، لعب في برك، سقوط بيوت طين جالوص على رؤوس أصحابها؛ شتاء، موسم برد ناشف ييبس الجلود ويجعلها جلود فئران (جُقوُر)، يشققها أخاديداً غائرة، موسم لفازلين وزيت سمسم، وبطائن نوم لذيذ عميق، وطماطم من وفرتها ورخصها تعطى بدون مقابل.. انتقل إلى مدرسة وسطى، ملأها عفرتة، حرث بشفرة حلاقة جديدة ما فوق شفته العليا لعل ذلك يُعَجِل إنبات شارب طويل، تمناه كثيفاً كشارب (قوباع) ينفخ

في الناس ولسان حاله يا دنيا ما فيكي إلا أنا، جرب سف سعوط، تدخين سجائر، شرب مريسة، معدودة عصير ذرة، نسل فيتامينات وليس خمور، أدمن لعب ورق كوتشينة، أدمن بيوت أفراح وليالي ملاح، وما أكثرها، صبايا حسان كثر، صبيان جلاميد كثر، الناس يعيشون في بحبوحة، حياتهم سهلة بسيطة رغدة، مداخيلهم كفاية وزيادة، مصروفاتهم محدودة لا تثير لهم قلقاً، مدخراتهم وافرة، عريسهم حناء على كفيه ورجليه، هلال ذهب على جبهته يركب فرساً، يحمل سيفاً وسوطاً وجريد نخل، يبشر في فرح غامر، هيلمانة كبيرة، سيرة عرس عظيمة، يختلط حابلهم بنابلهم، رجال، نساء، أطفال، عميان، طرشان، يتمايلون تحت أضواء باهتة تنبعث من فوانيس (رتائن)، يترنمون ويطربون مع دقات طبول دلوكة (ود نوبة) و (كنين) وزغاريد (الرَزَّة) و (سُكَرَة) و (الباظ) ملكة حفلات الزار؛ (البريق) يزعق كديك رومي من ديوك أولاد هاشم (الما يقول قرض يَمِسكُه مرض)، تقفز إلى أذهان الناس صورة حماره، ذلك الحمار الذي جننهم، أقضى مضجعهم، وبهدل نومهم، عادة ما تكون بيوتهم مفتحة الأبواب، لا يخشون طارق ليل ولا حرامي بيوت، مياه شربهم في أزيار فخارية ما كانت عندهم ثلاجات، وكثيراً ما يكتشفون في صباح أغر أنهم عطشى بلا ماء، وزِيرَهم الذي كان يغني تق.. تق.. تق وهو ينقط ذرات الماء من مؤخرته قد أصبح هشيماً مبعثر أشلاء، في مرة من المرات قبض على حماره متلبساً بهذه الفعلة النكراء، ومن يومها كلما وقعت واقعة مثلها تشير أصابع اتهامهم إلى فاعل واحد (حمار البريق)، وصار صاحبنا يلعن (الطنبوري) وحذاءه كلما جاءه شاكي يطالب بتعويض عن خراب جلبه حماره قليل الأدب؛ (السريحي) يتفاخر بنفسه (أنا أبو السارة، أنا ضابط السجن)، تقفز إلى الأذهان صورته عندما يكون مرحاً لعبت برأسه أم الكبائر، يمر على أكواخ مبنية من قش، يترنح يمنة ويسرى، يزعق بأعلى ما عنده من صوت (بلد قش، رمم، قش، أوباش)، وعندما يمر على بيوت

طين، يقول بصوت رخيم (أنا أخوك يا فلان - وفلان هذا هو اسم صاحب البيت - كده ولا بلاش، هات القاش، يا دقاش، أنا منو؟ أنا القشاش، أقش القش يا قش)؛ (النتيح) يهرج (أديك واحد فرشة يا فرشة أخليك تمشي زي صفيحة الجير)، تقفز إلى الأذهان صورته مرتدياً ملابس عمله، قديمة عجيبة ببقع ألوان عديدة، طالعاً على سلم خشبي غير متوازن يتمايل يوشك على وقوع مع كل ضربة فرشاة، ينادي بين حين وآخر على صبي مسكين أجبرته ظروف قاهرة على تحمل جبروته (ما تجيب الجير يا صفيحة، يا فرشة، يا زفت)؛ ميسورو الحال غرف بيوتهم مبنية من تراب نقلته حمير (المؤمن) من حفرة جير، وحمير أمس قلابات اليوم، والحفرة منجم عجيب، في ناحية تعطي تراباً وفي أخرى تعطي جيراً، وطلاء النتيح خلطة من هذا الجير وصمغ وماء مع بودرة من أحد لونين سائدين أخضر زرعي أو أزرق سماوي، (النتيح) ثعلب شرس مكار يتنمر على أولاد الحلة في عطلهم المدرسية، يعوي في وجوههم (غوروا يا بجم، أقرفتونا الله يقرفكم، قطر عجيب يودي ما يجيب)، لأنهم يتهجمون على صنعته، يقومون بمثل عمله مقابل وجبة طعام وجك عصير ليمون، كان (الفحيل) رساماً يرسم لوحات بألوان زيت على قماش، يبيعها سوقها رائجة، من زبائنه خواجة (استاورو)، إغريقي عجوز تخطى سبعين من عمره، قصير قامة، ممتلئ جسم، له كرش بائن، لباسه واحد بنطلون كاكي وقميص أبيض قصير كم، وعلى رأسه قبعة، يملك متجر خردوات في طرف السوق يعرض فيه كل شيء من الإبرة إلى الخمور الإفرنجية، بيرة، شري، ويسكي وكونياك، قلد الفحيل ذات مرة لوحة (الموناليزا)، رسمها على إحدى لوحاته، عرضها في أحد معارضه التي كان ينظمها في مدرسة الأولاد مع (ود مضوي) الذي بعد أن فارق مهنة التعليم ما زال يتكسب من الضرب بالفرشاة ومزج الألوان، و (ود نور الزمان) الذي تخرج من كلية الفنون الجميلة ووجدت مواهبه لها حظاً من التقدير في المملكة العربية

السعودية، أُعجب بها الخواجة أيما إعجاب، دفع ثمناً سخياً ما زال جيبه يتذكره حتى اليوم، الخواجة كان كريماً جداً عكس خواجة آخر كان بخيلاً وشحيحاً جداً، خواجة (لويزو)، دكانه من أوقاف مسجد البلدة الكبير، المحير أنه يعرض نفس بضائع خواجة استاورو بما فيها الخمور، لويزو يبيعها ويروج لها وإمام المسجد يحرمها، والناس في حوسة، والعاقل يميز؛ (ود دوليب)، جالون مليء بعصير ذرة دائماً يتدلى بحبل من كتفه، وقطرات منه تبلل ثيابه، يقولون أنهم مروا به وهم على متن سيارة ماشياً على رجليه في طريقه إلى (خرسي)، ولما وصلوا وجدوه قد وصل قبلهم منذ زمن طويل، ويقول حجاج بيت الله أنهم رأوه طائفاً وسط الطائفين، وهو لا يملك حتى جواز سفر، كرامات ما بعدها كرامات، بيوتهم كانت من طين وقش ولكن قلوبهم كانت أنفس من الذهب والبلاتين؛ انتقل إلى مدرسة ثانوية، (خورطقت)، بقعة حباها الله من جمال الطبيعة ما حباها، أشجار تبلدي ضخمة تذكره أشجار لبخ تنمو في مدخل بلدته، زرعها مفتش إنجليزي، لتظلله من الشمس عند تطوافه ضحىً، تِبِشها لين هش يذكره بصل، فجل، وجرجير بلدته، عاش فيها ثكنة عسكرية، نظام، انضباط، أكل مجاني، نوم بالغصب، مذاكرة بالغصب، كل حركة وبركة في مواعيد محددة، ولكن كل ذلك كوم، والطلاب العفاريت كوم آخر، يتسللون خلسةً إلى (الدونكي) قرية مجاورة لاحتساء عصير الذرة الذي لا يصبرون كثيراً على فراقه؛ انتقل إلى الجامعة، (أم نخلاً ملوكي)، (جميلة ومستحيلة)، خرطوم، وما أدراك ما خرطوم، مدينة نظيفة، آمنة، غير مكتظة بالسكان، سيارات تاكسي صفراء تجوب شوارعها، مركبات عامة باصات تتحرك في خطوطها بحفنة ركاب، شبه خالية، سيارات مزرعة ألبان كافوري تضع زجاجات مملوءة بحليب طازج فوق أسوار بيوتها وتعود لتأخذها فارغةً ولا تقترب منها يد عابثة، داخليتهم فندق ثلاثة نجوم، ثلاث وجبات، وجبة إفطار، لبن، خبز، بيض، فول أو

عدس، وجبة غداء، خبز، أرز، سلطة، طبيخ، وجبة عشاء، فول بجبنة وبيض، الثلاثاء يوم خاص (إسبشال)، لحوم محمرة، سمك أو دجاج أو لحم ضأن، بطاطس بلحمة، وتحلية، وجباتهم نظام بوفيه مفتوح، يحملوا صوانيهم ويذهبوا ليختاروا ما يعجبهم من طعام، فطور رمضان وجبة كاملة، سحور أرز بلبن، لا ينسى قصة طلاب جنوبيين، أتوا حديثاً من جامعة ما كريري اليوغندية بعد اتفاقية السلام، صحا أحدهم اسمه جونسون عند السحر، رأى زملاءه ذاهبين نحو السفرة لتناول السحور، أيقظ الباقين قائلاً:

(نلسون، إزاك، جاكوب، أصحوا من النوم، قوموا على عجل، العرب يخدعوننا). كانت جنة عدن، يحضرون محاضراتهم في قاعات مكيفة، يتغيبون عمداً عن بعضها، يلاعبون قردةً اتخذت من أشجار ظليلة وارفة مسكناً وملعباً لها، مساءً يتسابقون إلى دور سينما، سينما حلفاية، كاوبوي، فتونة وقلة أدب، سينما كوليزيوم، هندي، موسيقى ورقص، سينما نيل أزرق أفلام راقية، ذهب مع الريح، الحرب والسلام، حفلات كلياتها طرب مع كبار فنانين، وردي، كابلي، ود الأمين، خضر بشير، وآخرون، كانت حياة عسل في عسل، أها.. وهاها، بعد ذلك صار أفندي.. يا سلام أفندي كبير، تغني له الصبايا (يا الماشي لي باريس.. جيب لي معاك عريس.. شرطاً يكون لبيس.. ومن هيئة التدريس)، شياكة، هندمة، لباقة، احترام، وقار؛ طاف طول البلاد وعرضها، رأسماله كتب، طبشور، وذاكرة قوية، ومن بعدها أينما ذهب وجد طلابه يتبوؤون مناصباً عليا، من أهل ربط وحل، عندما ينظر إلى وجهه في المرآة، رأسه، شاربه، ذقنه، كلها بيضاء شعر، رأسه أكثر بياضاً من الثلج، محفوف من ثلاثة جهات عدا مقدمته بصلعة ملساء، وجه مغضن بتجاعيد وثنيات، عينان ذابلتان فيهما بقية من نور، اختفت صورة سمحة مليحة وحلت محلها صورة قميئة.

تنهد عميقاً: (يا سلام، يا سلام) ... (الأبيض)! مدينة شهدت أيام شبابه الأولى وهو يتدرج بخطى ثابتة في مدارج مهنة تعليم

وتأليم، مدينة أهلها طيبون، بديرية وشويحات، عروس رمال، بان جديد (اليوم سعيد.. وكأنه عيد.. يلا نشهد البان جديد، اليوم سعيد.. شرق الصباح من غير نشيد، زارني الوديد قال لي نقوم البان جديد)، جبل دامبير وقصة شجرة إكسير، خور أبيض، شجر تبلدي، سوق محاصيل، سوق أبو جهل، اسم غريب، تمنى لو كان اسمه سوق عكاظ، لأنه فعلاً يجتذب خلائقاً من كل مكان كما كان حال عرب جاهلية في غابر الزمان، كل ثمار طبيعة بكر معروضة فيه، دوم، قنقليس، قضيم، كركدي، ويكة، لالوب، نبق، ليمون، برتقال، جوافة، هذا ما تذكره وما نسيه كثير، قبة إسماعيل ولي، سينما كردفان وعروس رمال، حلواني جروبي، دار رياضة وملاحم هلال أهلي ورفاق. محطته الثانية... (النهود)! مدينة أهلها زينين، حَمَر، (أمشي بارا وديك أم روابه.. والنهود الآسر شبابا. والأبيض غرد حبابا.. درة رائعة وحائزة الكمال. يا بلومي شيل السلام)، عروس تبلدي، أسطورة جريوات تبلدي، حمراية، أشجار هشاب، جبل حيدوب، فريق شايقية، سفر لواري وكسر عمود جمب وعمود طوالي، خوي، عيارة وخماس، بطيخ، صمغ وفول سوداني، أبيار منعم، فولة كبيرة، نادي سلام وأشجار تمر هندي وحناء، حميض، فول أبو نقوي أبو ليلا، أم برطبو، ملاح أم زميطة، دندن كما لم يدندن من قبل: (أيام زمان.. كانت أيام.. لي فيها حب وغرام). محطته الثالثة... (أتبرة)! مدينة أهلها طوائف وقبائل من كل فج، دار ثوار، (دار حديد ونار)، نهر أتبراوي، نهر نيل، زمن الفيضان (الأتبراوي) عنيف، يحطم ويجرف كل ما يقابله، رئاسة سكك حديد السودان، مدينة عمال، دراجات هوائية، مكتبة بلية، مركز ثقافي بريطاني، مكتبة سكة حديد، مكتبة دبورة، مكتبة ثقافة، إستاد كورة، ميدان مولد، حي موردة، حي سوق، أم بكول، مربعات، سودنة، حسن خليفة (أنا سوداني أنا.. أنا سوداني أنا، كل أرجائه لنا وطن.. إذ نباهي به ونفتتن، نتغنى بحسنه أبداً.. دونه لا يرومنا حسن)، «وآخر الرحلات كانت أتبرة.. حيث ركبت من هناك

القاطرة، سرت بها في سفر سعيد.. وكان سائقي عبد الحميد، أعجبت من تنفيذه بدقة ليسلم المسافر». محطته الرابعة... (ود مدني)! مدينة أهلها حلوين، سناهير، هواوير، دناقلة، شايقية، رفاعة، حلاوين، عركيين وآخرين، هبة نيل أزرق، عاصمة خورشيد باشا، مشروع رهد، مشروع جزيرة، أكبر مشروع مروي في أفريقيا، زهرة قطن، جمعية لواء أبيض، مؤتمر خريجين، درس فيها محمد نجيب، إسماعيل الأزهري، جعفر نميري، جان بيدل بيكاسو، قحطان الشعبي، سوق كبير، سوق صغير، سوق أم سويقو، سوق سمك، نادي جزيرة، نادي خريجين، حديقة بلدية، حي ود أزرق، دباغة، بانت، جبرونا، جزيرة فيل، حي بريطاني، حنتوب (الجميلة، الجميلة.. حنتوب الجميلة، منظرها البديع.. يا روعة جلاله، تعجب حين تزوروا.. وتجلس على تلاله، الجميلة، الجميلة)، رفاص ونش، نادي جزيرة، نادي خريجين، إبراهيم كاشف، أبو عركي، محمد أمين، إبراهيم خان. محطته الخامسة... (الفولة)! رجل الفولة، مدينة أهلها فراس، (عروس وديان وخيران)، حاضرة مسيرية حمر فلايته وعجايره، ومسيريه زرق، بقارة، يرحلون مع أبقارهم جنوباً في صيف، وشمالاً في خريف، همهم ماء وكلأ لأبقارهم، فولة زرقاء، وادي غلة، خريف وما أدراك ما خريف، انقطاع كامل عن العالم لفترات طويلة، اللواري تتوقف والسكة حديد خيار خطر، يتوجسون من الأغراب يسمونهم (أم بلينج)، سوق الخميس يوم عيد، يأتيه الناس من قرى مجاورة، نبق، باباي، جراد مقلي، لبن، روب، سمن، عسل. محطته السادسة... (بابنوسة)! مدينة أهلها مسيرية، أناسها مثقفون، عروس أبنوس، حي سكة حديد، على طراز إنجليزي، بيوته من طوب أحمر، استجلب من كوستي بالسكة حديد، غرف وصالات، حدائق غناء، أشجار مانجو، نخيل، جوافة، جهنمية، وموانع صواعق، الخريف أمطاره غزيرة صواعقه كثيرة، لا ينجو منها أناس أبقار وأشجار، أهلها يبنون بيوتهم بطين مخلوط بقشر فول، ثم يدهنونها بزيت قاطرات، حي القنطور، حي أبو

إسماعيل، هوس بكرة قدم، لقاءات نار بين رابطة، سلام، وإسماعيلي، محطة سكة حديد، سوق رائج عندما تأتيها قاطرات ركاب، قفر جدباء عندما ترحل عنها، نادي سكة حديد ولا نادي خريجين بأم درمان، مصنع ألبان في وقت كانت فيه المصانع معدودة، «ومرةً بارحت دار أهلي.. لكي أزور صاحبي ابن الفضل، ألفيته وأهله قد رحلوا.. من كيلك وفي الفضاء نزلوا، في بقعة تسمى بابنوسة.. حيث اتقوا ذبابة تعيسة». محطته السابعة والأخيرة... (الجنينة)! (دار أندوكا)، مدينة أهلها مساليت، ناس سُكَّرة مسالمين، معبر حدودي لتشاد وسائر دول غرب أفريقيا، مركز تجاري حدودي كبير، تربتها خصبة، مياه أمطارها غزيرة، مياهها جوفية وفيرة، خيراتها، صمغ عربي، قطن، تبغ، ذرة، سمسم، بطيخ، مانجو، جوافة، باباي، برتقال، أحياء سكنية عريقة، ذاخرة بالحياة، امتداد، شاطئ، سلام، رياض، وجمهورية.

انقطعت صلته ببلدته مسقط رأسه منذ أن صار مدرساً مرموقاً، أمه ما زالت مع أهلها هناك، تأتي من وقت لآخر لزيارته في بيته الذي بناه من حر ماله في حارة جميلة من حارات أم درمان، تستحق الحارة كلمة جميلة لأنها مليئة بالحياة، (ود البصير)، فارع الطول، سليط اللسان، دكانه متحف، تنبعث منه رائحه لا هي حلوة ولا كريهة ولكنها معتقة، كأنما تنبعث من دير أو معبد، فيه ما لا يخطر ببال من خردوات وأنتيكات لا يمكن العثور عليها في أي مكان آخر، عسل نحل، يبصم لك بأصابعه العشرة أنه أصلي، أكفان لستر موتى، دهن نعام، خشب جبيرة، زيت سمسم ولد، زيت حوت، زيت لالوب، وأشياء أخرى كثيرة لا يعرف سرها إلا هو، نعتوه بالكاهن، لأنه يتكهن بكل شيء، يدعي معرفة كل شيء، كل من غلبته حيلة من أهل الحارة في أي شأن من الشؤون يأتيه لاستشارته، وهو كريم جداً لا يبخل باستشارة، ولكن كل استشارة لها ثمنها، تعقبها عبارات جارحة، أتته ذات مرة حاجة دهباية بوليدها، بقدم مفكوكة متورمة، قالت: - (يا ود البصير ولدي

(رنقو) ده أدوهو عين في الكورة، وعين الحسود بعود تقدها، شووف ليهو بصارة).

بعد أن رمقها بعين حارة، مسد القدم، جرجرها، ومسحها بدهان من أدهنته التي يحضرها بنفسه ويحتفظ بها بعناية في زجاجات أدوية فارغة، ثم تهكم عليها قائلاً:

- (يا حاجة يا دهباية الولادة سهلة، والتربية كفاح، نحن ما زي الحمير نلدي ونرتاح، ولدك ده مِنَجِض الحارة، موقفها على فَدْ كُرَاع، قبل أسبوع الكَعَة قامت بينكم وناس ست (زبيدة)، فرجتم ناس الحارة عليكم لأنه ولدك عديم حياء فلق بحجر رأس ولدها، قبل ثلاثة يوم خطف من درداقة المسكين بائع الفول والترمس والتسالي، وبالأمس القريب كسر لمبة شارع بيت النجومي).

ردت بنبرة خبيثة ضاحكة قائلة:

- (أدعوا ليه يا أبونا ربنا يهديه، سرك باتع، وخيرك واصل، يمكن يطلع فارس، يطلع لينا عنترة بن شداد، بس ما يطلع نشال ولا همباتي).

أولاد الحارة، بأسهم بينهم وبين مخلوقات الله شديد، لا يسلم حيوان، طائر، شجرة، طوب، رملة، وحجارة بناء من شرورهم، حركة الناس في خطر حينما يلعبون كرتهم في شوارع وأزقة ضيقة بدلاً من ميادين فسيحة، في أي لحظة يمكن أن تفتك بأحد المارة قذيفة كورة طائشة، وحينما يركبون دراجاتهم، يتسابقون بها في طيش ونزق كتاتشرات الجنجويد، غير عابئين بصغير أو شيخ كبير، وحينما ينتظمون في فرق قتالية، يتشاجرون، لا يأمن أحد شر طلقات حجارتهم التي يتراشقون بها في بلادة وغباء؛ مثله مثل كثير من أهل الحارة كان يتحاشى (ود البصير)، ولا يقترب منه إلا في حالات الضرورة، الحارة فيها عدد لا يستهان به من أحباش، منهم مسلمون، مسيحيون، ولا دينيين، تداخلوا ولكنهم لم ينصهروا مع

أهلها، دعوه لمأدبة عرس حبشي من حبشية، صفت ترابيز وجيء بصواني (أنجيرا)، أكلة حبشية مشهورة، لفائف كسرة خشنة، مرق لحم لذيذ، شرائح لحم، وسلطة، شاءت الأقدار أن يكون الموسيقار (طُرفه)، ظريف من ظرفاء الحارة، من بين من يشاطرونه واحدة من طاولات مصفوفة، طرفة يعشق أكلاً دسماً وأنساً جميلاً، ابتدر الجالسين بأبيات شعر قبل أن يضع أول لقمه في فمه:

- (أضرب بخمسك لا تأكل بملعقة.. إن الملاعق للنعماء كفران، بالأمس قمت على أم رقيقة أندبها.. واليوم دمعي على أنجيرا هتان، هذي أنجيرا طعام لا مثيل لها.. عليها من مستهل المرق غدران).

(الحامدي) ظريف آخر ازدرد لقمته الثانية على عجل وابتسامة رضا ترف على وجهه رد قائلاً:

- (ملاح الويكة يا طرفة شاغل بالي.. يوم ألقاهو في الصينية بعدل حالي، عاجبني المغبش ولحمتو العجالي.. والصحن الكبير في لحظة يصبح خالي).

الحارة لا تخلو من ظرفاء، (شمشرة) مشمراً كم جلبابه، طاقية خضراء اللون مائلة على رأسه، يهيمن على واحدة من الطاولات، ومن معه يموتون من الضحك، هذا ليس اسمه، اسمه الحقيقي ود العيص، ولكن جرى عليه هذا اللقب لأن هوايته الأولى والأخيرة نقل الأخبار، ينقلها بدون تحفظ، بدون أن يتثبت من صحتها، ولذلك كثير من الناس لا يأخذون كلامه الذي لا يخلو من طرف وملح على محمل الجد؛ (بت قضيم)، فاكهة الحارة، ما مرت بالتوأم حسن وحسين إلا وضحكت وقالت:

- (هوي يا عيال هوي نحن جيران، خلوا مسخرة، خلوا شيطنة، أنا عارفاكم وفاهماكم أكثر من أمكم وأبيكم، (نيو)، (نييو) ياهو صوتكم، صوتكم أنا عارفاه كويس، وعارفه حوامتكم بالليل، ما عندكم شغلة غير مطبخي، طينتم عيشته، كل ليلة مقلوب فوق تحت، ما تركتم عظم، ما تركتم ملاح، حكايتكم شنو، نرحل نخلي ليكم الحارة دي).

يضحكان، يرد حسن التوأم الأكبر:

- (يا خالة بت قضيم والله ظنك ما في محله، إذا فعلاً نحن نتحول إلى نيو نييو، ما نمشي مطابخ بيوت سمك ودجاج بدل كسره وملاح).

- (لا عذر لمن أنذر، ثاني مرة إذا جدعتكم بمصيبة أوع الصباح تبكوا تقولوا عالجونا وتخجلوا ما تطلعوا الشارع).

أولاد الحارة مهووسون بإزعاج كلاب وقطط، يربطونها بحبال من رقابها ويجرون بها في شوارع الحارة، الحيوانات المسكينة تجري مذعورة تتلفت تبحث عمن ينقذها منهم، عندما تراهم بنت قضيم تزعق فيهم (يا عيال يا عفاريت، أعملوا حسابكم، بالذات من أي كلب مبرقط أو قط أسود، ديل أنجاس، ديل شياطين، إذا زعلوا منكم، يسكنوا جوه رؤوسكم، وبعدين الجن يركبكم، تمشوا وتلفوا ودوروا في الشوارع، تتكلموا خارم بارم، جن يتكلم مع جن)، لا يعبئون بها ولا بكلامها ولسان حالهم يقول: (يا خالة بت قضيم خليك في حالك، خلي القطط في حالها، وخلينا في حالنا، مالك ومالنا)، بسبب خناقة مع جارتها الدهباية روجت في الحارة أن بنت الدهباية مسحورة، لابسها جان، لأنها دائماً تطيل النظر في المرآة، وبيتهم فيه كائنات غير مرئية تتجسس عليهم وتنتظر الفرص لكي

تسود عيشتهم، ومنهم جان اسمه (القرين)، والخرم الوحيد الذي يتسلل منه إلى حياة الفتيات هو صفحة المرآة، وإذا أرادوا أن يتأكدوا من صحة هذا الكلام فليسألوا ود البصير، صدقها بعض أهل الحارة لأنه فعلاً بنت الدهباية تأتي أحياناً بتصرفات محيرة، كأن تلبس بنطلون وقميص أخوها وتمشي في الشارع، وأحياناً تشرب البيبسي كولا في الدكان، وسفه كلامها آخرون واعتبروها شطحة من شطحاتها وحكاياتها التي لا تنتهي، بت قضيم في نظرهم تعيش في عالم من الماضي لا يتسق بفكره مع عالم الحاضر.

في ساعات محددة، السابعة صباحاً تأتي تلميذات مرحلة الأساس وطالبات المرحلة الثانوية من بيوتهن إلى مدارس الحارة، الثانية عشر ظهراً تعود التلميذات إلى بيوت أهلهن، والثالثة بعد الظهر تعود الطالبات، تكتسي شوارع الحارة بلونين، رصاصي زي تلميذات وأزرق زي طالبات، تكون الحارة في أبهى صورها، نور جمال بشري ونور علم، هذه الصورة الجميلة البهية يخربشها شبان عاطلون يجلسون تحت الأشجار في هذه الأوقات يحملقون بعيون طائرة مزغللة في بلاهة في وجوههن وهن غاديات رائحات.

(٢)

صبيحة يوم الخامس عشر من نيسان/أبريل العام ٢٠٢٣ ميلادي، الموافق أربعة وعشرين رمضان ١٤٤٤هـ، خرج (الفحيل) من مسجد الحارة بعد أن فرغ من أداء صلاة الفجر التي يحرص كل الحرص أن يؤديها في جماعة، ليس من ديدنه أن يخرج من السجد مباشرة بعد فراغه من صلاته، فهو يفضل الجلوس قبالة نافذة تطل مباشرة على أشجار نيم، بان، نخيل، جهنمية، ودقن باشا تنمو في فناء المدرسة التي يفصل بينها وبين المسجد من جهة الشرق شارع ترابي عريض متعرج، يفضل الجلوس يقرأ ورده من كتاب الله، يطل ببصره منها، يرقب شروق الشمس، يتفكر في آيات الله، ما أروع السماء عندما تكتسي بلون ضبابي داكن والنهار في بداية دخوله على الليل، يصعب عليه تمييز أطراف أغصان الأشجار، سحب بعيدة غبشاء متناثرة في الفضاء ، ثم رويداً رويدا تكتسي صفحة السماء بغلالة من لون بني فاتح مشوب بلون أحمر طفيف، ورويداً رويدا تستبين بعض أطراف الأغصان، ثم يزحف لونٌ برتقالي مشوب ببياض، ثم يبدو كلُ شيء عارياً من ظلمة الليل، وتكتمل الروعة عندما تتعالى شقشقة عصافير، تتمايل فروع أشجار، تختفي قطعان كلاب ضالة كانت تحوم حول المسجد، منذ أن خلق الله هذا الكون البديع يذهب ليل ويأتي نهار، يتعاقبان، دائماً ما كان يسبح، يحمد، يشكر ربه الخالق الذي أبدع كل شيء في أبهى صورة. ولكنه في ذلك الصباح المشهود من أيام شهر رمضان، خرج مبكراً من المسجد كغير عادته، في باطنه شعور غريب طرد عنه إحساسه بالراحة وجعله يشعر بانقباض من شيءٍ ما، شيء لا يعرف كنهه ولا حقيقته. وهو في طريقه إلى بيته الذي لا يبعد عن المسجد مئات الأمتار، يعبرها ماراً بفسحة حولها بضع محلات، فرن، ورشة إصلاح ثلاجات، ورشة نجارة، مغلق مواد بناء، ورشة إصلاح أثاث قديم، مطعم، سحانة بهارات، ورشة إصلاح أجهزة إلكترونية، قابله

(شمشرة) في الطريق، وبعد أن حيا كل منهما الآخر بتحية الصباح، وبشر كلٌ منهما الآخر بقرب قدوم العيد، وانتهاء شهر رمضان الكريم على خير وبركة، وتبادلا أمنيات بقبول صيام وعتق من نار، هتف شمشرة بلهجة مغلفة بشيء من استهزاء وشماتة مستترة قائلاً:

- (رمضان، يا حليل رمضان، ألم تسمع بالخبر العجيب، الحرابة قامت بين الجيش والميليشيا، عارف وين؟ في المدينة الرياضية، وفي مطار مروي، الميليشيا دي ربنا يكفينا شرها، مغرورة، عاملة زي ثور خصي، لحم وشحم كثير، لازم يخرش الأرض، يطير الغبار، ينفخ الهواء من مناخيره، وينطح أي شيء قدامه).

مد الفحيل بصره إلى السماء، ثم أنزله إلى الأرض، ثم تنحنح وبصق بعد أن بلع حبة من ريقه، قال متسائلاً:

- (يا رجل الصباح رباح، من أين جئت بهذه الأخبار التعيسة؟).

كحة شمشرة، تنحنح وبصق ما في حد أحسن من حد، وأجاب في تحدٍ قائلاً:

- (يا أخوي هواتف الجوالات دي قاعدة تسوي شنو، لو في خبر في آخر الدنيا، دقائق قليلة ويكون عندك، يعني ما سمعت الغناي لما قال: (أبو عيون كحيلة، دقائق قليلة سحرني وفات).

لبضع لحظات دارت أفكار كثيرة في رأسه، شمشرة مرات يصيب ومرات يخيب، ولكن قرائن الأحوال في الشهور بل الأيام الأخيرة حملت إشارات كثيرة بأن مثل هذا الأمر متوقع حدوثه في أية لحظة، والحرب أولها كلام، والكلام الحار بادروا به، (خليها تمطر حصى)، (العمارات دي إلا يسكننها الكدايس)، (الجيش ما فوقه زول رابط قاشو)، (نحن البنقاتل ونحن الحارسين الحدود). الميليشيا تستجلب وتحشد قواتها داخل العاصمة، مئات تاتشرات مسلحة بثنائي ورباعي، عربات مدرعة، شاحنات محملة بمقاتلين، الجو مكهرب مائة في المائة، الناس يتكلمون (قيامة البلد دي قربت تقوم).

وقع الخبر عليه صاعق جداً، مفجع جداً، لا يمكن السكوت عليه إن صح فعلاً، ودعه ومشى على عجل:
- (يا أخوي مع السلامة، الله يكذب الشينة).

مشى مسرعاً نحو بيته، نسي أغراض عيد عزم على جلبها فالأيام أواخر رمضان، نسي أسطوانة غاز عليه أن يبذل غالي ورخيص للحصول عليها لأن أنبوبتهم على وشك نفاد، نسي فاتورة دفع مقدم للكهرباء، نسي كل شيء إلا التأكد من صحة الخبر، أول ما فعله شغل جهاز التلفاز، ما سمعه ورآه، أكد له ما كان يخشاه، وأن شمشرة كان صادقاً فيم قال، لم يستهين بالأمر، شعر بمخاوف عظيمة، قال في نفسه:
- (الله يجيب العواقب سليمة، العارف بالله فرح ود تكتوك حلال المشبوك قال شنو (الخرطوم تعمر لسوبا... وتتفكك طوبة طوبة)

العارف بالله ود دوليب قال شنو (وبيننا لا يجمع الإله...وجمعنا دين الهوى يأباه!! ثم تكر الدولة العلية... فتأخذ السودان بالقهرية!! وأنه سيطرق السودان...لا خير في السودان بعد الآن). الميليشيا ميليشيا في كل مكان وفي كل زمان، لا يردعها رادع ولا قانون، خصوصاً إذا كان من يقودونها جهلة طائشون).

استلقى على ظهره في سرير موضوع قبالة التلفاز، وضع كفيه أسفل رأسه بدلاً من الوسادة، استرخى، أغمض عينيه، سرح مع خياله، دخل في حالة هذيان خفي (جيش داخل مدن، ميليشيا داخل نفس المدن، إذن معارك داخل هذه المدن، مواطن مسكين مطحون ثم مطحون بين شقي رحى، جيش غير مفهوم، وميليشيا نافخة في حالة استعداد واستنفار، تنفش في ريشها من زمان، تبرز عضلاتها من زمان، غرور عجيب، عينها لا ماليها شعب ولا عسكر، المشكلة في شعب مسكين، والمشكلة الأكبر في ناس تعبانين، فقرانين، رزق اليوم باليوم، بدون حرب منتهيين، بدون حرب واقعين واطه، لا أمن لا أمان، بعدين يمشوا وين، أكل كيف؟ شراب كيف؟ عمل ما في.. مرتب ما في.. ليس لهم منجى ولا مفر؟ مصائب

كثيرة، خصوصاً مع عدو جاهل، غبي، متوحش، لا دين، لا أخلاق، لا هدف مشروع أو غير مشروع، من ضربتهم مثل هذه الحروب من شعوب الأرض، أصبحوا أثراً بعد عين، خراب بعد عمران، تحول كل شيءٍ فيها في غمضة عين إلى ركام، رماد، وهباب، لم تسلم مصانع، مستشفيات ومصحات، فاجعة كبيرة أن الشعب أعزل من كل دفاعات، لا مخابئ، لا ملاجئ، لا أنفاق، لا جُحُر أبو انضلاف، لا مطمورة عيش، ولا صفارات إنذار، حتى البيوت غالبيتها مسقوفة بألواح زنك، زنك بدون مواصفات، زنك من ورق، ضربة حجر تخرمه، يعني ولا تكتح، يعني الناس إبطهم والنجم، عرايا في فضاء الله).

دخل في حالة من سكون، لا صاحٍ ولا نائم، لا حي ولا ميت، ظل في هذه الحالة إلى ما شاء الله له أن يظل. رفع رأسه فجأةً من الوسادة كمن لدغته عقرب، تراءى له أنه سمع صوت أزيز طائرات، صوت قذائف مدفعية، وصوت انفجارات، استوى جالساً على طرف سريره، وإذا بزوجته واقفة تنظر إليه بعينين ملؤهما خوف، وفزع من كل شيء، من موت، إصابة بطلقة أو قذيفة، علاجات السكري أبعد من السراب، أخبار ولد غائب يملك محلاً تجارياً في بناية لهم بإحدى ضواحي المدينة؛ نظر إليها بعينين حمراوين متورمتين، عاجلته بعبارات قصيرة سريعة قائلة:

- (يا راجل إنت نائم لحدي هسي.. الدنيا مقلوبة فوق تحت.. البلد خربت.. ناس الحارة كلهم في الشارع.. كل واحد يقول كلام على كيفه.. ما في زول عارف من الصادق ومن الكاذب.. قوم أمشي شوف باقي حاجات العيد قبل ما الأمور تجووط وتخرب أكثر وأكثر).

رد عليها قائلاً بصوت حمله كل شحنات صبر وجلد كامنة فيه، لعله يبعث فيها شعوراً بطمأنينة ويقلل من قوة الصدمة عليها، هو رجل وهي امرأة، والرجال قوامون على النساء، وهذه هي لحظة استنادها على ظهر جامد، على معدن فولاذ لرجل مالئ ثوبه:

- (يا حاجة الحكاية دي ما أظن تأخذ وقت طويل.. عقلاء ووسطاء سوف يتدخلون في الموضوع.. ما أظن الحكاية ح تتوسع أكثر من كده.. أمشي أخذي راحتك وأنا ماشي على السوق).

نظر في ساعة هاتفه الجوال فإذا هي تشير إلى العاشرة صباحاً. ذهبا سوياً إلى المطبخ، حمل كيس النايلون الكبير الذي اعتاد على استخدامه في حمل أغراض بيته، خاطبها قائلاً:

- (مع السلامة.. أعملي حسابك).

ردت قائلة:

- (ما تمشي بعيد.. الله معاك.. فتح عيونك كويس).

يمم وجهه شطر السوق، سوق (شنقيط)، يقسمه شارع الإسفلت نصفين، في نصفه الغربي محطة محروقات، وكر للمجرمين، يحده من الشمال (خور مرزوق)، خور العفن، مرتع مجرمي البشر، ومكب زبالة الحيوانات والبشر، لاحظ تجمهر أهل الحارة في شوارع وأزقة على غير عادتهم، الخبر وقع عليهم وقوع الصاعقة، إنهم ليسوا بالناقصين، يكفيهم ما هم فيه من عنت ورهق وشظف عيش. وصل الى دكان ود الماحي، المشهور برخص أسعاره وجودة بضاعته، في العادة بوابة دكانه تكون دائماً مكتظة بالزبائن، ولكن هذه المرة حجم الاكتظاظ أكبر بكثير مما هو عليه في العادة، وقف خلف الواقفين، أحاديثهم كلها تدور حول الكارثة التي حلت بالبلد. لمحه أبو قناية صاحب مكتبة قرطاسية وحيدة في الحارة، كثيراً ما كان يمازحه ويتجاذب أطراف الحديث معه حينما تكون مكتبته خالية من الزبائن وتعج بناموس ناقل ملاريا وتيفويد وفئران أم سي سي وجقور، خاطبه قائلاً:

- (سلام عليكم يا الفحيل أفندي سمعت بالخبر ولا لأ، رأيك شنو؟ أول تبادي، جبت زكيبة عيش؟ جبت كيس رز كبير؟ جبت شوال سكر كبير؟ جبت باقة زيت كبيرة؟ جبت بصل؟ جبت مكرونة؟ جبت شرموط، جبت ويكة، جبت قرقوش، جبت ده كله وخزنته في بيتك ولا قاعد تتفرج؟ يا زول هوي أعمل حسابك، جايه أيام

صعبة، بعدين البرد يشرطك، والتراب يملأ خشمك، وبعدين أوعك تتجنن وتقول صاحبي أبو قناية ما نصحني وما جاب خبري).

ابتسم ابتسامة فاترة من طرف شفته ثم خاطبه قائلاً:

- (يا خوي ربك يستر ويلطف بعباده، نعقلها ونتوكل، كلامك صاح، والمكتوب في الجبين لازم يحصل).

دخل (الحمش)، صاحب ورشة تصليح الإلكترونيات على الخط قائلاً بصوت لا يخلو من فظاظة:

- (أها، رجعنا ثاني، مصائبكم، وغلطاتكم، وغباوتكم لازم ترموها على القدر، ربنا أداكم أمخاخ لكن لا تريدون تشغيلها، ودي النتيجة، خراب بلد أصلها من الأساس خربانة).

رد آخر لا يكاد يبين وسط الزحام بصوت مبحوح مزكوم قائلاً:

- (يا أخوانا البلد دي لا عسكر نافع، لا سياسي نافع، وزيادة على السجم ده كله نطت لينا داهية اسمها ميليشيا، وداهية ثانية اسمها حركات مسلحة، وداهية ثالثة اسمها رأسمالية فاسدة، سمعتم بأي بلد في الدنيا، عالم ثالث ولا عالم عاشر فيهو كلام فارغ زي ده).

رد آخر وهو يستشيط غضباً:

- (أها.. رجعت ريمة لعادتها القديمة، لازم تفسدوا علينا رمضان، شهر توبة وغفران، شهر رحمة وتسامح بكلام سياسة تافه فاسد، سياسة وسخة دمرتكم، ما تركتكم تمشوا عديل أبداً يا ناس يا غجر، يا ناس يا غافلين أصحوا من النوم، يا ناس يا ضلاليين توبوا لله).

رد آخر في نبرة ساخطة قائلاً:

- (والله فعلاً غجر، وألف ألف غجر، البلد ماشه لي وين، ماشه لي خراب وأنتم تتفاصحون، ذيل الكلب عمره ما ينعدل).

رد آخر في نبرة متعجبة قائلاً:

- (بلد عجيبة والله، المليشيا هاجمت بيت الضيافة، مقر سكن قائد الجيش مستهدفة قتله أو اعتقاله، هاجموه بتاتشرات، ثنائيات ورباعيات، وبأكثر من ستمائة فرد، تصدى لهم الحرس الجمهوري وتم إفشال مخططهم مطار الخرطوم تم اقتحامه،

وكذلك مباني الإذاعة والتلفزيون التي كانت مسؤولة عن تأمينها، المهندسون تصرفوا بذكاء حينما شاهدوا قوات ميليشياوية جديدة بخلاف قوات التأمين الموجودة أصلاً، قاموا بإنزال شارة البث من الأقمار الصناعية وغادروا المبنى ولكن باقيهم مع مجموعة من أسرى من الأحياء المجاورة للإذاعة اقتادوهم قسرا إلى داخل المبنى واتخذوهم دروعاً بشرية).

رد آخر في نبرة يائسة متشائمة قائلاً:

- (يا أخوانا الحكاية شنو، بلدنا دي مسحورة، ملعونة، حكايتها شنو، ده عيد ثالث، الأول مجزرة فض الاعتصام، الثاني كورونا، وده حرب، فهمونا الحاصل شنو؟ نعمل شنو؟ نعمل لينا أجنحة نطير في السماء، ولا نشق الأرض ونغطس فيها؟).

رد عليه آخر بنبرة متهكمة:

- (إذا كان بلدك بحر ما فيهو تمساح، ما لازم يقدل فيه أي ورل).

قطب حاجبيه، نظر شذراً نحوهم، وضع أغراضه داخل كيسه، جرجر رجليه ومشى على مهل نحو بيته. زادت تجمعات الناس في الشوارع، لقطهم وجدالهم يصم الآذان، الأطفال التصقوا بسيقان آبائهم وأمهاتهم، واجمون، قد يكونون غير مدركين لما يحدث، ولكن تقاطيع وجوههم توحي بأنهم في حالة رهيبة من ذعر وخوف. فتح بوابة بيته الخارجية بهدوء، دلف من باب بهو داخلي، رأى أم عياله واقفة، ماسكة بهاتفها الجوال وهي تتحدث بطريقة هستيرية، وضع كيسه داخل المطبخ، استلقى على سريره، لم يمض وقت طويل وإذ بالمؤذن ينادي لصلاة الظهر، توضأ على عجل ويمم وجهه شطر المسجد. بعد الفراغ من الصلاة اتكأ بظهره على أحد أعمدة المسجد، جلس مصلون في خشوع، منهم من يقرأ القرآن، منهم من يدعو لبلده وسائر بلاد المسلمين أن تنعم بأمن وأمان، ومنهم من تنتابه مخاوف فيشرد بخواطره إلى المجهول. رأى مصلين يتحلقون في حلقات، أصواتهم عالية لا تتناسب مع قدسية المكان. أرخى سمعه معهم، سمع بعضاً من هرجهم:

- (يا أخوانا الحرب دي كانت مولعة من زمان، بس في انتظار طلقتها الأولى).
- (كلكم رأيتم الميليشيا وهي تحشد حشودها، وتدخل سيارات عسكرية، دبابات، وعتاد عسكري إلى داخل العاصمة).
- (ما يحيرنا، ويجننا، أننا كنا نتفرج على فلم (كاوبوي)، بدلاً من كاوبويات راكبين خيول، عفاريت راكبين تاتشرات عليها رشاشات دوشكا، ثنائي، ورباعي، وبدلاً من قبعات يغطون رؤوسهم ووجوههم بكدمول. كنا نضحك عليهم لأننا كنا أغبياء لم نفهم الطبخة، وإذا كنا نحن غبش أغبياء ما منا عقلاء، أليس لنا جيش، استخبارات، شرطة، سياسيين، صحفيين، و...؟).
- (يا أخي ديل فاضين، ديل ما شغالين بهمومنا، ديل كيدهم بينهم عظيم، شغالين مصالح شخصية، حزبية، حسد، حقد، حفر، وخم، كان دار أبوك خربت شيل ليك منها شيلة).
- (يا أخوانا استهدوا بالله شرق أفريقيا ما ناقص، أثيوبيا والعياذ بالله، صومال عمره ما شاف عافية، تشاد، جنوب السودان، إرتريا، الكنغو، كينيا، يوغنده، كلها حدث ولا حرج، عشان كده المعلمين الكبار، أمم متحدة، أوروبا، وأمريكا ح يتدخلوا ويلموا الموضوع).
- (كلامك صاح، ديل في يدهم عصا، والعصا لمن تفرعن وعصا).

تركهم يخوضون فيما هم فيه وسرح مع همومه، مشاغله، وأفكاره، (غصباً عنه جره حنين إلى ماضي موغل في القدم، التاريخ لا ينفصل عنا أبداً، التاريخ يعيش في داخلنا، ناصع أو قاتم، شئنا أم أبينا، أجداده الذين ينحدرون من أبيهم حام بن نوح عليه السلام بلحمهم وشحمهم، بسحنة داكنة سوداء، بأشكال غريبة، وبأجساد طويلة ضخمة يغطيها شعر كثيف، يسكنون كهوفاً، يستخدمون في حياتهم أدواتاً من حجر، بعد فترة طويلة يتحسنون يستخدمون بدلاً من ذلك برونزاً، ثم يستقرون حول وادي النيل، ويأتي إليهم مهاجرون من صحراء جافة، نتج عن هذا الاختلاط على مدى قرون

نظام اجتماعي تكلل بظهور مملكة النوبة (مملكة كوش)، حاضرتها كرمة، ضعفت انهارت وتفرقت إلى ثلاث ممالك، نوباتيا، مقرة، ودنقلا القديمة، اعتنقوا مسيحية متأثرين بمصريي الشمال؛ ثم أتى عرب مسلمون بعد أن غزوا مصر البيزنطية غزوها ولكنهم لم يفلحوا، ابرموا اتفاقية عدم اعتداء، استقروا في شرق النيل حيث أسسوا عدة مدن ساحلية وتزاوجوا مع سكانه من البجا، ممالك النوبة بعد أن بلغت ذروة قوة سياسية وتطور ثقافي بدأت مرحلة تدهور وانحدار، قبائل بدوية اجتاحت معظم الأراضي، واستقرت في أراضي سهلية منبسطة، تدمرت ممالك النوبة باستثناء مقرة التي بقيت كمملكة صغيرة؛ ثم الفونج أسسوا مملكة سنار، امتدت شمالاً حتى دنقلا، ازدهرت ثم تهاوت كسابقاتها من ممالك، الحاكم العثماني على مصر يغزو من أجل الرجال والذهب، الغزاة بعد طيب مقام أدخلوا تحسينات على حياة الناس بأساليب ري وزراعة قطن، ثم ضيقوا عليهم بسبب ضرائب وجبايات قاسية أرهقتهم مما جعلهم يجأرون بالشكوى ويظهرون المعارضة، ثم ضاقوا أكثر بسوء إدارة، فساد، وتجارة رقيق؛ قوات المهدية الثائرة قتلت الجنرال غردون وأعلنت سقوط الخرطوم، زال الحكم التركي المصري، حاولت جيوش خليفة المهدي غزو الحبشة، الاستوائية، ومصر، سعى الإنجليز إلى استعادة سيطرتهم نتيجة لتزايد مطامع فرنسا وبلجيكا على حوض النيل، خشوا من أن تستغل هذه الدول ضعف المهديين فتنقض عليهم؛ قاد الجنرال كتشنر حملات عسكرية اسفرت عن انتصار حاسم في معركة أم درمان، معركة أم دبيكرات انتهت بمقتل الخليفة ونهاية المهدية، المنتصران بريطانيا ومصر اتفقا أن يدير السودان حاكم عام تعينه مصر بموافقة بريطانيا، الإنجليز كانوا يديرون البلاد كمستعمرة للتاج البريطاني عكس المصريين الذين كانوا يعملون على توحيد وادي

النيل تحت قيادة مصرية، السياسة البريطانية قامت على إدارة البلاد على أساس منطقتين شمال وجنوب، قتل الحاكم العام للسودان في مصر، أعقبه تغيير اسم كتيبتي الجيش إلى قوة دفاع لتحل محل حامية سابقة لجنود الجيش المصري، شاركت هذه القوة في الحرب العالمية الثانية في كسلا وليبيا؛ بدأت الثورة المصرية مسيرتها نحو استقلال البلاد بعد إلغائها لنظام ملكي هناك، رأوا أن الطريقة الوحيدة لإنهاء الهيمنة البريطانية هي أن تتخلى مصر رسمياً عن مطالبتها بالسيادة عليه، شعرت الدولتان بعدم الاستقرار فيه اختارتا السماح له، شماله وجنوبه، بتصويت حر حول استقلاله أو وحدته مع مصر، نتج عن عملية الاقتراع تشكيل برلمان ديموقراطي، من داخله تم إعلان الاستقلال، أقيم احتفال خاص بقصر الشعب قصر الحاكم العام سابقاً، تم فيه إنزال العلمين مصري وبريطاني ورفع علم البلاد الجديد بألوان ثلاث أخضر، أزرق، وأصفر؛ أول انقلاب عسكري قاده الجنرال عبود، سقط بعد فترة وجاءت حكومة مدنية، قاد الجنرال نميري انقلاب ثاني، جاءت بعد فترة أطول حكومة مدنية ثانية، قاد الجنرال البشير انقلاب ثالث، الاستقرار والتنمية في فترات حكم عسكري أفضل منها في فترات حكم مدني، انفصل الجنوب جوهرة البلاد، اندلعت احتجاجاتٍ شعبية حاشدة بسبب قرارات اقتصادية خاطئة أفقرت الناس، تطورت إلى مطالبة بتنحي البشير، اعتصمت جماهير حاشدة أمام مقر الجيش الرئيسي؛ قرر الجنرالات التدخل لإنهاء نظام استمر لمدة ثلاثين عاماً، بعد عدة شهور فقط ارتكبت حشود عسكرية (مجزرة الخرطوم)، فرقت بالقوة الاعتصام الذي أطاح بالنظام السابق، أدى ذلك إلى تعليق عضوية البلاد في الاتحاد الأفريقي، عادت الاحتجاجات من جديد ثم توقفت عندما وقعت قحت والمجلس العسكري الانتقالي على اتفاق سياسي، وعلى

مشروع إعلان دستوري يتضمن إجراءات ومؤسسات انتقالية، ضُرِب بكثير من نصوص الاتفاق عرض الحائط، جلس قائد الجيش وقائد الميليشيا على سدة الحكم، الأول رئيساً والثاني نائباً له، ضاع شباب قادوا احتجاجات ضحوا فيها بأرواح، باعهم ساسة فاوضوا باسمهم وقدموا للعسكر تنازلات ما كانوا يحلمون بها، عمالة، خيانة وسفالة، البلاد حسبت نفسها من الأعراب، انضمت إلى جامعة الدول العربية منذ نيلها الاستقلال، جامعتهم تجتمع مع كل نكبة، وتنفض بمسكنات وليس بحلول شافية، الساحل الأفريقي من سواحل المحيط الأطلسي انتهاءً عند البحر الأحمر عانى من جور الطبيعة منذ بداية السبعينيات، ضربته موجات جفاف وتصحر جعلته غير صالح لسكنى البشر، صار أهله في صراع وجودي، سياسات دولهم أجحفت في حقهم بأن ضيقت عليهم الخناق بإقامة مشاريع استثمارية على أراضيهم، حرمتهم حرية التنقل مع مواشيهم في مسارات تعودوا عليها منذ وقت طويل بحثاً عن ماء وكلأ، مع هذا النمط من الحياة انعدم تعليم منظم، لأنه يكون مع استقرار وليس بداوة وترحال، مسلمون، ولكن إسلامهم تشوبه عادات وممارسات لا تمت للإسلام بصلة، ربما تكون أقرب منها إلى عادات جاهلية، نهب ،سرقة، زنا، وقتل رغم أنها منكرة ولكنها شائعة، نزح بعضهم إلى الجنوب، أتوا إلى غرب البلاد، بمواشيهم وعاداتهم وخصوصياتهم، انضموا إلى أبناء عمومتهم وجاوروا السكان الأصليين ولكنهم لم يندمجوا معهم، هناك هوة فجوة سحيقة بين الإثنين، ثم انخرطوا في كتائب مسلحة شجعتها حكومات لقمع قوى مناوئة وخمد ثورات عرقية، شبت هذه الكتائب عن الطوق، سموها جنجويد، ثم تطورت إلى دعم سريع، هم ومن يمتون إليهم بصلة من دول الساحل، نيجر، تشاد، مالي، وليبيا، يشعلون نار حرب لن تبقي ولن تذر؛ منذ انتهاء نظام البشير

ومجيء نظام حكم انتقالي وليد وثيقة دستورية ضعيفة، انتقلت الشرعية على طبق من ذهب لعسكر وميليشيا وأحزاب سياسية هشة لا وزن لها، أحوال البلاد لا تسر أبداً، فض الاعتصام جريمة لم تشهد البلاد مثلها من قبل، عنف، سحق، قتل، واغتصاب، جريمة دخيلة وافدة من دول الجوار، لا تشبه شعب طيب مسالم ، فعلها محترفون، مجرمون متمرسون ينتمون للميليشيا، البلاد تعيش حالة فوضى، دخلت الميليشيا لعبة السياسة، قائدها رجل الدولة الثاني وأحياناً كثيرة الأول، الفأر لعب في عب كل من له لب، تحالف العسكر مع المليشيا، أطاح الاثنان بحكومة مدنية، ولعت نيران الشارع مرةً أخرى، الشباب الثائر نادى بقوة وثبات، (العسكر للثكنات)، (الجنجويد يتحل)، (ما في ميليشيا ب تحكم دولة)، انشغل العسكر بالثائرين، بمظاهراتهم وهتافاتهم، والميليشيا تنهب ذهب البلاد، تمنح رقمها الوطني لكل من هب ودب، تجيش، تتسلح، دبابات، مدافع، مصفحات، تتوسع، تستنفر، تدرب، تجاوزت حكاية جزء من عسكر إلى عسكر داخل عسكر، أقامت تحالفات داخلية، زعماء وشيوخ قبائل تم إغراؤهم بمال وسيارات، وكلام معسول، واستثارة نعرات قبلية، وتهديد مبطن. زيارات خارجية مكوكية، بنت علاقات خارجية، تجاوزت حكاية جزء من دولة إلى دولة داخل دولة، ساء الحال، جيش البلاد صمام الأمان في مرمى النيران، أصابع اتهام قذرة تشير إلى أن العسكر ما هم إلا بقايا نظام سابق، كيزان، يناوؤون ديموقراطية ومدنية ويضمرون لها العداء، وهم ينفون بشدة، يبصمون بالعشرة أنهم براء من مثل هذه ترهات، براءة الذئب من دم بن أيوب، الميليشيا وجدت لها ظهير سياسي، أصبح لها مشروع، لها أذرع إعلامية، ولها مؤيدون، لا تنكر ذلك، تفعله على العلن، على عينك يا تاجر، ما حدث الآن ما هو إلا نتيجة طبيعية لمراهقة سياسية، لأهواء شخصية، عداوات قبلية

مكبوتة خامدة تحت رماد مصالحات واهية، وأن ما فيه البلد من عفن، وسخ، تيه، وضياع سببه انعدام شعور بالوطنية، وحينما تذهب الوطنية مع الريح تذهب معها العزة، الشرف، وكرامة الوطن).

أخرجه صرير إغلاق نوافذ المسجد من تهويم وسرحان وهلوسة في ماضي بعيد لا يسمن ولا يغني من جوع، وحاضر بائس، ومستقبل ضبابي غامض، انفضت الحلقات، عاد إلى بيته، استلقى، راح في سبات عميق. ثم شعر من بعد ذلك بيد أم عياله تربت على كتفه، جاءه صوتها معطراً ببركات رمضان:

- (قوم يا راجل، الأذان أوشك على النداء لصلاة المغرب).

نهض على عجل، دخل الحمام، استحم كما لم يستحم من قبل، أزاح عن جسده أدراناً وعن قلبه أوهاماً، شعر بخفة، كأنه طائر يطير بجناحيه في فضاء، غير ملابسه التي اتسخت بفعل غبار، تراب، ودخان عوادم سيارات، حمل صينية إفطاره، قدح عصيدة، صحن فول مصري، صحن سلطة، طبق بليلة، جك حلو مر، جك عصير برتقال، وذهب إلى حيث يتلملم جيرانه في صعيد واحد، افطار جماعي متاح لكل عابر طريق صائماً كان أو مفطراً. بعد أن ابتلت عروقهم وامتلأت بطونهم خرج صوت أبو علي صاحب نكتة وسخرية، يسخر حتى من نفسه، لا يعجبه عجب ولا صيام في رجب، محطماً جدار صمت خيم على المكان قائلاً:

- (يا أهل الله فهمونا الحاصل شنو؟ البلد مقلوبة فوق تحت، البلد واقفة على رجل واحدة، يعني أقل هزة تقع تتكسر، لا يفضل فيها لحم، لا عظم، ولا عصب، ويا روح ما بعدك روح).

رد عليه أبو كلام ضاحكاً بلكنة عجيبة لها عداوة مع بعض حروف الأبجدية، خصوصاً حرف الحاء الذي يبدله هاء قائلاً:

- (ده كلام شنو يا أبو علي، الهِصَة وَتَن، أين الوتَنِيَة؟ راحت خلاص مع أول امتِهَان؟ زمان شن قلنا، ما قلنا التير بأكُلنا، زمان كنتو تضحكو علينا، حاقرين بينا، يلا خُمُوا وصُرُوا).

هتف أحد الضيوف قائلاً:

- (روقوا المنقه يا صائمين، دعاكم مستجاب بإذن الله في هذا الشهر الكريم، شهر رحمة وبركة، أكثروا فيه من الدعاء، ربنا يجنب بلدنا شرور الحرب، الما عارف الحرب لينظر غرباً وشرقاً وليرجع إلى التاريخ، ذلة، مهانة، قتل، تشريد، خراب، دمار شامل، واستباحة لكل شيء).

رد هشام، فتى ثائر، في نبرة حادة يشوبها نوع من شعور بثقة زائدة على الحد قائلاً:

- (يا أهلنا، يا حبايبنا، ويا قرائبنا، الجاياك ما بتختاك، إن شالتَك خير وإن خَلَتك خيرين، ومَرمِي الله ما بترفع، نحن أصلنا كده الله رامينا ما في زول أبداً يقدر يرفعنا، حرب، حرب، ربنا يشيل الطالح ويخلي الصالح، ربنا يشيل الوسخان ويخلي النظيف).

في تلك اللحظات مر بهم ود الغجرية وسيجارته في فمه ينفث دخانها يميناً ويسارا، نادى عليه أبو علي قائلاً:

- (تعال يا فردة خذ ليك لقمة لقمتين، جغمة جغمتين).

أومأ إليهم برأسه وذهب في حال سبيله، استطرد أبو علي قائلاً:

- (أنا غلطان، الله أعلم إنه يكون صائم رمضان، النوع ده الله يكفينا شره، ساعة الحرب، ساعة فوضى، ساعة عدم وجود شرطة وقانون ديل أكبر خطر على الناس).

رد عليهم الفحيل بنبرة يشوبها نوع من حزن وأسى قائلاً:

- (يا أخوانا أنظروا إلى السماء، ذات البروج، هل هي التي تعرفونها؟ أراها ملبدة بغيوم، ملبدة بدخان، يفصل بيننا وبينها غبار وتراب، تنذر بشر مستطير، لا أقول لكم كما قالت عاد قوم هود، هذا

عارض ممطرنا، وإنما أقول لكم كما قال لهم هود عليه السلام، ليس الأمر كما رأيتم وإنما ريح فيه عذاب شديد).

ودعهم بعد أن حمل صينية إفطاره، عاد أدراجه إلى بيته. نظر إلى الأشجار التي زرعها أمام بيته، خضراء يانعة مزهرة، نظر إلى زهريات وضعها بعناية على أطراف البهو الخارجي، أزهارها وورودها تبسم كأنما الوقت ربيع. وجد أم عياله عابسة قاطبة وجهها، مخاوفها تزداد مع مرور كل لحظة.

حاول أن يلاطفها ويخفف عليها خاطبها بلباقة قائلاً:

- (يا حاجة شدة وتزول).

ردت قائلةً وهي تصك وجهها:

- (يا حاج، لا تكذب على نفسك، ولا علي، لا خير يأتي من وراء هذه الميليشيا، هيئاتهم وأفعالهم توحي بأنهم لا يتورعون عن فعل أي شيء لا يرضي الله).

تركها واقفة، ذهب إلى غرفته، شعور غريب دفعه لأن يأخذ من دولاب ملابسه ألبوم صور أرشيفه الذي يوثق لأهم أحداث حياته، صور أفراد أسرته، أمه، زوجه، ولديه وبنتيه، والكثير من أقربائه وأصدقائه. دهمه النوم وهو يغوص في ذكريات بعيدة جرته إليها الصور.

(٣)

سمع صوت آذان الفجر، صياح ديوك، مواء قطط، نباح كلاب، وشقشقة عصافير، دبت الحياة في كل الكائنات مع خيوط الفجر الأولى، إنه الآن يتبين الخيط الابيض من الخيط الأسود، فاتت عليه وجبة سحور يحرص عليها كل الحرص، بدونها يشعر أن نهار رمضان طويل جدا، جوع كافر، عطش قاتل، والنفس أمارة بالسوء، ولكنه دائماً ما يحمد الله ويقول في سره لولا أن شياطين الجن في رمضان مصفدة لوقعت في محظورات رمضان وصرت كلباً من كلابه الضالة، في طريقه إلى المسجد كانت السماء صافية إلا من بعض غيوم، وآخر النجوم في طريقها إلى الاحتجاب، أنوار لمبات أبواب البيوت صفراء خافتة لأنها تنبعث فقط من بيتين متباعدين، ولمبات أعمدة الكهرباء ميتة مهشمة بفعل عبث لأطفال وهواية تدميرية مفضلة لديهم، جعلت منهم أعداء للحياة والجمال، دائماً ما كان يخشى من ضعف الرؤية في مثل هذا الوقت، أن تتعثر إحدى قدميه في واحدة من حفر لا يخلو منها شارع، تكونت مع مرور الأيام بفعل مياه استحمام وغسيل تُدلق عشوائياً في أيتها اتجاه بدون مراعاة لعواقب وخيمة، قصة أحد أقربائه (النور) ليست ببعيدة، المسكين دأب على ملازمة المسجد والذهاب إليه قبل المؤذن وقبل دغش الرحمن، وما كان يدري ما يخبئه له القدر، تعثر في حفرة أخت لهذه الحفر، من لطف الله عليه وقع على جنبه ولم يقع على أم رأسه، كسر عظمة يده اليمنى، انقطع زمناً عن مسجده الذي يحبه، كل ذلك بسبب عدم والي أو خليفة يخشى من أنه إذا عثرت حمارة جرباء تجر برميل ماء على عجلات في سوق ليبيا أو كرور هو مسئول عنها أمام الله. دخل المسجد، أول ما لفت انتباهه (قُجَبْغا) واقفاً يصلي مرتدياً زي عسكري ميليشياوي، بشرته ما بين فاتحة وداكنة، قامته قصيرة قصراً بائناً لا تخطئه عين، مشيته لا توحي بأنه خضع من قبل

لتدريب عسكري شاق، طيب، يتعامل مع الناس بطيبة زائدة وأخلاق عالية، ولكن عيبه أن مزاجه حاد يتوتر ويتهيج لأتفه الأسباب، ما كان يأتي الصلاة من قبل بهذا الزي أبداً، يعني ذلك أنه جدَ في الأمر جديد. بعد الفراغ من الصلاة جلس الفحيل كعادته يتفكر في ملكوت الله، ولكن في هذه اللحظة انتابته هواجس كثيرة، في مركزها انتصب قُجَبْغا بزيه المبرقع، رآه من قبل أن يصير ميليشياً يعمل في طاحونة غلال استأجر محلها، المحل وقفٌ مبنيٌ على سور المسجد من الناحية الجنوبية، يفصل بينه وبين فرن وورش صف مباني سكنية ذات طابق واحد. كان يعمل بهمة ونشاط، فهو كثير عيال، هو وأم عياله خصوبتهما عالية، فوق المعدل الطبيعي. رجع إلى ذاكرته ذلك اليوم الذي كان واقفاً فيه مع (شمشرة) يتجاذبان أطراف الحديث وشاهداه يقود سيارةً كوريةً بيضاء، ثم يترجل منها أمام باب بيته، يفتح صندوقها وينزل ما به من نعم كثيرة.

سأل الفحيل:

- (الزول ده ما عنده اسم ثاني غير قُجَبْغا؟).
- (ما عارف ليهو أي اسم ثاني غير هذا الاسم).
- (على ما أظن أن كلمة قُجَبْغا مركبة من كلمتين قُجَ وبَغَا).
- (يعني الفحيل مركبة من كلمتين ألْف ثم حِيَل؟).
- (أيوه كلامك صحيح يا جاهل، ألم تسمع بألف حيلة وحيلة على وزن ألف ليلة وليلة، وبعدين زول قُجَبغْا يعني زول تافه، و فحيل يعني ظاهر الفحولة، ثاني فضل فيها فحل ولا فحيل يا أخوي شمشرة، خلاص راحت علينا، حليل زمن الرجال كسارين عناقريب).

مات من الضحك رد قائلاً:

- (الله يجازيك يا فحيل، كان كدي البلد دي طب عدمت الرجال، فضلوا بس رجال الحيرة، لكن الله أعلم وحسب ما علمت أنه ده لقبه ما اسمه، يمكن اسم قبيلته، يمكن في جماعة اسمهم أولاد قُجَبْغا).
- (الناس في بلدنا مهووسون بحاجة اسمها قبيلة، ما في قبيلة إلا وجدها الأول قرشي جاء من أرض الحجاز، وما في قبيلة وإلا وهي الأفضل والأشجع من بين القبائل).
- (سألتك بالله أنظر إلى لافتات المحلات والدكاكين، مغلق الشايقي، مطعم الدنقلاوي، بقالة البطحاني، دكان البرقاوي، أخشاب الخندقاوي، سلطان كيف أولاد الفور، عطارة الجعلي، ما تركوا أسم قبيلة إلا وعلقوه لافتة).
- (هذا العبث غير موجود إلا في بلدنا دي، نحن نعيش في القرن الواحد وعشرين بعقلية ما قبل القرون الوسطى، القرون المظلمة، نرجع لموضوعنا ثاني الزول ده حكايته شنو؟).
- (الشمشرة العندي إنه ما معروف جاء من وين، لكنه تزوج واحده من بنات البندر واستقر في واحدة من الحارات، ثم أتى إلى هنا واستأجر البيت الذي تراه، وعمل محل الطاحونة التي تراها).
- (وحكايته مع الجنجويد شنو يا أبو العريف؟).
- (يقولون والله أعلم أنه واصل، من الأتباع الخلص لزعيم الجنجويد الكبير ذات نفسه، ولي نعمته، والدليل ودوه اليمن ثلاث مرات، في الأولى كدس ذهباً واشترى أبقاراً وبيوتا، في الثانية اشترى مزيداً من الأبقار والبيوت، في الثالثة زود عدد الأبقار والبيوت واشترى السيارة التي رأيتها تقف قدام باب بيته، المصيبة إنه لا يعرف يسوقها ولكنه يعرف يسوق خيول وجمال وحمير، لذلك في أول مشاويره قال لعمود النور جاك بلاء، حشرها فيه، طلع بملمتر واحد من موت محقق).

- (الميليشيا أصبحت جاذبة، ضباط وجنود تركوا جيش وشرطة البلد وانخرطوا فيها، لأنه مرتباتها عالية، بدلاتها أفضل، سياراتها جديدة كرت، لبس تمام، أكل تمام، نغنغة ما بعدها نغنغة).
- (يا شيخ الميليشيا كبرت بِقَت حاجة ثانية، بلعت كل شيء، غول بلع البلد كلها).
- (المثل يقول: (دجاجة الخلاء طردت دجاجة البيت) شعب مسكين، لا حول له ولا قوة، كل ما يعمل ثورة، ينطوا فيها أولاد الحرام، خلاص قنع من خيرٍ فيها).
- (كلامك ده ذكرني حاجةً مهمة، طلعت حكاية كده، ما عارف صاح ولا غلط، في جماعة قالوا رأوا صاحبك ده ذات نفسه ليلة فض الاعتصام يفجخ في رؤوس الناس).
- (كل شيء هذه الأيام جائز).

خرج من هواجسه، خرج من المسجد، بحث عن نعليه لم يجدهما، قال في نفسه:

- (العوض عند صاحب العوض، السُراق لا يفرقون بين مسجد وبيت عرس، بين رمضان وشعبان، هم شياطين خبثاء الله يكفينا شرهم).

مشى حافياً إلى بيته، جذبت انتباهه في الطريق ثلاث طائرات هيلوكوبتر حربية تطير على ارتفاع منخفض تتجه من شمال إلى جنوب، أكبر قاعدة جوية عسكرية في البلد تقع شمالاً. أم عياله منذ أن بدأت هذه الأحداث وتغيرت عاداتها، كانت تغفو في مثل هذا الوقت ولكن النوم جفى عينيها، لأن قلبها مشغول بهواجس كثيرة، فهي تعرف ماذا تعني الحرب معرفةً تامة، قنوات الجزيرة، العربية والحدث الفضائية إذا وقعت مشاجرة بين غرابين فوق سطح بناية ينقلون خبرها، وهي من الذين أدمنوا متابعتهن، تابعت حرب أوكرانيا، وكيف دمرتها روسيا، لم تترك ابن آدم، حجر، شجر، أو مدر، شاهدت حشوداً عسكرية كبيرة، مروحيات ودبابات حديثة، مسيرات، قنابل جوية، صواريخ فرط صوتية، زرع ألغام في

كل مكان، شاهدت دماراً واسعاً، ألسنة لهب ودخان تتصاعد في كل مكان، موتاً، جثثاً مرمية في الشوارع، تحول كل شيء إلى كتل ركام ورماد، لم تسلم طرق، جسور، مطارات، سكة حديد، محطات مياه، محطات كهرباء، دور رعاية صحية، مناطق مدنية وسكنية، مؤسسات طبية، مؤسسات تعليمية وثقافية، جرائم موجهة ضد أطفال، إبادة جماعية، نقل أشخاص قسراً إلى روسيا من مناطق مختلفة، شاهدت حالات عنف جنسي، تعذيب جنسي لرجال، واغتصاب جماعي لنساء وفتيات، شاهدت جرائم سوء معاملة لأسرى، تشويهم وتعذيبهم، مهاجمة مدنيين بينما كانوا يحاولون الفرار، خلال الأسبوع الأول من الحرب فر أكثر من مليون أوكراني من منازلهم ولجأ كثير منهم إلى خارج أوكرانيا. لا يهمها إن الهدف من الحرب ظاهرياً تجريد أوكرانيا من السلاح واجتثاث النازية حفاظاً على أمن روسيا القومي، أو باطنياً استعادة أمجاد اتحاد سوفيتي قديم، ما يهمها أن مناظر القتل والدمار أصبحت تثير فيها الخوف والقلق والكآبة لدرجة أنها أصبحت تخشى على نفسها من أن تصاب بلوثة جنون، عاجلته متسائلة قائلةً:

- (أين حذاءك يا حاج مالك ماشي حافي القدمين؟).

أجابها قائلاً:

- (سرقوه يا حاجة).

قالت:

- (كمان في سرقة في المسجد وفي رمضان؟).

قال:

- (الفقر كافر، يمكن السارق محتاج).

قالت:

- (نعم في سراق محتاجين، وديل كثيرين هذه الأيام، الحياة صعبة، لا تطاق، أنظر لحالة المرأة المسكينة التي تأتينا لتنظف البيت وتغسل الملابس، تأخذ ألف جنيه يومياً مواصلات، وخمسة

عشر ألف أجرة عن كل أسبوع، يعني أجرة شهرها تسعين ألف جنيه، تعادل ثلث مرتبي وأنا معلمة في الدرجة الثانية، أنا موجهة).

قال:

- (يا أستاذة هل تعلمين أن ثلث أهل بلدنا يعانون من الجوع، يعني واحد من كل ثلاثة ماشين في الشارع جوعان بطنه لاصقة على ظهره).

قالت:

- (هو الجوع ده كيف، هسي نحن ما جوعانين؟ الكهرباء بشيء فلاني، كشف دكتور بشيء فلاني، دواء بشيء فلاني، مشوار ركشا بشيء فلاني، فضل شنو للأكل، تقول ثلث البلد جياع، لو ما أخاف الكذب ثمانية وتسعين في المائة منهم جياع، واحد في المائة ربنا موسع عليهم، والواحد في المائة الثاني عندهم عيال مغتربين يقومون نحوهم بالواجب).

قال:

- (المشكلة في سراق وما هم جياع، وما هم محتاجين، نفوسهم أمارة بالسوء، في ساعة الحرب، الله يكفينا شرهم، ديل دائماً وأبداً بحرب وبدون حرب يعيثون في الأرض الفساد).

أثناء حديثهما نما إلى سمعهما أصوات قصف بالطيران، ونيران أرضية، بدا لهما أن المسألة ليست مزحة وإنما هي حرب حقيقية، هرعا إلى غرفة التلفاز، سمعا حماسيات من مارشات عسكرية وأغاني وطنية، الأخبار تقول أن معاركاً تدور حول المدينة الرياضية، وأن الميليشيا سيطرت على مدينة مروي في أقصى شمال البلاد، وعلى قاعدة جوية توجد على تخومها، وأن الجيش بصدد إعادة السيطرة عليها، وأنها تحتجز بداخلها قوات مصرية كانت تجري مناورات عسكرية مشتركة وتعتبرها قوات احتلال، قبل أن يفيقا من هذه الصدمة جاءهما خبر صادم ثاني، سيطرت الميليشيا على مطار الخرطوم، توقفت فيه حركة الطيران، تحركت نحو

القصر الجمهوري والقيادة العامة للجيش، حيث يوجد منزل القائد رئيس الدولة، دارت معركة شرسة هناك، اسودت الشاشة، انقطع الإرسال، شاهدا قناة الجزيرة الإخبارية، أكدت خبر نشوب قتال في محيط مباني الإذاعة والتلفزيون بمدينة أم درمان.

قالت:

- (يا حاج ولدك أخباره شنو؟، إنت خلاص عقلك راح، اتصل بالتلفون أعرف الحاصل عليه شنو).

قال:

- (حاضر يا حاجة).

أمسك بالهاتف، تكلم معه ثم استطرد قائلاً:

- (يا حاجة قال: بظبط في أموره، جزء من بضاعته ح يخزنها في بيت واحد صاحبه، والجزء الباقي يرحلوا هنا).

قالت:

- (البضاعة طائرة، ولد رأسه ناشف وعنيد).

قال:

- (يا حاجة استهدي بالله، (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة، صدق الله العظيم).

في هذه الأثناء بدأت أصوات الاشتباكات تبدو واضحة أكثر وأكثر، وبدأت دوامات الذعر والخوف فيهما تتوسع أكثر وأكثر، مشاهد حرب أوكرانيا تنتابها، تشل جوارحها، تعصر ضلوعها، تضغط على قلبها، تفجر رئتيها، تسحق كبدها، تدمر أعصابها، قنوط ويأس يفجران عينيها، صمم يضرب أذنيها، بكم يلجم لسانها، نار تحرقها من رأسها إلى أخمص قدميها، أما هو كل ما قرأه في كتب التاريخ وما درسه لطلابه عن الحروب وويلاتها، عن جبروت

الطغاة، ظلمهم، وسخهم، تلفهم، فسادهم، وعفنهم، يؤكد له أنه على مر التاريخ لا توجد حرب نظيفة، ولا ينسى أبداً مقولة شعبية (بلد دخلها بووت خليها وفووت).

خرج من بيته لكي يتنفس الصعداء قليلاً، مد بصره إلى شارع الأسفلت الأوحد الذي يربط حارته بوسط المدينة، رأى رتلاً من سيارات عسكرية، حب الاستطلاع الكامن فيه دفعه لأن يذهب ليتحرى الأمر، صادف أبو قناية يخب كجمل أطرق ذاهب في ذات اتجاهه لنفس الغرض.

خاطبه قائلاً:

- (الدنيا خلاص خربت).

رد قائلاً:

- (وكت خربت قاعد حارس شنو؟).

قال:

- (خادم الفكي مجبورة على الصلاة).

رد قائلاً:

- (إنت ما جائب خبر يا فحيحيل، ناس الجريف قالوا سمعوا أصوات انفجارات شديدة، شوارع القصر مقفولة بمدرعات ميليشياوية، بأي ثمن تسعى للسيطرة عليه، وعلى القيادة، وبيت الضيافة، الجيش ضرب مقر قيادتها، الكباري كلها مقفولة، المطار ساحة قتال، طيران ما في، الميليشيا قالت ستواصل جهودها من أجل حماية المكتسبات، وطالبت شرفاء الجيش لمساندتها، فعلاً الإختشوا ماتوا، كل واحد فيهم قال قائده في مكان آمن ويتابع العمليات العسكرية بنفسه).

جاءهما صوت (أبو علي) الذي كان واقفاً بالقرب منهما يتجاذب أطراف الحديث مع (الشوين)، يرخيان سمعهما من وقت لآخر لالتقاط بعض حديثهما وهما يشاهدان ما يجري في الشارع من تدفق حركة سيارات عسكرية، و(الشوين) معروف أنه لا يخفي مناصرته للميليشيا:

- (نزيدكم شمار شوية، الطيران دمر أي جحر تابع للمليشيا، وكمان رأس الحية مضروب، ما معروف ميت ولا حي، المليشيا في النيل الأبيض سلمت للجيش، الفاشر دورت، الارسال التلفزيوني انقطع، طيارة سعودية انضربت في المطار).

قهقه (الشوين) بصوت عالي ورمى بعبارة واحدة قائلاً:

- (حلم الجوعان عيش).

قال في نفسه (هذا حال الدنيا، كما للحق أنصار، للباطل كذلك أنصار)، التفت نحو (أبو قناية) نظر في وجهه نظرة ذات معنى، ثم خاطبه قائلاً:- (الباب البجيب الريح سدوا وأستريح، مع السلامة، شوفتك بعافية).

جرجر رجليه نحو بيته، بنفس منقبضة، بخاطر مكسور، تمدد في سريره، لا هو بصاح ولا نائم، ساعته الزمنية تلخبطت، كل شيء فيه تلخبط، لا يعرف إن كان جوعانا أو شبعانا، مفطراً أو صائما، مقبلاً أو مدبرا، نسي جدول الضرب، نسي حروف الأبجدية، نسي التاريخ والحاضر والمستقبل، نسي شهر رمضان، تذكره بعد أن هتفت في وجهه أم عياله:

- (قوم يا حاج أذان المغرب أذن).

حمل صينية إفطاره وذهب إلى الضراء، كان صامتاً كغير عادته، والآخرون كانوا كذلك قليلي الحديث، هواجسهم ومخاوفهم تمنعهم الكلام، لا يريدون أن يخوضوا فيما يجلب لهم المتاعب، ويزيدهم تعاسة على تعاستهم. بعد فراغهم من تناول إفطارهم حمل صينيته، توكأ على خيبته وقلة حيلته، بصق بصقة ضعفٍ ذلٍ وهوان سدت حلقه، اقتحمت عينيه عنوةً صور لبلدان من حولهم نهضت من لا شيء، ويا لحسرته بلده غاطس في وحل تخلف وفساد وفرقة، تأفف وردد في سره:

(صدق من قال ستأتي على الناس سنون خداعة، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، السفيه يتكلم في أمر العامة).

ما عاد الليل كسابق عهده به، كان ياما كان، كان الناس في أوله يمشون في غاية الانشراح، في بهجة يتزاورون، أطفالهم في براءة يلعبون، أصوات مغنيين تنطلق من بيوت أفراح وليالي ملاح، وآخره هدوء، سكينة وسكون، وطمأنينة تامة، أما الآن بعد آفة الجنجويد المضرة المزعجة، تغير الليل إلى ظلام دامس وخوف ورعب، أصوات إطلاق النار، والانفجارات، لا تتوقف، أنَى لها ذلك وهؤلاء المرتزقة الأوباش الهبل يمسكون بأزندتها، لا يهمهم أين تقع، ومن تقتل، لأنهم أعداء للحياة، صناع للموت.

(٤)

الفحيل مفتون بإشراق الصباح، لدرجة الجنون، كثيراً ما غنى به وله، كثيراً ما تغنى بأبيات شعر، حفظها عن ظهر قلب، وكثيراً ما رددها (أقبل الصبح جميلاً.. يملأ الأفق بهاه، فتمطى الزهر والطير.. وأمواج المياه، قد أفاق العالم الحي.. وغنى للحياة، فأفيقي يا خرافي.. وهلمي يا شياه...)، (صباحك يا صباح الخير.. صباح البهجة والفرحة، صباحك زي صباح العيد.. ورسمة جميلة في لوحة، سعادة زول صبح مسرور.. وصوت عصفور وقت يصحى، قراية شيخ مع الحيران.. حلاوة طفلة بي طرحة، حباب زين ومرحبتين.. حقيقة قلوبنا منشرحة...)، هذه الأبيات في تلك اللحظة، بهتت معانيها عنده، ماتت دلالاتها، تلاشت إيحاءاتها، وتلميحاتها، وكل رمزياتها، حروفها صفراء، يابسة، ناشفة، لا براعم ولا زهيرات لها، خرساء جامدة لا جرس ولا موسيقى لها، كيف يكون لها كل ذلك؟ وسماء صافية تحلق وتعربد فيها مروحيات عسكرية، صبا وأنسام صباح مشبعة بكربون وبارود، هدوء وسكينة يزلزلها قصف وتفجير، ما رشح من أنباء، قصف سلاح الجو معسكر الميليشيا في الصالحة أم درمان، سيطر الجيش على جميع مقراتها، وصلت الاشتباكات مدينة كسلا، ادعت الميليشيا تعرض قواتها لهجوم من طيران أجنبي في بورتسودان، أسروا مصريين في مطار مروي، اتفاق أممي لوقف إطلاق النار بشكل مؤقت لفتح مسارات إنسانية آمنة لفترة ثلاث ساعات، اندلاع اشتباكات بمقر قيادة الميليشيا بالأبيض، اسقاط مروحية في الخرطوم بحري، تجدد معارك عنيفة بالخرطوم، مضادات أرضية تتصدى لطائرات حربية في سماء العاصمة. في ظل هذا التصعيد خطرت له خاطرة ملحة، صلة الرحم، هذا وقتها، معرفة أخبار وأحوال الأهل في ظرف راهن تعيس، أم عياله جلست على حافة سريرها بعد ليلة طويلة مؤرقة قضتها مع كوابيس مزعجة، خاطبها قائلاً:

- (الوقت ملائم للاتصال بأهلنا، نعرف أخبارهم، ويعرفوا أخبارنا، ونطمئن عليهم، ويطمئنوا علينا).
سألت:
- (عندك رصيد كفاية؟).
قال:
- (عندي خدمة، خذي راحتك، تكلمي كما تشائين).
أمسك بالهاتف، بدأ بأختها في الوادي الأخضر ببحري، ردت قائلة:
- (نحن بخير، منطقتنا هادئة، نسمع صوت اشتباكات ودانات من بعيد، طائرات تحلق في السماء، الدنيا مقلوبة، الأحوال بشكل عام لا تبشر بخير، الناس كلها مرعوبة خائفة).
ثم بولدهما (صدام) بضاحية الكلاكلة، رد قائلاً:
- (نحن بخير، لكن أخبار الخرطوم لا تبشر بخير، خصوصاً القصر والقيادة، نسمع أصوات قصف وانفجارات، معسكر أبو طيرة قريب من هنا، وكذلك المدرعات قريبة من هنا، الميليشيا عندها معسكر طيبة من أكبر معسكراتها، وهو قريب من هنا، لذلك الناس يتوقعون حدوث معارك طاحنة في هذه الأماكن، البضاعة في المحل سوف أخزن نصفها في بيت صديقي الذي يسكن في حي قريب من معسكر أبو طيرة، لأن ذلك المكان أكثر أماناً، والنصف الباقي سوف أحضره معي غداً لأخزنه بالبيت).
ثم بأهلهما بالحارة الخامسة الثورة أم درمان، ردوا قائلين:
- (نحن بخير، أصوات اشتباكات متقطعة، متوقعين الأسوأ).
أهلهما في المهندسين أم درمان، ردوا قائلين:
- (نحن قريبين جداً من الخرطوم، ومن سلاح المهندسين، الخرطوم مولعة نار، نسمع أصوات انفجارات، وسلاح المهندسين دباباته على أهبة الاستعداد، ونسمع أصوات ضرب من ناحية الإذاعة).
أهلهما في التلال بحري، ردوا قائلين:

- (نسمع أصوات انفجارات، الطيران حائم في الأجواء، الميليشيا متواجدة بكثافة في مدخل منطقتنا منذ فترة طويلة، متمركزة عند الترعة ومحطة الكهرباء، الناس على الدوام في حالة خوف منهم، ليس لهم أمان).

أهلهما في الأبيض، ردوا قائلين:

- (الأمور مشوشة عندنا، الميليشيا هاجمت مطار الأبيض، حرقوا طائرتين في المطار، تصدت لهم قوات الهجانة، الوضع خطير شوية، ربنا يستر).

أهلهما في دار السمبر، ردوا قائلين:

- (طريق الصادرات، طريق الأبيض بارا أم درمان، سبب البلاء، لأنه طريق إمداد مهم للميليشيا، كل مددهم من مقاتلين وعتاد ووقود يأتيهم من الغرب عبر هذا الطريق، ماشيين وجائيين فيه على كيفهم).

أهلهما في مدني، ردوا قائلين:

- (نسمع أخبار محبطة عن الخرطوم، وأم درمان، وبحري، الأحوال عندنا حتى هذه اللحظة هادئة، عموماً الناس ما متفائلة خير).

أهلهما في أم روابة، ردوا قائلين:

- (سمعنا بأخبار الحرب، الناس خائفة من شارع الإسفلت الأبيض كوستي، الذي يمر بأم روابة والرهد، وتندلتي، تاتشرات الميليشيا متحركة فيه بحرية تامة، وفي شباب من أولادنا انضموا لهذه الميليشيا الملعونة).

وأخيراً أهلهما في عطبرة، ردوا قائلين:

- (سمعنا بأخبار سيئة عن الخرطوم ومروي، الأحوال هنا حتى هذه اللحظة ما فيها ما يثير القلق، ولكن كل شيء جائز، إذا بدأت الحرب ستسري كالنار في الهشيم في بلدنا الذي يعاني من عدم استقرار منذ فترة طويلة).

نظر كل منهما في عيني الآخر، أحياناً لغة العيون أبلغ من لغة الكلام، إنهما في ورطة، ورطة حقيقية، كبيرة، والبلد كلها في ورطة

أكبر، حاضرهما الماثل أمامهما كئيب جداً، خياراتهما محدودة جداً، محاصران في خرم إبرة، مستقبلهما مجهول جداً، يحمل لهما كوارث ومفاجآت لأن العدو جاهل وحاقد وقاتل جداً. رن جرس الهاتف، المتحدث من الطرف الآخر أولادهما في السعودية، قالو إنهم يتابعون الأخبار من مصادر كثيرة، وأنهم خائفون على البلد ومن في البلد، ويستفسرون عن أحوال أهلهم جميعاً وخصوصاً جدتهم في دار السمبر ردا عليهم بأن الأهل بخير، وأن الحرب في بداياتها، والحافظ الله.

شهد مساء ذلك اليوم تحليق كثيف للطيران، دوي انفجارات، وأصوات مضادات أرضية، أنارت السماء كألعاب نارية. تسارعت الأحداث فيما بقي من أيام رمضان، هدوء حذر في صباح اليوم التالي، حريق في مبنى وزارة التعليم العالي بالخرطوم، قتال عنيف هناك بمختلف أنواع الأسلحة، تجددت المعارك حول القيادة والقصر، طائرات حربية تحلق في المكان، وصلت المعارك مقر جهاز المخابرات العامة، عاد التلفزيون بعد انقطاع لمدة ساعات، استمر تحليق الطائرات في سماء مروي، قصف مقر زعيم الميليشيا في حي المطار، بدأت هدنة مؤقتة لثلاث ساعات، خرقت باشتباكات بأسلحة ثقيلة في منطقة جبرة، زعيم الميليشيا وصف قائد الجيش بالمتطرف الإسلامي الذي يجب أن يحال للعدالة، وهذا بدوره وصفه بأنه يقود محاولة انقلاب وتمرد على الدولة وأنه سيحاكم أمام القضاء حال القاء القبض عليه، اسقاط طائرة حربية قرب معسكر النسور بأم درمان. ثم توالت الأحداث بوتيرة سريعة، إصدار عفو عن كل من يضع السلاح من أفراد الميليشيا، قصف مطار مروي، احتدمت المعارك حول القيادة والقصر، الأوضاع الصحية والاجتماعية تزداد سوءً من يوم لآخر، خروج عدد من المستشفيات والمرافق الصحية من الخدمة بسبب القصف الذي طالها أو بسبب الاشتباكات على مقربة منها. غارات عنيفة للطائرات الحربية على مواقع الاشتباكات، شنَّت طائرات حربيّة

سلسلة من الغارات العنيفة على مواقع الاشتباكات حول القصر، ارتفعت وتيرة المواجهات، قصف للمناطق السكنية، هدنة أمريكية مقترحها أربعة وعشرين ساعة لم يتم احترامها، تدمير سكن الممرضات بمستشفى ابن سيناء، نفاد الإمدادات الطبية في مستشفيات الخرطوم، إغلاق تسعة مستشفيات في الخرطوم، رغم الهدنة طائرات حربية تحلق في السماء مع المضادات الأرضية التي تحاول اعتراضها، تجدد الاشتباكات بالأسلحة الثقيلة في الفاشر، تورط أطراف إقليمية ومحلية في المعارك إلى جانب الميليشيا. ثم هدأت الأوضاع قليلاً مقارنة بالأيام السابقة، مع وجود اشتباكات محدودة ومتقطعة، معارك كر وفر بالقصر للسيطرة عليه، دوي انفجار بالقرب من مطار الخرطوم وتصاعد أعمدة الدخان من هناك، نقل الرعايا المصريين من مطار مروي إلى الخرطوم، هدنة جديدة، خرقت الهدنة في الخرطوم بعد ساعة من إعلانها، محاولات أطراف دولية للتوسط بين الجانبين للدخول في هدنة طويلة الأمد أو الوصول لحل نهائي يوقف الحرب. لم يدم الهدوء طويلاً، سمع دوي انفجارات متقطعة وسحب دخان، وامتد الأمر إلى أم درمان، اشتباكات بالأسلحة الخفيفة والمتوسطة، وكذلك الفاشر، انفجار عنيف يهز حلة حمد ببحري، مهاجمة المليشيا غرب أم درمان رغم الهدنة اثناء تصديها للهجوم اسقاط مروحيتين للجيش، ليرتفع العدد إلى أربع طائرات منذ بدء الحرب، قيام المليشيا بأعمال نهب واسعة في الخرطوم ودارفور، قصف رتل للميليشيا في المويلح قادماً من الغرب، تسليم المصريين للصليب الأحمر، اشتباكات متقطعة بالأبيض، سلاح الجو يدمر أرتالاً عسكرية في طريقها للخرطوم، أعلن الجيش لا وجود لقوات مسلحة خَارِجَهُ بعد اليوم، ولا تفاوض مع المتمردين إلا على تسليم كامل، إعادة تبعية قوات حرس الحدود للجيش، مبادرة القوى الوطنية لهدنة أثناء العيد.

قبل يوم من العيد (يوم القفلة) استرجعت العاصمة بعضاً من أجواء الحياة العادية، شهدت الأسواق حركة أثناء الليل مع استعداد السودانيين لتوديع رمضان واستقبال العيد. دعت بعض الجهات الخارجية لهدنة لمدة اثنتين وسبعين ساعة خلال أيام العيد ولم يتم الالتزام بها من الطرفين، بعض المساجد ألغت صلاة العيد، كان عيداً فاقداً للطعم واللون، أجواء الحرب خيمت على نفوس الناس، لا ملابس جديدة لصغار ولا أطفال، حركتهم محدودة. ما كان في بيت الفحيل حلوى أو خبيز وإنما ما بقي من بلح رمضان، والمعيدون على قلتهم لا يدخلون البيوت، المعايدة من الشارع والسلام عليكم، جلسوا ثلاثتهم، هو وأم عياله وابنه يتناولون طعام إفطار أول أيام العيد، خاطبتهم بوجه مكتئب قائلةً:

- (الله يجازي الكان السبب، دي حالة دي، ده عيد ولا بيت بكاء).

رد وهو يمضغ الطعام بدون أن يشعر له بلذة قائلاً:

- (يا حاجة كيف يكون في عيد ونار جهنم مولعة، وكل يوم زائدة أكثر).

خاطبهم ولدهما صدام بنبرة ساخطة قائلا:

- (العسكر قالوا الحسم في ثلاثة يوم، طلع كلام فارغ، قالوا في أسبوع، طلع كلام هواء، كل يوم جديد وحسمهم أبعد من البعيد).

ردت بنبرة حزينة قائلةً:

- (أها والعمل كيف، بعد شوية لا ماء، لا كهرباء، لا دواء، ولا أكل).

رد قائلاً:

- (الناس لما يضيق بها الحال غصباً عنها تفكر في البدائل، ما في زول في رأسه مخ يموت فطيس، حب البقاء فطرة ربانية).

رد صدام قائلاً:

- (أنا شائف يا حاجة الأفضل تسافري البلد، التوتر الشديد مع مرض السكري يؤدي إلى مضاعفات خطيرة).

قطبت جبينها ثم ردت بوجه عابس قائلةً:

- (نقعد سوى، نموت سوى، ونحيا سوى).

نفضت يدها من بقايا الأكل، استوت واقفة، ثم استطردت قائلةً:
- (أنا ماشه على الجيران، شوفوا ليكم شغلة أقضوها).
خاطب ابنه قائلاً:
- (في أشياء كثيرة الزمن كفيل بعلاجها).
رد قائلاً:
- (أنا أخشى أن يكون ذلك بعد فوات الأوان).

خلال أيام العيد والأيام التالية حلقت طائرات حربية في السماء ومضادات أرضية تحاول اعتراضها، اشتباكات متفرقة بدأت ثم خفت، استدعاء الآلاف من عناصر الجيش والمخابرات وقوات الاحتياط لعمل مسح كامل لولاية الخرطوم، نهب مخازن الهلال الأحمر ببحري، طائرات تهاجم الجريف، بعد اشتباك مع الشرطة اقتحمت الميليشيا سجن الهدى وأطلقت سراح جميع نزلائه، اصطحبت ثمانية وعشرين سجينا من المتهمين بالقتل العمد. رغم الهدنة تجددت الاشتباكات في محيط القصر والقيادة، مع تصاعد دخان كثيف من محيط القصر، زادت معركة الخرطوم مع كثافة استخدام الطيران، ومع زيادة الاشتباكات وتعقد الأمور أكثر وأكثر حاول سكان الأحياء الجنوبية للعاصمة الخروج من مناطق المعارك والتوجه إلى مدن أخرى. على المستوى الدولي بدأت السعودية في إجراءات ترحيل رعاياها، أجلت واشنطن سبعين من رعاياها، أعلنت دول عربية وأوربية أنها بصدد ترحيل رعاياها، طائرات حربية تحلق في سماء الفتيحاب والمضادات الأرضية ترد. أحدثت الاشتباكات أضراراً كبيرة في البنية التحتية، قطعت شبكة الانترنت فيما استمرت خدمة المكالمات، توسع الصراع في أم درمان قصف بالطائرات ورد بالصواريخ، مهاجمة الميليشيا لمواكب عدد من السفارات خلال عمليات الإجلاء، تبادل إطلاق النار في بحري ودوي انفجارات جنوب العاصمة، نزوح من الخرطوم نحو الولايات خصوصا الجزيرة ود مدني، تفاقمت الأوضاع أكثر مع انقطاع التيار الكهربائي وانعدام مياه الشرب عن العديد من أحياء العاصمة.

توسع الصراع أكثر في أم درمان قصف بالطائرات ورد من المضادات، عاد تبادل إطلاق النار في بحري، دوي انفجارات جنوب العاصمة، ازداد نزوح المواطنين إلى خارج الولاية، مع انتشار الميليشيا زادت طلعات سلاح الجو، احتماء الميليشيا بالمجمعات السكنية واتخاذ المواطنين دروعا بشرية، تدهور الوضع الإنساني وهروب جماعي للمواطنين من القتال، فر بعضهم إلى دول الجوار، مقتل مساعد الملحق الإداري بالسفارة المصرية بالخرطوم، أنباء عن هدنة جديدة بين الطرفين. دخلت هدنة جديدة، خامس هدنة يتم الاتفاق عليها، كذلك لم يلتزم الطرفان وخرقت الهدنة بعد سبعة ساعات، سرعان ما ساءت الأمور وبدأت اشتباكات جديدة حول القصر، وسمع دوي انفجارات، وامتدت الاشتباكات إلى أم درمان.

هذه الأجواء القاتمة المرعبة جعلت أهل الحارة في حيرة من أمرهم، انعدم أمنهم وأمانهم، اختفت قوات الشرطة، نهبت مقارها، نهبت مخازن أسلحتها، آلت للميليشيا وللمجرمين الذين أطلقت سراحهم من السجون، أغلقت جل بقالات الحارة أبوابها، لانعدام الأمن، ولاستحالة جلب بضائع جديدة، المصانع حرقت ومخازن تجار الإجمالي نهبت. الفحيل مجبور ولا بطل أن يذهب لسوق شنقيط، ودع أم عياله وداع مفارق ربما لا يعود، حمل عصاته، قضيب حديد، كل مصيبة من مصائب الدنيا متوقعة، والهروب فضيحة، الشوارع والأزقة خالية من الناس، إلا من واحدة أو واحد يمشي على حذر يلتفت يمنة ويسرى ليدرأ عن نفسه أي خطر داهم يمكن أن يأتيه فجأة، وكلاب وقطط، فرادى وجماعات، تذهب وتجيء مطمئنة آمنة. وقف على مبعدة من طرف الإسفلت ينتظر عبور رتل من سيارات تاتشر عسكرية، ثم عبر إلى الطرف الآخر، ذهب إلى زبون له بائع خضار، خاطبه قائلاً:

- (سلام عليكم، يا زول إن شاء الله سالمين، وأهلكم ما جاءهم شر).

رد قائلاً:
- (الحمد لله، على كل حال، عائره وأدوها سوط، كنا راضين بقسمة ربنا نلقط مثل الدجاج من هنا وهناك، الآن كل الأبواب قفلوها علينا).
رد قائلاً:
- (خضارك مالو شويه، في أصناف كثيرة ما موجودة، ما في طماطم، ما في خيار، الحكاية شنو).
رد قائلاً:
- (أنتم ما جائبين للدنيا خبر، الخضار في المزارع محتاج عمال يلموه، ووسائل نقل تنقله، مع الحرب الكلام ده وين، عشان كده أسعاره طارت السماء، وبعدين كل شيء صار مجازفة، يعني أنا قاعد في محلي ده يمكن تجي طلقة طائشة توديني السماء ذات البروج، ولا يجيئك واحد من عيال الحرام (النيقرز) شائل ساطور يهددك عشان يأخذ ما عندك).
رد قائلاً:
- (يعني معنى كلامك ده ما في مفاصلة في السعر، بس سُكيتي تشيل وتفوت، وتقول الحمد لله).
رد قائلاً:
- (نعم الحمد لله، الليلة لقيت، بكره الله أعلم تلقى).
ذهب إلى بائع البصل، خاطبه قائلا:
- (السلام عليكم، أها الربع بي كم).
رد قائلاً:
- (الربع بألفين).
- (يا زول اتقي الله، ما كان أمس بألف واحد).
- (بالحيل كان بألف، ما في وارد للسوق، خلاص الموجود الحين إذا كمل، وطأتكم وأصبحت).

اشترى ربعين، الدنيا ما معروفة ماشه على وين، توكل على الله ودخل على الجزارة، خاطب صبي الجزار قائلاً:

- (أها كيلو العجالي بي كم).

رد قائلاً:

- (بأربعة آلاف جنيه).

- (يا ولد ما كان بي ثلاثة ألف جنيه).

- (كلام صاح، يا حاج هو في بقر، بقر يجي من وين مع الحرب، الفي ديل إذا كملن خلاص نشطب نقفل).

اشترى كيلوي لحم، وهمهم في سره: (إذا الكهرباء قطعت، ما في مشكلة، أم العيال تقطع باقي اللحم وتعلقه في الهواء، لحم قديد شرموط، وتخزنه بروتين لليوم الأسود، وربنا يكفينا شر القطط، حائمة طول الليل، ما فضل إلا تصحي الناس وتقول ليهم أدونا نأكل)، حمل أكياسه وعصاه في إبطه، ويمم شطر بيته، معظم دكاكين السوق مغلقة، تحت سقف برنداتها إما شماسة هدهم تعب وسهر، وهم نائمون كالموتى وفي أفواههم قطع أقمشة متسخة مشبعة بالسلس يون، وإما آخرون منهم يتشاجرون على غنائم سرقوها من أهل السوق، وإما كلاب وقطط نسيت عداوتها الفطرية، تنوم ملئ جفونها غير عابئة بغباء وخزعبلات البشر.

(٥)

دخلت الحرب شهرها الخامس، شهدت تدميراً ممنهجاً ومتعمداً، اعتقد البعض أن الحرب سوف تكون خاطفة لا تتجاوز الساعات القليلة، ظنوا أن الجيش في أضعف حالاته، وغير مستعد للقتال، وأن الميليشيا قوة ضاربة، منتشرة بشكل واسع ومتغلغلة في عديد من مؤسسات الدولة، وبعض المؤسسات الهامة تقع تحت حمايتها، في هذه الحالة لا تحتاج للقتال للسيطرة عليها، مثل القصر الجمهوري والإذاعة والتلفزيون وجزء من مطار الخرطوم الدولي وأجزاء من مباني القيادة العامة للجيش. منذ الأسبوع الأول للحرب اتجهت الميليشيا إلى تدمير أو سيطرة على مؤسسات خدمية عامة، خدمات المياه؛ قامت بتدمير المحطات التي تغذي ولاية الخرطوم بمياه الشرب النقية والتي تضم ثلاثة عشر محطة نيلية موزعة في مدنها الثلاث، في الخرطوم؛ المقرن وسوبا غرب، في أم درمان؛ بيت المال، المنارة، الفتح، وفي بحري؛ محطة بحري، والخوجلاب. فشلت هيئة المياه في الدخول لمحطة بحري للقيام بأعمال الصيانة، وتم اعتقال العاملين فيها، عرضت العاملين فيها لخطر الموت، اعتقلت عددا من العاملين واتخذتهم دروعاً بشرية بالإضافة إلى تدميرها لمساكنهم ببحري، توقف إمدادات المياه للمواطنين زاد من تفاقم أوضاعهم المتأزمة أصلاً، أغلب المواطنين غادروا المدن الثلاث بسبب انقطاع المياه. خربوا ونهبوا الأسواق، والمنازل، والبنوك ووثقوها بأنفسهم بالفديو، رفعوها لجهلهم وغبائهم على النت ووسائل التواصل الاجتماعي، اعتقاداً منهم أنها غنائم حرب مشروعة، حللها لهم اعتقاد فاسد، وزينها لهم مجتمع جاهلي، يعدونها مدعاة للفخار والرجولة، أمام أم قرون، حسناء الفريق التي تنتظر فارس أحلامها المجاهد في سبيل الله، الذي سيعود لها بمهر ثمين، منهوبات محملة على بوكس منهوب، قتلوا أصاحبها العزل بدم بارد،

فهموهم أن أي كوز أو جلابي كافر يستحق القتل. اقتحموا واحتلوا المستشفيات، اعتدوا على الكوادر الطبية، أجبروهم على علاج جرحاهم بالقوة، اختطفوا العديد منهم، ونقلوهم إلى مواقع الجرحى تحت وابل من الرصاص، اتخذوا من بعضها ثكنات عسكرية وعاثوا فيها فساداً وتدميرا، مستشفيات الخرطوم؛ التعليمي، الفؤاد، الأطباء، الساحة، يستبشرون، دار العلاج، الزيتونة، الدوحة. مستشفيات أم درمان؛ الدايات، التعليمي، آسيا، النيل الأزرق. قصفوا السلاح الطبي بالأسلحة الثقيلة. مستشفيات بحري؛ شرق النيل، البان جديد. نهبوا وحرقوا أسواق المواطنين البسطاء الذين بنوها بشقاء عمرهم. أسواق الخرطوم؛ العربي، الهواتف بعمارة السلام، برج البركة، السوق الإفرنجي، السوق المركزي، السوق المحلي، الميناء البري. أسواق أم درمان؛ الشهداء، المحطة الوسطى، السوق الشعبي، سوق ليبيا. أسواق بحري؛ سعد قشرة، المركزي شمبات، حلة كوكو، والتي تقدر قيمتها بملايين الدولارات. نهبوا وحرقوا بنوك العاصمة، وفروعها المنتشرة في الولايات الأخرى وجففوها من السيولة النقدية. حرقوا ونهبوا الجامعات، وخربوا محتوياتها، النيلين، السودان، السودان للعلوم والتكنلوجيا، الإسلامية المفتوحة، أفريقيا العالمية، الجامعات الحكومية والأهلية الأخرى، وكذلك دور النشر؛ الدار السودانية للكتب. احتلوا وخربوا ونهبوا مؤسسات الدولة؛ القصر الجمهوري، الوزارات الاتحادية، ومعظمها تقع على شارع النيل، المالية والتخطيط الاقتصادي، الخارجية، الداخلية، الحكم الاتحادي، الصحة، وغيرها، ومن المباني التي اقتحمتها كذلك دار الوثائق القومية التي تحوي المئات من الوثائق والمخطوطات التاريخية والتي اتلفوا محتوياتها، بالإضافة للمتحف القومي الذي يوثق للحقب التاريخية للسودان ومنها موميات عمرها مئات السنين، قاعة الصداقة مركز المؤتمرات الدولي، نادي الشرطة ببري الذي

يحوي فندقا والعديد من القاعات المجهزة للمؤتمرات، المتنزهات، مراكز الشرطة ونقاطها.

نهبوا منازل المواطنين العزل وممتلكاتهم، وقاموا باحتلالها واتخاذها ثكنات عسكرية وطردوا سكانها منها ونهبوها في وضح النهار، عبثوا بها واعتدوا على حرماتها، نهبوا السيارات والأموال والمجوهرات. اختطفوا النساء والقاصرات وذهبوا بهن إلى ولايات دارفور ودولة شاد، اعتمدوا في ذلك على معلومات قدمها لهم العديد من عملاء حول المنازل وممتلكات منسوبي الأجهزة الأمنية، أو حتى التجار الميسورين مقابل مبالغ طائلة لكل من يتعاون معهم. نهبوا أحياء الخرطوم؛ الرياض، العمارات، الخرطوم اثنين وثلاثة، الصحافات، الامتداد، الطائف، السجانة، جبرة، بري، امتداد ناصر، المنشية، حي الصفا، قاردن ستي، المقرن، توتي، أركويت، المعمورة، الجريف غرب، السلمة، الإنقاذ، الأزهري وغيرها، وأحياء أم درمان، «ولست أنسى بلدة أم درمان، وما بها من كثرة السكان، إ ذ مرَ بي إدريس في المدينة.. ويا لها من فرصة ثمينة، شاهدت أكداساً من البضائع.. وزمراً من مشتر وبائع...»؛ الملازمين، ود نوباوي، بيت المال، الموردة، بانت، الأمراء، الهاشماب، حي العمدة، أبو كدوك، العباسية، العرضة، المسالمة، المهندسين، الفتيحاب، المربعات، دار السلام، الصالحة، الدوحة، الهجرة، الثورات، مدينة النيل، الواحة، الحتانة وغيرها، وأحياء بحري؛ كافوري، كوبر، طيبة الأحامدة، العزبة، حلة حمد، الصبابي، المزاد، الديوم، المغتربين، الشعبية، الختمية، حلة خوجلي، حي الوابورات، الدناقلة، الميرغنية، الأملاك، عمر المختار، الواحة، الحلفاية، شمبات الأراضي، شمبات الحلة، البراحة، الكدرو، وأحياء شرق النيل؛ حلة كوكو، القادسية، الفيحاء، الحاج يوسف، الجريف شرق، أم دوم، حي الجامعة، الهدى، حي النصر، حي المصطفى، المنشية شرق، دار السلام، المغاربة وغيرها، وقرى الجزيرة المتاخمة للخرطوم؛ الباقير، الجديد الثورة، الجديد، عمران، بتري،

المسعودية، النوبة، السديرة الشرقية والغربية، كاب الجداد. التقديرات الأولية لخسائر الحرب وحجم الخراب الذي حدث في العاصمة فقط حوالي خمسين مليون دولار على أقل تقدير، لا يدخل في ذلك نهب مخازن الشركات والمصانع، الذهب وملايين الدولارات من خزائن المصارف ومدخرات الأسر من الحلى الذهبية ومدخراتها بالدولار، سرقة ما يتجاوز مائة ألف سيارة من المواطنين، التدمير الذي طال المصانع والجامعات.

كل هذا حدث والفحيل مسجون في الحارة، مداخلها مترسة بأخاديد وخنادق غائرة، وبأكوام حجارة وتراب، وبجذوع أشجار، وهياكل سيارات، الدانات تساقط من وقت لآخر، طلقات الرشاشات أحدثت ثقوباً في أبواب وشبابيك البيوت، وهشمت زجاجها، حتى المسجد لم يسلم من شرورها، أهل الحارة أتقنوا فن الانبطاح تحت الأسرة عند سماع أصوات الاشتباكات، مخابئهم وملاجئهم العمارات والبيوت المسقوفة بخرسانة مسلحة. كثيرون منهم تركوا بيوتهم ونزحوا إلى أهلهم في الريف، وسكن بيوتهم نازحون من أماكن أخرى تعرضوا لما هو أشد، مستجيرين من الرمضاء بالنار. حمل عصاته وتوكل على الله ويمم وجهه شطر سوق شنقيط، لعله يحظى برغيف سخن بدون زحام، لفت انتباهه منظر صبية يحملون أكياس سكر على درداقات، ذاهبون في نفس الاتجاه، تبعهم، هناك أمام محطة الوقود كل شيء معروض، مواد تموينية، أجهزة كهربائية، أثاث قديم وجديد، أواني منزلية، مكيفات، مراوح، خزانات مياه، كل ما يخطر على البال موجود، صدفة رأى أبو كلام وسط هذا العالم العجيب، مشى نحوه، خاطبه بنبرة متعجبة قائلاً:

- (السلام عليكم، الحكاية شنو يا كلمنت أمبورو، نحيا ونشوف، البلد دي ماشه لي وين).

رد قائلاً:
- (ما سمعت بسوق (دقلو)، سوق الحرامية، أنظر في وجوه الباعة، وجوه مجرمين لصوص، أي سعر تدفعه يقول ليك هات وشيل، خسران حاجة، ينهب ويبيع، ويمشي ثاني كمان ينهب ويجيء يبيع).
رد قائلاً:
- (والله فعلاً اسم على مسمى، أول شيء عملته الميليشيا طلعت المجرمين من السجون، مجرمون أطلقوا مجرمين، هدفهم الفوضى، بث الخوف والرعب وسط الناس، ليهربوا ويتركوا لهم بيوتهم ليعيثوا فيها فساداً لعنة الله عليهم أجمعين).
رد قائلاً:
- (يا خوي انت كان كده ماك فاهم حاجة، الميليشيا قالت البيوت بيوتنا، ما في زول عنده بيت ثاني، دي غنائم حرب، دولة ستة وخمسين راحت، أي حاجة معاها راحت، ده سودان جديد، البيت ملك لمن يسكنه الآن وليس لمن بناه، خلاص سودان جديد، يعني جديد، لا كوز لا شايقي لا دنقلاوي ولا زفت رماد).

لمحا الشوين خارجاً من وسط الزحام يحمل فرناً كهربائياً صغيراً في يده، ولما رآهما حاول أن يتفاداهما ولكن المسافة بينهما ما كانت كافيه لتسعفه ليهرب منهما، في النهاية وقع كالفأر في المصيدة خاطبه أبو كلام قائلاً:
- (سلام عليكم، ده كلام ده، تشتروا نهاراً جهاراً مسروقات سوق (دقلو)، سوق الحرامية والحراميات).
رد قائلا:
- (القال منو مسروقات).
رد الفحيل قائلاً:
- (في اثنين في الدنيا دي يتغالطوا إنها ما مسروقات).

رد قائلاً:
- (نفترض أنها مسروقات، نحن مجبورين، غاز ما في، بضاعة التجار كلها نهبت، نطبخ كيف، نشرب شاي كيف، تعرفوا للفصاحة بس، ده اسمه اقتصاد حرب، عنده قوانين خاصة، تعرفوا فقه الضرورة، للضرورة أحكام).
رد الفحيل قائلاً:
- (يا خوي الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، خليك في الحلال وأبعد من الباقي).
رد قائلاً:
- (تخلوا الفيل وتطعنه في ظله، وين الشرطة، وين الحكومة، اتكلموا في الجلادين سبب البلاء، خلونا نحن الضحايا المساكين).
خاطبه أبو كلام قائلاً:
- (يا خوي انت حر، أعمل ما في رأسك، ونحن أمرنا بمعروف ونهينا عن منكر).
رد قائلاً:
- (يا أخوانا هوي، العينو في رأسه يعرف خلاصه، فضووها سيرة).
التفت الفحيل نحو أبو كلام وخاطبه قائلاً
- (يا خوي خلينا مارقين، الراجل ما عجبوا كلامنا).

حمل كيس رغيفه، أعطى السوق قفاه، ويمم وجهه شطر بيته، وفي رأسه تدور أمهات هموم (يا الله لطفك، المصائب تداعت على أهلنا الطيبين، حرب، موت، قتل، دمار، خراب، خوف، انعدام أمن، قلع ونهب في وضح النهار، شح مواد تموينية، انعدام سبل كسب عيش، لا مرتبات، ولا أعمال، مكر بهم كل تعيس وكل خائب رجاء، كم من غني بالأمس فقير اليوم، كم من عزيز قوم ذل، كم من ساكن قصر بلا مأوى، يا الله، ضاقت بالناس السبل والحيل، يا الله، غزاة شعث غبر، لا يشبهون الناس، من أين أتوا، قطعاً من الجحيم أتوا، من يريد أن يرى شيطاناً عياناً بياناً فلينظر إلى وجوههم، عليها غبرة، ترهقها قترة، صم بكم لا يفقهون

حديثاً، يأجوج ومأجوج، القتل والنهب والاغتصاب شرعتهم ومنهاجهم في الحياة، لا يخشون الله، ومن لا يخش الله لا يخش لومة لائم، وعالم يدعي أنه حر يتفرج، عالم يكيل بمكيالين مبتهجاً يتفرج، الاستعمار بشكله القديم راح، وحل محله شكله الجديد، الشعوب مغلوبة على أمرها، وقادتهم بالمال أو بالشلووت بذلة يقولون سمعاً وطاعة لسيد أبيض عجوز، تنتظرهم جميعاً نار محرقة، لطفك يا رب).

لفتت انتباهه سيارة أخيه أيوب الذي يسكن المهندسين واقفة أمام الباب، قال في سره: (يا الله يا مدبر الكون بأقدارك، اللهم أجعله خير)، عند الباب تقابل مع ابنه صدام، سأله عن السيارة قائلاً:

- (دي سيارة عمك أيوب؟).

أجابه بالإيجاب، استطرد قائلاً:

- (دخلوها بالباب الثاني، الدنيا ما معروفة، الميليشيا ما خلت سيارة إلا وشفشفتها، ولا تنسوا سيارتهم وسيارتنا، عطلوهن بأي طريقة، انزعوا الأجزاء المهمة، فكوا الإطارات، خبئوا بعضها عند الجيران، إذا جاء أولاد الحرام ديل ما يحيرونا فيهن).

رد قائلاً:

- (يا أبوي ديل عندهم ميكانيكية جاهزين، مهما نعمل عندهم حل، كان غلبتهم، يربطوها يجروها، يجيبوا سحاب، يغصبوكم تدفوها المهم بأي طريقة لازم يشفشفوها).

دخل من الباب الداخلي لبيته، بذهن مشوش وبمخاوف مرعبة تموج في داخله حاول أن يتماسك بقدر الإمكان، وجدهم في حالة يرثى لها، صافح أخاه أيوب أولاً ثم ابنه يوسف، أما بناته الثلاث، آمنه، منا، وماريا من الرهق والتعب والسهر ما صدقن، وديك يا نومة، نومة ليها ضل، ثقيلة، لا يد ولا رجل لهن تتحرك، خاطبهم قائلاً:

- (طمئنونا يا جماعة، قلقنا وخوفنا عليكم كل يوم في زيادة أكثر، منطقتكم خطرة، قاعدين فيها تسووا شنوا، من زمان قلنا ليكم أمرقوا خلوها ليهم، كل شيء بيد الله، كل شيء يتعوض إلا العمر إن راح خلاص خلصت الحكاية، إن شاء الله ما أصابكم مكروه).
رد أيوب بنبرة مشحونة بشعور ببلاوي تنوء من حملها الجبال قائلاً:
- (حكايتنا طويلة، نحن لكي نصل إلى هنا، وصلنا بسل الروح، الشوارع إما جيش وإما ميليشيا، الشوارع عربات محروقة، وعربات مقلوبة، إن ربنا داير يوديك في ألف داهية تدخل في شارع فيهو ميليشيا، أشكال عجيبة، ربنا ستر علينا، استخدمنا المكر والخديعة، زغنا كما يزوغ الثعلب، هنا شوية، وهناك شوية، غايته ربك رب الخير غطا علينا، الحمد والشكر لله وصلنا سالمين).
رد يوسف قائلاً:
- (يا عمي أبوي لا يسمع الكلام، من زمان قلت ليهم نطلع ما في داعي نقعد في البيت، خلاص الدنيا خربت، يقول ما في راجل بطلعوه حمرة عين من بيته).
رد أيوب قائلاً:
- (فعلاً الطلوع من البيت بالغصب فيه مهانة ومذلة، زي الفرار يوم الزحف وترك الوطن نهباً للغزاة، نحن لينا شهر لا مويه ولا كهرباء، نحن عائشين تحت السرائر، ما فضل شباك، إلا ومهشم أو مخروم، اضنينا اتقدن من صوت الرصاص والدانات، نحن بينا وبين سلاح المهندسين شارع الإسفلت، طبعاً بواباته وأسواره مترسة بالحواجز الإسمنتية والتراب وهياكل السيارات المحروقة، نحن مسجونين داخل البيت، خروجنا خطر، نحن في كماشة، الجيش من الشرق، والجنجويد من الغرب، نحن في منطقة اشتباكات، منطقة عمليات، نوم ما في، رقاد ما في، في أي لحظة تتوقع يتهد السقف فوق رأسك).
بلهجة لا تخلو من مرارة خاطبهم يوسف قائلاً:

- (يا أبوي جيرانا، ما بعيدين مننا، دكتورة جاءت من المستشفى ضربتهم دانة داخل البيت، استشهدت هي وأمها، الناس خافت، بدت تقفل بيوتها وترحل، الحرب لا ترحم، وبعدين مشكلة ثانية، الحرامية، بعد ما نهبوا الأسواق، ونهبوا كل المحلات التجارية، رجعوا لنهب البيوت، دي حرب غريبة، العدو من الداخل، ما عدو واحد، مجموعة أعداء تحالفوا، يا ليت لو تحالفوا على الجيش، لأنه الجيش عارف شغله كويس، لكنهم تحالفوا على شعب أعزل، جنجويد ملاقيط، مجرمين قتالين قتلة أخرجوهم من السجون، فزع نهابة، مرتزقة من شاد، نيجر، ليبيا، مالي، نيجريا، أفريقيا الوسطى، الحبشة، وجنوب السودان، كل الوسخ والعفن جانا هنا).

سألهم قائلاً:

- (وأكلكم كان كيف؟، وشرابكم كان كيف؟).

رد قائلاً:

- (الحمد لله العدس والدقيق عندنا منهما مخزون كفاية، والمويه عندنا خزان كبير، ما قصر معانا، وفي واحد بتاع بقالة مخزن شوية موية صحة، أكثر من مرة جازف يوسف بحياته جاب منه مويه، وطبعاً انت عارف ظروفي الصحية تتطلب شرب ماء بمواصفات معينة).

- (وعلاجاتك كيف إن شاء الله عندك مخزون كفاية).

- (الحكاية دي كانت عاملة لينا في الرأس زنة، خلاص مخزون الأدوية قرب يكمل).

أذن المؤذن لصلاة العصر، مشيا في تؤدة ووقار نحو المسجد، بعد الفراغ من الصلاة كعادته اتكأ بظهره على عمود من أعمدة المسجد، وتحلق المتحلقون في حلقات وجماعات هنا وهناك، لم يستغرب أبداً عندما رأى أيوب يتوسط واحدة من هذه الحلقات، فهو اجتماعي من طراز فريد، يدخل على طول في الناس، كأنه يعرفهم منذ سنوات خلون، متكلم مفوه لا يشق له غبار، أهم شيء عنده لازم تكون خدمتا الاتصال والنت تمام التمام، أي خبر لافي،

صحيح أم خطأ ما مهم، المهم أنه يكون على إلمام به، لازم يكون على اتصال مع أهله، جيرانه، أصدقائه، معارفه، جواله إما لصق فمه أو أذنه، سمع ضحكاته، فهو لا يتحكم في ضحكه، وكذلك لا يتحكم في غضبه، بحكم مجيئه في زيارات متكررة للحارة فهو يعرف نفراً من أهلها، سمع الفحيل بعضاً من لقطهم، نبرات أصواتهم مشحونة بألم، حزن، غبن، وحسرة على ما آلت إليه أمور بلادهم، ما حدث كان أكبر من تصورهم وخيالهم، سمعه يقول:

- (صلاتكم سريعة، واحد قفل المكيف لأنه تيار هواه ما راكب في رأسه، واحدين بعد السلام عليكم مباشرة كملوا باقي ونستهم، لا تسبيح ولا ذكر).

- (انت ضيف لسه ما شفته حاجة).

- (أنا ما ضيف، صحيح ما ساكن في الحارة أنا ساكن المهندسين، لكن كثيراً ما آتي لزيارة أخي الفحيل، وكثيراً ما صليت في هذا المسجد، وأعرف كثيرين من المصلين فيه).

- (جامعنا ده فيهو بلاوي كثيرة، تسكت بس، تتكلم تتقلم، ورينا يا حاج كيف جئت من المهندسين؟ دي عملتها كيف؟ دياركم مولعة شرار ونار، موت، هرس، وخراب شديد).

- (في موقعين في أم درمان المهندسين لأنها ملاصقة سلاح المهندسين، المسالمة وحي العرب ملاصقات الاحتياطي المركزي، ديل الاشتباكات مدورة أربعة وعشرين ساعة).

- (يا أخوانا هوي أنتم دائرين الصح ولا الكذب، إنتو هنا في طراوة، أحمدوا الله عليها، نحن هناك في المهندسين عائشين على أعصابنا، متوقعين الموت في أية لحظة، ماسكين مصاحفنا، نذكر الله ونشهد لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، خلاص قنعنا من الدنيا وخيراً فيها، ملك الموت ده بس حائم قدامنا، بس اليوم ما جاء، لا فضل شباك لا باب، الحيطة مخرمة زي الغربال، زاغت عيونا، وبلغت قلوبنا حناجرنا، بالله كيف يكون شعور الإنسان وهو يرى

أولاده فلذة أكباده معرضون للموت أمامه، في أية لحظة، ولا يستطيع أن يفعل لهم شيئاً يحميهم به، عاجز تمام العجز، أمام قوة قاهرة لا قبل له بها، بالله ماذا تفعل، غير أنك تمد يدك إلى السماء، تطلب العون من رب الكون، أنا ما مصدق قاعد وسطكم الحين، واتفاصح كمان، الناس نزحت من بيوتها، ما فضل زول هناك، إلا قلة قليلة، الله يكون في عونهم، نسمع ناس فلان ضربتهم دانة، ناس فلان دخلوا عليهم جنجويد سفاكين دماء، ناس فلان دخلوا عليهم حرامية، ما خلوا سيارة ولا زرارة).

- (يا أخوانا عملناها بإدينا، قوات الميليشيا دخلت الخرطوم نهاراً جهارا، رأيناها بأعيننا التي سيأكلها الدود، قعدوا في المظلات، قعدوا في المدينة الرياضية، الناس كلها استغربت الحاصل شنو، ما في حكومة، ما في جيش).

- (مسكوا مصفى الجيلي، مسكوا الكباري، حاصروا سلاح المهندسين، حاصروا سلاح الإشارة، حاصروا المظلات).

- (الوحدات العسكرية أصبحت جزر معزولة لا يوجد بينها رابط).

- (المخطط كبير، الجيش في ورطة كبيرة).

- (المخطط وراه دول إقليمية ودول عظمى).

- (الحمد لله سوقنا سوق شنقيط محروس، فيه ارتكاز جيش كبير).

- (ارتكاز شنو، وكلام فارغ شنو، سوق دقلو شغال زي الحلاوة).

- (في ناس لابسين كاكي شغالين في سوق دقلو).

- (ما فاهمين الحاصل شنو).

- (في عساكر شائلين بنادق ولابسين سفنجات، مشيتهم ووجوههم لا توحي بأنهم عساكر).

- (واحد حلف قال أنا رأيت فلان، أعرفه حق المعرفة، صعلوك وحرامي، ما دخل عسكرية يوم واحد، لابس كاكي وشائل كلاش ولافي في الشوارع).

طفحت من ذاكرته تلك الحادثة التي ما نساها أبداً: (في إحدى جولاته في سوق شنقيط وقف يتفرج في العسكر وهم يوقفون السيارات جهة اليمين من شارع الإسفلت ويقومون بتفتيشها، والجهة الثانية شبه خالية من السيارات ومكدسة بالمارة، شاهد سيارة صالون بدون لوحة، بداخلها ثلاثة فتية وجوههم لا توحي بخير يتهامسون، مرتبكون وهم يتخطون صف السيارات الواقفة من جهة المارة، استفزه المنظر، قال في نفسه: (الحصة وطن)، التفت يمنة ويسرى، لحسن الحظ أتت دراجة نارية وعلى متنها جنديان تتدلى بندقياتهما من كتفيهما، خاطبهما قائلاً: (أنا أشك في تلك السيارة الواقفة هناك، أحس بوجود شيء مريب)، نظرا نحوه بلا مبالاة ورد أحدهما: (يمكن يكونوا عساكر)، وذهبا في حال سبيلهما، اقنعته هذه الواقعة أن هناك خلل كبير، والنصر بمثل هؤلاء الذين لا يملكون إرادة ولا حساً أمنياً بعيد المنال).

بدأ مؤذن المسجد في إغلاق النوافذ، معنى ذلك عليهم أن ينفضوا، نظروا في وجوه بعضهم بعضا، المسجد أصبح لهم أفضل وأمن مكان، إنهم في بيت من بيوت الله، صلتهم به جل شأنه أقرب، توكلهم عليه أقوى، أما البيوت، أصبحت مصدراً للخوف والهلع، خوف من حاضر بائس تعيس، القلوب فيه وجلة، البطون فيه خاوية، الأحاسيس والمشاعر فيه متعطلة، وهلع من مستقبل غامض، مشحون بخيبات أمل، وبفراق أحبة، وبضياع وطن.

(٦)

استيقظ الفحيل من نومه مبكراً قبل أن يؤذن مؤذن الفجر في ذلك اليوم من أيام الحرب، اختل نظام ساعته البيولوجية، قبل الحرب كان عادة ما ينوم نحو الساعة العاشرة مساءً ويصحو نحو الرابعة صباحاً، بعد الحرب أصبح يبحث عن النوم بدون طائل، يتحايل عليه بشتى السبل، لأنه صار عصي عليه وعلى كل أهل الحارة، وهل يأتي نوم مع هموم وغموم ودوي مدافع وانفجارات؟ شغل موتور الماء، لأن احتمال جريان الماء في شبكة الأنابيب الأرضية مرتفع في الصباح الباكر ومنعدم بالنهار، أضف إلى أن أغلب الناس نيام وموتوراتهم نائمة في العسل كذلك، فيخلو لموتره الجو فيشفط من الماء بمزاج، بدون شخير وبدون ألم، خاب ظنه، ما شفط موتوره إلا هواء من ندم وعدم، فار دم موتوره وارتفعت سخونته، ربت على كتفه وفصل عنه أنبوب الأكسجين الكهربائي وهمس له قائلاً: (شفطنا شفط الوحوش وغير رزقنا ما نحوش، ما عليك يا بطل، ده حال الحرب)، طاف على ثلاث براميل بلاستيكية كبيرة، كانت يوماً ما أوعية موادٍ كيمائية ومذيبات، والآن خزانات حفظ ماء شربه في اليوم الأسود، اثنتان فارغتان وواحد مملوء إلى نصفه، حمد ربه وشكره على هذا النصف لأن كثيرين غيره، بيوتهم صحراء جدباء قاحلة، الاستحمام وغسيل الملابس من المحرمات، غسيل الأواني بحساب مضبوط، المعضلة في دورات المياه، مراحيض السيفون، من أين لهم بالماء الذي يصرف مواد برازهم الصلب، حيلتهم أن يمسكوا بطونهم بقدر الإمكان، وأن يصبروا على ما تجمع من عفن ويستخدموا السيفون على فترات متباعدة، أو يستخدموا مراحيض جيرانهم المحفورة عميقاً في باطن الأرض؛ وقف أمام باب الشارع تلفت يمنة ويسرى لعله يرى كارو ماء يجرها حمار، هذه الأيام أصحابها يتدللون، العرض أقل من الطلب بكثير، لحسن حظه لمح واحداً منهم، هرول نحوه وهو ينادي:

- (يا سيد الكارو هوي تعال جاي).
التفت نحوه وقال بلهجة قاسية:
- (أنا ما فاضي عندي زبائن شوف غيري).
بنفس يعلو ويهبط عاد إلى مكانه السابق، لمح آخر، هرول نحوه، خاطبه قائلاً:
- (دائرين موية شراب).
رد قائلاً:
- (بالحيل، لكن البرميل الصغير بثلاثة ألف جنيه).
- (بثلاثة بأربعة، أرح كُب).

بعد أن اطمأن إلى أن مخزون الماء الاستراتيجي تمام، همس في نفسه، كيف يستمر الوضع على هذا الحال وما بقي عنده من نقود في تناقص مريع. ضمته وجبة الإفطار وأخيه وابنيهما، فتة رغيف بعدس، بدون بهارات ومشهيات، وبصلتها لأدنى حد ممكن، المسألة مليء بطون وكفى، بغتةً وبدون مقدمات سمعوا أصوات اشتباك بأسلحة خفيفة، كأنما الصوت آت من الشارع الضيق أمام البيت، خرجت أصواتهم:
- (يا بنات أذهبوا داخل الغرف، أعملوا ساتر بالجدران السميكة).
- (أغلقوا الأبواب بالمفاتيح).
- (كل واحد يمسك حاجة، حديدة، خشبة، سكين، طوبة، الدفاع عن النفس واجب، من مات يموت شهيداً).

بعد أن هدأت الأمور وتوقفت أصوات الاشتباك، خرج بحذر من باب بيته، شاهد رجالاً وأطفالاً يهرولون نحو الميدان الذي دائماً ما يعبره في طريقه لمسجد الحارة، مشى في نفس الاتجاه، رأى جنوداً يلقون القبض على شخصين ودراجة نارية مرمية على مقربة منهم، ثم شاهد الحمش وقد ترك ورشته واقفاً وسط المتفرجين، ذهب إليه، استطلعه الأمر قائلاً:
- (سلام عليكم، الحكاية شنو؟).

رد قائلاً:
- (حكاية واحدة، ثاني يا ما تشوفوا حكايات، أخونا مجدي كان واقف قبل شوية هنا، قال الحكاية وما فيها، إنه عصابة من حرامية مسلحين دخلوا السوق، تصدى لهم ناس الجيش، واحدين طلعوا في سقف غرف بيتهم، وفي النهاية قبضوهم، والباقي دخلوا الحارة بالدراجة النارية، وتبادلوا إطلاق النار مع العساكر، وزي ما إنت شائف في النهاية استسلموا).
- (وانت أخبارك وأخبار أهلك وأخبار الورشة شنو؟).
- (أخباري الحمد لله النفس طالع ونازل، الأولاد وأمهم الخوف قاطع قلوبهم، أما الورشة نائمة النوم الذي يجيب اللوم).
- (وأخبار الحارة شنو؟).
- (أمس حصلت حاجة غريبة، واحد على جهة بيوتنا عنده بضاعة مشحونة في دفارين، داير يخزنها في بيت من البيوت، ما عارف ثلاثة عساكر ظهروا لهم من وين، ما معروف الحكاية صدفة، ولا الحارة تحت المراقبة، عملوا ليهم رصد ومتابعة، وهل هم عساكر فعلاً ولا حرامية، المهم منعوهم ينزلوا البضاعة إلا إذا كان لهم منها نصيب، وطبعاً إنت عارف الناس اليومين دي حب استطلاعها فائت الحد، لموا وقالوا ما قالوا من كلام فارغ، وفي النهاية كل واحد مشى في حال سبيله، الدفارات كانت واقفة لأكثر من ثلاث ساعات، وفي النهاية أفرغت شحنتها، وما في حد عارف كيف انتهت المساومة).
- (يا خوي في ارتباك كبير حاصل في البلد، الجيش مشغول بالمجهود الحربي، الشرطة اختفت لأنه الميليشيا صنفتها عدو، المجرمين طلعوا من السجون، أصحاب النفوس الدنيئة دي فرصتهم، خلاص على بلدنا السلام، وثاني الجديد شنو).
- (ما في حاجة جديدة غير القذيفة الوقعت في الميدان قدام بيت الزفت قُجَبْغا، عوقت اثنين من الأطفال كانوا يلعبون الكورة).
- (والزفت قُجَبْغا أخباره شنو؟).

- (آخر مرة في جماعة قالوا شافوه في ارتكاز الميليشيا في كلية التقانة جمب مقابر احمد شرفي يفتش في السيارات).
- (لعنة الله عليه، كان عائش وسطنا، تمسكن لمن اتمكن، لو لقى فرصة في أي واحد فينا يديه طلقة في رأسه بدون شفقة أو رحمة، ولعنة الله على أي ميليشي، يومهم قرب، ربنا يكفينا شرهم ويقطع دابرهم).
- (خلينا من قُجَبْغا واحدين كانوا أئمة جوامع طلعوا ميليشيا حملوا السلاح، شماسة ومجرمين حملوا معهم السلاح، ستات شاي ولجان مقاومة شغالين معهم متعاونين).
- (سبحان الله، في حاجة كانت غلط، وسكتنا على الغلط، ودي نتيجة السكوت على الغلط، مرة من المرات مرينا ومعي ابني قدام مبنى الإذاعة والتلفزيون، طبعاً قبل ما يحتلوه الجنجويد، لفتت انتباهنا لافتة مكتوب عليها استخبارات الدعم السريـع، والله علقنا عليها، قلنا هل لكل سلاح من الأسلحة استخبارات خاصة به، يعني استخبارات المدرعات، استخبارات المهندسين، ولو فرضنا إنها موجودة لازم تكون مربوطة بجهاز الاستخبارات العام).
- (الغلط كثير، الذئاب تقهر راعي الغنم الخائب كيف، تعوي من بعيد، تنتظر ردة فعله، ما في حاجة، بكرة تعوي من قريب، ما في حاجة، بعد بكرة تخمش حمل، ما في حاجة، بعده تخمش اثنين ثلاثة، ما في حاجة، تجي تخمش الباقي ومعهم الراعي ذاته).
- (يا خوي خلاص البلد ضاعت، الميليشيا احتلت البيوت، طردوا الناس من بيوتهم، اغتصبوا البنات، نهبوا الذهب والأموال، من يقاوم يقتلوه، الحكاية دخلت في اللحم الحي، يا روح ما بعدك روح، الفضيحة والموت متباريات، الباب البجيب الريـح سدوا وأستريـح، الناس خافت على عرضها وشرفها وأرواحها، تركوا لهم البيوت، وبين يوم وليلة أصبحوا نازحين ولاجئين).

- (كل هذه الأفعال والميليشيا تتكلم باسمهم، باسم الشعب، إنهم يحاربون الكيزان والفلول في سبيل أن يجلبوا الديمقراطية والمدنية لمن استباحوا دماءهم).
- (أهل الباطل دائماً أغبياء، ومن غبائهم لا يدرون بأنهم أغبياء، ولكنهم يكذبون ويكذبون لأنهم يعلمون أنه يوجد من أهل الهوى والخونة من لهم يصدقون).
- (بعد ده نرجع، الجماعة في البيت يكون قلقوا، اليومين دي تغيب من البيت دقائق بس، يقولوا جاءته طلقة طائشة ولا قطعت رقبته قذيفة).

مشى عل عجل نحو بيته، لفت انتباهه ألسنة دخان سوداء كثيفة تغطي السماء من جهة الجنوب الغربي، حيث المنطقة الصناعية، التي تضم مصانع زيوت، صابون، بسكويت، مياه غازية، مبردات، مكيفات، وغيرها كثير، قال في نفسه: (نفس السيناريو، قانون الغاب، تطبقه الميليشيا بلا استثناء، لا فرق بين مؤسسة حكومية خدمية، بنك، أو بيت، تنقض الميليشيا على المكان، تنهب كل شيء ذي قيمة، وتترك الفتات، تأتي من بعدها كلاب وصقور جارحة من مجرمين وحاقدين، يتشاحنون ويتشاجرون ويتقاتلون على هذا الفتات، وبعد أن يقضوا وطرهم، وينفثوا عما بداخلهم من حسد وغبن، يضرمون النيران فيما بقي من عروش خاوية متلذذين فكهين وهم يرقصون سكارى بنشوة زائفة).

وجد أهل بيته وهم وجلون في انتظاره، خاطبته أم عياله بلهجة صارمة:

- (يا حاج الشلاقة عليك شنو، ما تقعد جوه بيتك، ليه معذب رقبتك ومعذب الناس معاك).

- (يا حاجة نقعد صم بكم، ما لازم نعرف الحاصل من حولنا، لنأخذ الحيطة والحذر).
- (يا بوي الأخبار دي نحن أصلنا طالعين ونازلين، نأتيك بها في محلك).
- (يا خوي الولد كلامه صاح، وبعدين الجماعة في المسجد ما مقصرين يجيبوا أخبار الطير في الباقير).
- (خلاص يا أخوانا نفضها سيرة والله يكفينا ويكفيكم شر الجنجويد).

كانت ليلتهم في ذلك اليوم من أتعس الليالي، أصوات غارات جوية، دوي انفجارات، ألسنة لهب تتصاعد في السماء، مضادات طائرات تحاول أن تقوم بإسقاطها، السماء حمراء بشواظ من حمم، براكين تفجرت، قصف مدفعي، أصوات اشتباكات تصم الآذان تأتي من جهة الاحتياطي المركزي قرب مقابر البكري الذي تفصل بينها وبين الحارة حارتان فقط، قذائف رشاشات الدوشكا ثنائي ورباعي تتساقط فوق أسقف البيوت، تهشم الأبواب والنوافذ، وتسحق كل شيء وتحوله إلى رماد، رائحة البارود والموت تفسد الهواء، تسمم الجو، تزكم الأنوف، تزلزلت الأرض من تحتهم، اهتزت الحيط والجدران، تكسرت بعض الأواني الزجاجية، حاصرهم الموت من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم، تذكروا أيام ثمود، أهلكهم الله بصيحة في غاية الشدة والهول، وعاد، أهلكهم الله بريح شديدة البرد في غاية القسوة، والمؤتفكة، أهلكهم الله بأن رفع قراهم إلى السماء ثم قلبها ثم أسقطها إلى الأرض، يوم كيوم القيامة، لا منجى

ولا مفر، بلغت القلوب الحناجر، المؤمنون رفعوا أيديهم تضرعاً إلى الله أن يرفع عنهم البلاء، والعاصون تابوا وأنابوا إلى الله، لا ملجأ لهم منه إلا إليه؛ كانت ليلة طويلة قاسية، من بقي منهم حياً بعد هذه الحرب الضروس لن تنمحي هذه الليلة من ذاكرته أبداً، أما الأطفال الله يكون في عونهم، القلق والاكتئاب والشعور بالخوف والفزع والفوبيا سيلازمهم طوال حياتهم؛ سمعوا صوت قذيفة اهتزت لها الأرض، خيل إليهم أنها وقعت في بيتهم، منهم من أصابته خلعة فطار قلبه من صدره، ومنهم من سقط على الأرض، ومنهم من تحسس جسده لكي يتأكد انه لم يصب بمكروه، ثم سمعوا أصوات ضجيج وصراخ وعويل من جهة البيت الثالث من خلفهم، تنادى أهل الحارة وهرعوا نحو ذلك المكان، كانت الفادحة كبيرة، سقطت قذيفة على البيت، اخترقت السقف، أصابت الشظايا الأم في بطنها، أمعاؤها ظاهرة، أصابت بنتها في فخذها الأيمن، وعلى عجل نقلوهما إلى أقرب مشفى، نقلوهما في وقت حرج، قلت فيه مراكز علاج، قلت فيه أطقم الطبية، وقل دواء.

(٧)

أصبح الصبح أغبراً على الحارة وأهلها، ما رأوه وسمعوه بالأمس طرد النوم من عيونهم، سلب الأمن والأمان والطمأنينة من قلوبهم، تملكهم رعب طاغ، وخوف من كوارث آتية مخبأة في جوف القدر، كل ذلك وبغريزة حب البقاء لعب التوجس برؤوس بعضهم، كيف المخارج وإلى أين المهارب، العين بصيرة واليد قصيرة، منهم من حزموا أمورهم واستقر قرارهم على الذهاب إلى أهلهم في حواضر مدن بعيدة وأريافها، فهم ليسوا مقطوعين من أشجار، جذورهم ممتدة إلى هناك، رب ضارة نافعة، ضعفت أواصرهم بفعل حياة مدن استهلكت أوقاتهم ولم تترك لهم متسعاً لصلة أرحام، وأقدار الله قد تجمع بعد طول شتات، منهم من عزم على النزوح إلى ود مدني عاصمة الجزيرة الخضراء جنوباً، أو شندي وعطبرة شمالاً، أو كسلا والقضارف وبورتسودان شرقاً، لأن ألسنة نيران الحرب لم تمتد بعد إلى هناك، ومغامرات الميليشيا تحكمها قدرات بشرية ومادية محدودة، والجيش قطعاً سيهب من غفوته بعد طول سبات، والمسألة شهور وستعود المياه إلى مجاريها ويعود الحال أحسن مما كان. أهل بيت الفحيل كانوا في حالة نفسية سيئة، الخيارات امامهم محدودة ضيقة، وأقصى ما يقض مضجعهم ويفور دمهم الحكايات التي يسمعونها تحكى عن تنمر على الحريم، سلبهن، اغتصابهن، وقتلهن بوحشية، رائج بين الناس أن هذه الاغتصابات هدفها إخافتهم ودفعهم للهروب من منازلهم، ليسرقوها، ويستوطنوها فهي جنة عدنهم الموعودون بها، وليتخذوا منها مخازناً للأسلحة وأوكاراً للاختباء من الطيران والمدفعية.

جمعت بينهم مائدة الإفطار، بوجوه متجهمة، وبنفوس مقهورة، وبعيون زائغة وشعور بإهانة وضعف وقلة حيلة امتدت أياديهم إلى فتة العدس، خاطبهم بشفتين يابستين قائلاً:

- (يا أخوانا قلنا الأمور تمشي للأحسن، بالعكس كل يوم تمشي للأسوأ).

رد أيوب بعد أن حك فروة رأسه قائلاً:

- (امتحان وربنا امتحنا به، ما عندنا غير الصبر).

رد صدام بلهجة لا تخلو من شعور بالخوف قائلاً:

- (يا بوي ويا عمي، أحسن نتصرف قبل الفأس ما تقع في الرأس، وشيء متاح اليوم قد لا يكون متاحاً غداً، أمي أحوالها الصحية ما تمام، ومع توترات الحرب وعدم النوم يمكن تحصل لها مضاعفات، وحتى الأنسولين أصبح شبه معدوم، وأخواتي ديل في خطر، لا قدر الله إذا الهمج الغجر ديل اكتسحوا الحارة، قطعاً سيحدث ما لا يحمد عقباه، أنا شائف يمشوا كلهم البلد).

رد يوسف بلهجة لا تخلو من شعور باشمئزاز وقرف قائلاً:

- (ده هو الكلام الصحيح، الجنجويد لعنة الله عليهم، ما دخلوا بلد إلا وخربوها وأهانوا أهلها، لكن أنا شائف أبوي الكلام ده ما عاجبه).

هنا الكلام دخل الحوش رد أيوب قائلاً:

- (يمشوا وين، أمسك شارع الظلط من أم درمان إلى جبرة، أم قرفة، بارا، الأبيض، من الذي يسيطر عليه، أليس هم، هؤلاء القتلة، يعني ما في فرق يقعدوا هنا ولا يمشوا هناك).

رد الفحيل قائلاً:

- (هناك على الأقل وسط أهلهم، وأهلك كان أكلوك ما برموك عظم، وموت الكثيرة عز).

رد أيوب قائلاً:

- (يا جماعة الناس هناك عندها ظروف، والبيوت مكتظة بساكنيها، ونحن ما عندنا بيوت هناك، يعني نجيبها من الآخر، ظروفنا والله لا تسمح أبداً للكلام ده، لكن نحن مسامحين للأستاذة تمشي لأهلها، ومقدرين ظروفها).

انشغلوا بالنظر إلى شاشة التلفاز، الفحيل يكره قنوات الجزيرة، العربية، والحدث لأنها في نظره غير محايدة، وما هي إلا أبواق مدفوعة الأجر تطبل للجنجويد، تحرف الأخبار وتعيد صياغتها على هواها وتدس السم في العسل بما يخدم أغراض من يحركون من على البعد خيوط هذه الحرب اللعينة، باختصار دمه يفور ويغلي بغض النظر إن كانوا صادقين أو كاذبين، لأن عشمه خاب فيهم بدلاً من أن يقفوا في صف بلده، يؤازروه في محنته، يتحايلون ويتصنعون ويتلونون، ولذلك يحرص على مشاهدة أي قنوات غيرها، وهم على عكسه تماماً يسمعون ترهاتهم بأذن صاغية، وكثيراً ما كان ابنه يوسف ينتقده بأنه يحجر على الآخرين ويحرمهم من رغباتهم، وبحكم أنهم ضيوف لا يفصحون عنها، وكان رده باستمرار أن الوطنية لا تتحمل أيتها مجاملات، نعادي من عادانا، ونتف في وجه من جافانا، وأن الضيوف عادة لا يهتمون بالتلفاز كاهتمامهم بهواتفهم الذكية، التي تنقل لهم أخبار الإنس والجن عبر منصات التواصل الاجتماعي.

جلسوا هو وزوجه وابنه منعزلين في أمسية ذلك اليوم، وأصوات انفجارات مرعبة تدوي من بعيد، ومضادات طائرات تنير السماء بألوان حمراء وصفراء، ورائحة بارود حقيقة أو خيال تزكم أنوفهم.

خاطبها قائلاً بنبرة لا تخلو من لف ودوران فهو يعلم أنها عنيدة صعبة المراس:

- (يا أستاذة كنا وين وهسي وين، الله يطيب عملنا ويلزمنا الصبر).

قالت بلهجة من اشتم في الأمر شيئاً، فهي لها حاسة شم قوية:

- (ما في حاجة جديدة، الحرب ياها الحرب، تعودنا عليها، وقاعدين في بيوتنا زي كل ناس الحارة).

- (يا أستاذة دي حرب من نوع ثاني، دي حرب طرفها الثاني جنجويد أولاد حرام، مرتزقة، شذاذ آفاق، ألم تسمعي بقصص اغتصاباتهم التي يتبرأ منها مردة الشياطين، فتاة زهرة متفتحة في الخرطوم كانت في طريقها لزيارة عمتها، أوقفها ثلاثة منهم، أولاد شوارع، وأولاد زنا، أشهروا أسلحتهم في وجهها، سألوها عندما قالت أنها ذاهبة لمنزل عمتها وصموها بالكذب والجاسوسية ومخابرات الجيش، أجبروها على دخول سيارتهم وذهبوا بها إلى منزل مجاور تحت سيطرتهم، رأت رجالاً شبه عرايا، حاولت الهرب، ضربها أحدهم ضربة قوية على وجهها، وقعت على الأرض، هددوها بالقتل، اغتصبها ثلاثة منهم أكثر من مرة، أعادوها إلى سيارتهم ورموها على قارعة الطريق مع مغيب الشمس، حرة شريفة آمنة في منزلها في الخرطوم اغتصبها جنجويد غجر أوباش من أراذل خلق الله واحد تلو الآخر أمام أعين إخوتها بعد أن هددوهم بقتلها وقتلهم، امرأة من أصول كريمة في أم درمان عادت إلى منزلها لأخذ وثائق تخصها، قبضوا عليها واغتصبوها، امرأة عزيزة بنت أصول في أم درمان اغتصبوها وبناتها الثلاث وهن ينظرن إلى بعضهن البعض، فتاة معدودة من أهل الصلاح دخلوا منزلهم في الخرطوم، هددوا والدها بالقتل إن لم يسمح لهم بأخذها في سيارتهم، اغتصبوها ثم أعادوها له، فتاة في الخرطوم كانت تعيش في أحلام وردية تنتظر عرسها الذي كان على الأبواب اغتصبوها أمام والدها، توفيت بسبب جراحات عنيفة، وتوفي والدها بسكتة قلبية.

ذرفت دموع عينيها، بكت بحرقة، قالت بنبرة متقطعة متهدجة:

- (يا عيب الشؤم، ده كله يحصل لأخواتنا وبناتنا، العفيفات الشريفات الطاهرات المؤمنات، قبل الحرب كن آمنات في المكاتب، في قاعات الجامعات، في فصول المدارس، في بيوت الأفراح، يحلمن بحياة سعيدة).

أردف بلهجة ساخطة قائلاً:

- (يا ليت بشاعتهم يا أستاذة وقفت عند هذا الحد، حكايات كثيرة يتداولها الناس، تروى عن اختطاف نساء وهروب بهن إلى الغرب ومن هناك إلى دول الجوار، شوهدت نساء على سيارات على الطريق من أم درمان إلى كتم وهن مقيدات بالسلاسل، شوهدت في نفس المكان سبعين سيارة تايوتا فيها أثاث وصناديق، وأكثر من عشر سيارات فيها نساء وبنات مقيدات بالسلاسل، قال شهود عيان في كبكابية أنهم شاهدوا عشرين امرأة وفتاة داخل سيارات يقودها رجال من الجنجويد، في نيالا شوهدت نساء غريبات يبعن الشاي والمأكولات وهن من المختطفات اللائي أجبرن على العمل تحت رقابة صارمة لكيلا يتحررن من قبضتهم، قال شهود عيان في محلية دار السلام قرب الفاشر أنهم شاهدوا ثلاث بنات من الخرطوم أعمارهن أقل من عشرين سنة تم شراؤهن وبيعهن في وضح النهار، وفي دامرة شرق الفاشر قالت شاهدة عيان أن إثنين من أبنائها المنضمين للجنجويد عادا من الخرطوم مع بعض زملائهما ومعهم ثمان بنات، وبعد أن استمتعوا بهن صاروا قوادين فتحوا بهن بيوت دعارة، وأنها ذهبت إلى رئاستهم وألحت عليهم أن يعيدوا البنات إلى أهلهن، ولكن بدون فائدة، لأن عديم الدين والشرف والأخلاق لا يستمع لكلمة حق).

عادت الدموع بعد أن جفت إلى عينيها، وبنبرة مفعمة بمشاعر من انهد هرم شموخه وكبريائه وعزته قالت:

- (أنا بين مصدقة ومكذبة، أأنا في حلم أم في خيال؟ كل هذا يحدث لحرائر السودان، يا الله لطفك وعونك، هذا كثير، فوق طاقاتنا، يا الله ألطف بنا، أصرف مقتك وغضبك عنا، لا تعاملنا بما نحن أهل له، أفسدنا في الأرض وأشركنا، وإنما عاملنا بما أنت أهل له، رحمتك وعفوك وسعت كل شيء).

خاطب صدام أمه بنبرة لا تخلو من مشاعر حب دفينة:
- (يا أمي، الله يرضى عليك وعلينا، ما تعقدي الأمور، الأمور واضحة، خيارك واحد، تسافري البلد، تقعدي مع أمك وسط أهلك).
- (أنا لا يمكن أمشي أخلي بنات أختي معاي في بيتي، نمشي سوا أو نقعد سوا، وأنتم نخليكم لي منو؟).
- (التصرف الصحيح بنات أختك يسافروا معك، لكن لظروف معينة الفكرة دي غير قابلة للتطبيق حالياً، ونحن تخلينا لي الله).
- (يا والدة ما في سبب يخليك تقعدي، أخزي الشيطان وتوكلي على الله).
- (أنا ما مقتنعة بكلامكم ده).
- (اليومين دي ما في شيء مقنع، الأمور كلها مقلوبة رأساً على عقب).
- (يا أمي قولي خير).
- (قلته خير، وربنا يجيب العواقب سليمة).

بعد أيام قليلة علموا أن أحد أقاربهم له سيارة أجرة سفاري (هايس) حمولة اثني عشر راكباً يعمل بها في نقل الركاب وأنه بصدد الذهاب إلى مدينتهم (دار السمبر) التي تتوسط طريق الصادرات الذي يربط بين أم درمان والأبيض والغرب، الشريان الذي يغذي الميليشيا بالإمداد البشري والعتاد الحربي، ولذلك سيطرت عليه سيطرةً تامة منذ بداية الحرب ولا وجود للجيش فيه. رحلة محفوفة بالمخاطر، ولكن لا بد منها لأن المخاطر هنا تتعاظم يوماً من بعد يوم. جاءت السيارة في الصباح الباكر، مقاعدها مملوءة بالركاب، شيوخ ونساء وأطفال، نظر في وجوههم من خلال نوافذها

الزجاجية المفتوحة، قارن بين تقاطيع هذه الوجوه لما كانت تذهب إلى البلد في أيام الأعياد، وجوه فرحة منشرحة، تشع منها أنوار بهجة وسرور، قلوب مفعمة بشوق وحنين لأهلها تطير بهم بأجنحة خفاقة تسابق بها الريح، والآن ها هي مقتولة كمد ذاهبة في رحلة مجهولة الأمد، لم تخطط ولم تتهيأ لها، ذاهبة مجبورة مكرهة، تاركةً بيوتها غصباً عنها، وجوه يبست فيها مياه الحياة، فارقتها الابتسامة منذ زمن طويل، مسطر عليها بدم ودموع حكايات عذابات عميقة، جوع عطش وخوف، قارن بين عفشهم المربوط فوق سقف السيارة وبين عفشهم في تلك الرحلات، عفش بسيط، شنط صغيرة لا تحمل سوى حفنة من ملابس متسخة، بدلاً من شنط كبيرة كانت تحمل حلوى وهدايا من أثواب وفساتين وجبب وعمم وعباءات جديدة للأحباب. أزفت لحظة الوداع، البنيات وخالتهن ذرفن دموعاً من دم، يخيل إليهن أنه وداع بلا لقاء، خالتهن ذاهبة في رحلة محفوفة بالمخاطر والمهالك، حاملة الموت في كفيها، ولا كفن لديها، ستحدق وتبحلق في وجهها عيون جنجويد حيوانات مفترسة، يلبسون أحجبة وتمائم غشهم بها سحرة بأنها مانعتهم من الموت، ليس ببعيد أن يتهموها بأنها جاسوسة استخبارات من الفلول ومن دولة ستة وخمسين، ولا بد لهم من سفك دمها قرباناً عند هيكل ديموقراطيتهم ومدنيتهم المهزلة، وهي كذلك تخاف عليهن من أن يجتاح الجنجويد أبواب الحارة، مصير أسود ينتظرهن إما موت، أو اغتصاب، أو سبي، وكلها خيارات مدمرة.

تحركت السيارة، غابت عن الأنظار مع أول منعطف، عادوا إلى داخل بيتهم، يلفهم شعور لمشيعين فرغوا من دفن جنازة، وفي دواخلهم أحاسيس بأن الدور سيأتي قريباً جداً على واحد منهم، انطلقت السيارة وفي وداعها أصوات قذائف واشتباكات تعلو وتخفت، وألسنة دخان تتصاعد من بعيد في السماء.

الرحلة تستغرق في الظروف العادية خمس ساعات، ولكن في ظروف الحرب في أفضل الحالات لن تقل عن عشر ساعات، ولذلك ظلوا في قلق مستمر في انتظار مجيء المساء وفي إن يحالفهم الحظ أن تكون شبكة الاتصالات تعمل لم يعطلها ضرر، فيطمئنوا على سلامة وصولها. عند الساعة العاشرة قبيل منتصف الليل اتصلوا بها، جاءهم ردها:

- (الحمد لله وصلنا بخير وعافية، الأهل سالمين وتامين وما عليهم شر، سفرتنا ما كانت هينة وما كانت صعبة، وقفنا في سوق ليبيا شوية، رفعوا ركاب وعفش، وفي شوية جنجويد حائمين، ما سألوا أحد، بعد داك طلعنا، الشارع فاضي، ما فيه باصات، ولا حافلات، ولا شاحنات، مرة بعد مرة تلاقينا تاتشرات الميليشيا جائية على أم درمان).

حمدوا الله على سلامة وصولها، تمددوا على أسرتهم، وقد انزاحت عن نفوسهم هموم ثقيلة، تهيأوا للاستمتاع بقسط من النوم بأية كيفية، لا يهم إن كان متقطعاً، متزلزلاً بكوابيس وعفاريت، أم بغيلان وبعاعيت، موسيقى الجاز الصاخبة التي تعزفها الرشاشات والمدافع وبالبنادق ألفوها ولم تعد تشكل لهم مصدراً للإزعاج، تأقلموا بسرعة، أدركوا أن تعجبهم لما كانوا يشاهدون أطفال بغداد يلعبون الكورة تحت القصف لم يكن في محله، فهم الآن يأكلون وينومون ويشخرون لا يعبئون بقصف ولا يحزنون.

(٨)

الصباح رباح، شمسك يا وطني، ما أحلاها عبارة عندما كانت تخرج من فم تلك المذيعة المحبوبة عبر إذاعة هنا أم درمان، كان من المفتونين بسماعها مع نسمات الصباح، مع حفيف الأشجار، ومع رفرفة أجنحة الطيور، ينساب صوتها عبر الأثير، يبعث الأمل والسكينة، يشحذ الهمم، ويبعث الطمأنينة في النفوس، (الحبان في سائر الأركان، في الشامخ السودان يا جملة السكان، أصبحنا بالرحمن والشمس تشرق من هنا، والصباح رباح، الوطن يا ناس محتاج جهود الكل، نعمر البلدات، نتحاشا عيشة الذل، نصافح في الخضرة، وعلى المياه نطل، تنهض ديار الخير، وتبقى زي الفل، مرحب صباح الخير، أهلاً صباحكم زين، وعافية طيبين يا كرام). قلب عليه صوتها المواجع، ذكره صوت ساحر آخر (هنا أم درمان، إلى ربوع السودان، جولة أسبوعية في ربوع السودان، يصحبكم فيها محجوب علِي محجوب - (من أم در يا ربوع سودانا.. نحييك وإنت كل آمالنا، نحييك في القرى والبادية.. وفي كل النواحي الهادية، في الخرطوم زهورك نادية.. وتهواك النفوس ليك راضية، من أم در يا ربوع سودانا.. نحييك وإنت كل آمالنا، بنعيم الجنوب جود لينا.. ومن فيض كردفان أغنينا، في شرقك نصيد وادينا.. شمالك فيهو بركاوينا، تطرب بيك جميع أجيالك.. وفي كل البقع ترضالك، طوالي الفرح في بالك.. يا ربوع شوقنا في استقبالك، من أم در يا ربوع سودانا.. نحييك وإنت كل آمالنا). اهتاجت في داخله مشاعر شتى، بلاد السمر، عاش فيها في سهولة ويسر ورغد من العيش، عاش فيها أحلاماً وردية لا تنقطع أبداً، عاش فيها جنة من جنان الله في الأرض، عاش فيها وهو يرى ويسمع عن حروب مدمرة يشعلها شياطين الجن والإنس في أرض الله الواسعة هنا وهناك، وبلده ينعم بالأمن والأمان، عاش فيها وهو يرى ويسمع عن براكين تتفجر وزلازل تقع هنا وهناك، وبلده لم يسجل واقعة واحدة على مر

التاريخ، والآن يعيش فيها وهو غير مصدق لما يسمع ويرى، في أقرب من لمح البصر، تحول كل شيء فيها إلى رماد، حرب ضروس، عدم أمن وأمان، تفجيرات بركانية، قصف مزلزل، رائحة عفن الجيف الآدمية والموت والدم في كل مكان. لم يعد الصباح رباح، ولم تعد ربوع بلاد السمر تنعم بهدوء، وجمال، ونعيم، وإيناع ثمر، وفرح. الطائرات الحربية تحلق في الأجواء مع كل صباح، أصوات قذائف المدفعية تهز حيطان البيوت، أصوات الرشاشات لا تنقطع، التيار الكهربائي مقطوع، المويه مقطوعة، دائماً ما كان يقول: (أن تتوفر هذه الخدمات أثناء الحروب استثناء والقاعدة العامة ألا تتوفر إطلاقاً)، آثر أن يخرج إلى الشارع ليشم الهواء بدلاً من أن يموت كالجرذ مختنقاً بهلوسته داخل إحدى حفر بيته، وقف تحت شجرة النيم التي تنتصب في شموخ جوار باب بيت جاره أبوعلي، قبل الحرب كانت تهب ظلاً من حر الهجير وخضرة تمتع النظر، وبعد الوغى أصبح الناس يخافوها ويتحاشوها، لأنها واهية لا تقي من رصاصة أو قذيفة، خرج أبوعلي من باب بيته كمريض قام للتو من فراش مرضه، دعك عينيه من باقي نعاس ونوم لم يكتملان، جاء نحوه وعلى صفحة وجهه تعابير توحي بأن أحواله لا تسر، خاطبه قائلاً:

- (سلام عليكم، يا زول مالك شائل هموم الدنيا في وجهك).
- (خليها على الله، وين ثاني الدنيا، الدنيا راحت علينا خلاص).
- (البيت جوه كاتم، الكهرباء قاطعة، قلنا نطلع نشم شوية هواء).
- (نفس السبب طلعني من البيت، إن شاء الله مشيت لي جارنا الصادق).
- (إن شاء الله خير، إن شاء الله ما عندهم عوجة).
- (عوجة كبيرة، عنده محل جزارة في أم بدة، وقعت فيه دانة، قتلت واحد قريبه واثنين من العمال، ومعهم عدد من المصابين).
- (العياذ بالله، يا أخوانا دي ما حرب، ده غضب إلهي وقع علينا، نمشي عليه نجبر كسره ونواسيه في مصيبته).

خبط على باب بيته، أتاه صوته وهو يفتح الباب:
- (مرحب، مرحب تفضل).
- (انت الفضيل، يا خوي البركة فيكم، موتاكم ربنا يديهم الجنة، والجرحى ربنا يديهم الشفاء العاجل، والمال ربنا يخلفه).
- (اللهم آمين، اتفضل أدخل على الديوان).
- (مع الحرب دي ثاني في أدخل، خلاص فاتت علينا، وإن شاء الله باقي أهلكم هناك طيبين).
- (طيبين، لكن مؤقتاً الوالدة والأخت وأولادها سوف يأتون للإقامة معنا هنا).
- (مع السلامة، ربنا يستر الحال ويحفظ عباده من شرور الدنيا).

عاد إلى بيته، بدلاً من أن يشم النسيم شم وسمع ما يسم البدن، ألسنة نار الحرب تمددت في كل مكان، أكلت الأخضر واليابس، ما من مكان منها آمن بعد الآن، جلسوا حول مائدة الإفطار، هذه المرة صحن فول معتبر، نقل إليهم أخبار جارهم المحزنة، ما عادت مثل هذه الأخبار تثير فيهم ردود أفعال تعبر عن جزع وأسى، تطبعوا على الأسوأ، الموت بالجملة أصبح حدث عادي، الحزن والكآبة سكنا الوجوه ولا يحتاجان إلى محفز يثيرهما.
رن هاتف أيوب، نفض يده وذهب بعيداً عنهم، سمعوا بعضاً من كلامه:
- (ما معقول).
- (ده كلام شنو).
- (يا أخي البيت قريب من حوش سلاح المهندسين).
- (يا أخي في قناصة في العمارة قدامنا).
- (حسبنا الله ونعم الوكيل).

خاطبه قائلاً:
- (تعال يا حاج كمل فطورك، ورينا الحاصل شنو).

رد بلهجة ساخطة قائلاً:

- (ما في نفس لفطور، ده واحد من جيرانا في الحي، من القليلين الذين ما زالوا صامدين هناك، قال شاف باب بيتنا مفتوح على مصراعيه، أغلقه، لكنه لا يدري ماذا حصل بداخله).
تساءلوا:
- (معقول الميليشيا تصل لحدي هنا؟).
- (معقول حرامي عينه قوية يصل لحدي هنا؟).
- (معقول وفي قناصة في العمارة المقابلة؟).
- (معقول ناس الجيش يعملوا كده؟).
رد عليهم:
- (كل شيء جائز).

كلهم شاركوا في هذا الحديث إلا ابنه يوسف، كان صامتاً، مطائطا برأسه إلى الأرض، تقاطيع وجهه متجهمة توحي بأنه في حالة غضب شديد، وأن في رأسه تدور أفكار كثيرة، حمل الأواني الفارغة وذهب بها إلى الداخل حيث المطبخ، نقل الخبر إلى أخواته، جئن إلى أبيهن في حالة يرثى لها، بيتهم مليء بالذكريات، ذكريات أمهم التي رحلت عن الدنيا في ريعان شبابها وتركتهم ليتم لا يعرف مر طعمه إلا ذائقه، خاطبته بنته آمنة بعينين دامعتين قائلةً:
- (يا بوي، أنا ما خائفة على حاجة في البيت غير على الأشياء التي تذكرني بالمرحومة أمي، غرفتها، أشياءها التي كانت تحبها وما زالت باقية، ألبوم صوري الذي يضم ضحكاتها، ابتساماتها، إشراقاتها، جمالها، وهجها، طيرانها بيننا كملاك سماوي).
أعقبتها منا بنبرة حزينة تتفطر لها الحجارة وتجري بينها المياه أدمعا قائلةً:
- (يا بوي، في دولابي هدايا أعطتني لها المرحومة أمي في مناسبات كثيرة، ما زلت أحتفظ بها، أشم فيها رائحة عطرها، أرى فيها عيونها الحانية، أرى فيها ذراعيها وهي تمتد لتحملني، لتطير بي فوق السحاب).

وبنبرة تحمل شحنات من الأسى لا طاقة لقلب بشري بها خرج صوت ماريا:

- (يا بوي، كل أهلنا كانوا يقولون، بيتنا ظل على حاله منذ رحيل أمي، نفس الأثاث القديم، كل شيء في مكانه، نفس النظام، نفس الظلال، نفس الأضواء، احتفظنا بكل ذلك عن عمد، روحها الحلوة ساكنة في كل شيء، في كل زاوية، في كل زهرة من زهور الحديقة، في كل نقطة ماء تنزل من ماسورة، رحلت وتركت لنا سر الحياة في بيتنا، رحلت ولكنها ما زالت باقية في وجداننا ما بقي لنا وجدان، الآن نخشى على ذكرياتنا من أن يضيعها هؤلاء الجنجويد منا إلى الأبد).

يا الله، كل أحزان الدنيا تجمعت في سحابة واحدة وظللت المكان في تلك اللحظة، كل أحزان الدنيا تجمعت في دمعات سقطن من أعينهن في تلك اللحظة، وخرج صوت أبيهن في نبرة متهدجة تبوح بأسرار حزن دفين:

- (يا بنياتي، يا فلذات كبدي، حسبنا الله ونعم الوكيل، لله ما أعطى ولله ما أخذ، ولا نقول إلا ما يرضي الله).

حل المساء، مساءات الحرب طويلة ومرعبة، الظلام في حد ذاته مخيف، أشباح خفية غير مرئية تجوس في المكان، ملك الموت قابض الأرواح أقرب من أي وقت كان، النفوس أتعبتها أحمال ثقيلة من ضيق وقلق وألم، النوم بعيد المنال، لأن النوم يحتاج إلى راحة بال، وكل بال مشغول بمخاوف تهد الجبال، قذائف مضادات الطائرات كالبروق تومض في السماء، أصوات قذائف المدفعية والرشاشات تصم الآذان، الدانات العشوائية متوقع سقوطها في أية لحظة من اللحظات، أي بيت من بيوت الحارة مرشح لأن يكون هدفاً من أهداف هذه الدانات، أي شخص داخل هذه البيوت مرشح لأن يكون خبراً من الأخبار، شهيداً من الشهداء الذين أرسلتهم ميليشيا غوغاء وسفلة إلى رحمة السماء.

(٩)

الناس في حالة ذهول، من الصعب عليهم استيعاب ما يجري من حولهم، الحرب توسعت أكثر وأكثر، الميليشيا في حالة هجوم، والجيش في حالة دفاع، يقولون أن الميليشيا وأعوانها من دول كثيرة أعدوا العدة لذلك منذ زمن طويل، الجيش يحاول أن يستجمع قواه لأنه أخذ على حين غرة، والميليشيا تحاول أن تقطع أوصاله وتقضي عليه، مستندة على دعم خارجي كبير، وخيانات داخلية، ذمم تشترى وتباع، ومجرمون يطلقون من السجون، والدولة كانت في غياب تام، ليس لها خطط استراتيجية أمنية وسيناريوهات لمقابلة مثل هذه الأحداث، والتخلف كان ضارباً بأطنابه في كل شيء، والشعب كان تائهاً لا هم له سوى جمع المال، من حيث كان، كانوا يأكلون ينومون يتناسلون كالبهائم، بأسهم بينهم شديد، كانوا لا يفقهون أن الدنيا تغيرت، البقاء للأصلح والأقوى، لا مكان لعواطف فارغة في سياسة دولية الكبير فيها يدوس على الصغير بدون شفقة أو رحمة، لا معنى لوشائح عروبية أو زنوجية، اللغة تغيرت إلى لغة المصالح، أدفع أقبض وطز في أي كلام فارغ. لا يدري ما الذي جعله في تلك اللحظة - والناس عائدون من المخابز وهم يحملون رغيف الفطور، وهو منحني بظهره تحت شجر السياج الذي ينمو أمام سور بيته، ينظفه من أوساخ وأكياس علقت به، ويجمع طلقات ورصاصات فارغة مشتتة في المكان - كأنما يرى قطيع جاموس في البرية وأسود تناوشه للظفر بوجبة طرية، فهو هذه الأيام كثير الكوابيس ليلاً وكثير الهلوسة نهاراً، أسود من مخبئها بين أعشاب وشجيرات تختار فريستها بدقة، تطاردها، يقفز أسد فوق ظهرها، تخوض أنيابه وأظافره في جسم جاموس ضخم، يطيح الجاموس بالأسد في الهواء عدة مرات والأسد يعاود القفز فوقه، يتعثر الجاموس فيسقط على الأرض، أسد آخر يمسك بحلقومه، ليمنعه من التنفس، يتصاعد خوار

الجاموس (أغغ أغغغ أغغغغ)، يقاوم، ثم تخور قواه، وتتباطأ حركة رفسه بقوائمه الأمامية والخلفية، وجواميس تقف بقرون طويلة، تنظر بعيون حزينة، لا تتدخل، لا تفعل شيئاً، منظر الأسد يرعبها، وبينما الجاموس المسكين يحتضر، والأسود تنهش لحمه، تفر الجواميس هاربة، تمضي في حال سبيلها، لأنها تعلم أن حياتها دائماً في خطر، هكذا، الحيوانات تتكاثر، يأكل بعضها بعضا، كل شيء في البيئة موزون، جماد ونبات وشجر وحيوان وإنسان، يعيشون معاً في الأرض منذ أن خلقها الله ومن عليها، وكذلك الإنسان خيرٌ يخشى الله وشرٌ يفسد في الأرض ويسفك الدماء يصطرعان إلى يوم القيامة.

نادوا عليه لتناول وجبة الإفطار، نفض يديه من التراب العالق بها، مشى بهدوء إلى داخل بيته وما زالت صور الأسود والجاموس عالقة بذهنه، أيوب كعادته دائماً مشغول بهاتفه، لا يفارق أذنه أبداً، لا هم له إلا مطاردة وتصيد الأخبار، سمع خبراً مضحكاً قهقه بأعلى صوت، قال: (معقول، معقول ده يحصل في الدنيا، ده عند القبائل البدائية الوثنية ما حصل، جنجويدي جاء وعرس فتاة على سنة الله ورسوله، دفع المهر وكل شيء تمام التمام، أخد زوجته وراح، بعد فترة رجعت البنت لأهلها قالت لأبوها انت عقدت لي على رجل واحد ولا ستة رجال، قال ليها يا بنت ده كلام شنو، في عرس لي ستة رجال، قالت ليه والله أنا يعاشرني ستة رجال، قالوا ما دفعوه كمهر كان شراكة بينهم، ولذلك هم الستة شركاء على سنة الله ورسوله)، ثم سمع خبراً محزناً بكى تشنج، قال: (وا أسفاه، ما ذنب الناس العزل من السلاح، الجنجويد يقتلوهم بلا رحمة، يقصفون ويهجمون على الأحياء السكنية ومعسكرات النازحين، لا يتركون مشفى ولا مرفق صحي، يقتلون ويحرقون الأطفال والرضع والأمهات الحوامل وكبار السن، دمار كامل للمنازل وجثث متفحمة مرمية في كل مكان، لا عين تدمع ولا قلب يتقطع، العالم كله ضباع تنهش لحم فرائسها وهي حية)، جلسوا حول صحن فتة الخبز

بمرق العدس، أمعنوا النظر في لونه الأصفر الذي اقترن عندهم بالبؤس والفقر، وفي رأس كل منهم يدور حديث، أيوب ظروفه الصحية تحتاج إلى طعام خاص: (لو استمر الوضع على هذا الحال، قريباً سيحل أجلي وأكون من سكان القبور)، مجاهد الذي لم يتعود على خشونة المطعم: (إلى متى هذا الحال، طعام واحد وإن كان عسل ينقلب إلى بصل)، الفحيل يرى ما تحت الشجر: (إذا استمر هذا الحال سيأتي يوم نبكي فيه على العدس الذي سيكون صعب المنال)، خرج صوت صدام بنبرة تنم عن قلق وخوف:

- (يوسف منذ الصباح الباكر لم يره أحد في البيت، انتظرناه طويلاً للفطور ولم يأتي، اتصلنا عليه بالهاتف ولم يرد).
- (يا أيوب ولدك كلمك قال ماشي محل معين).
- (ما كلمني، هو قاعد يكلمني).
- (أخواته عائشات على أعصابهن، الفطور لم يفطرن، نفوسهن مسدودة).
- (ننتظر لبعدين نشوف يحصل شنو).

جاءت أخته الصغيرة، وقفت أمامهم وهي ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها، وجهها تعلوه صفرة، عيناها محمرتان، شعرها منكوش، خاطبتهم بلهجة لا تخلو من خوف وتشاؤم:

- (أخوي ده من أمس ما عاجبني، انزوى بعيداً من الناس، وكأنما يتحدث مع نفسه).
- (يا بنت اطردي الأفكار السوداء من رأسك، نحن ما ناقصين، اخوك بإذن الله بخير، وفي أي لحظة ممكن يظهر).
- (أنا خائفة عليه، الجنجويد يتربصون بالشبان، يقبضون عليهم، يشغلوهم معهم غصباً عنه، إن شاء الله يطبخوا ليهم).
- (ننتظر لوقت الغداء نشوف يحصل شنو).

عادت إلى الداخل وهي غير مقتنعة بما يقولون، عادوا إلى ثرثرتهم، خاطبهما قائلاً:

- (النوم كمل، والكوابيس والهلوسة زادت، أنا من دغش الرحمن ورأسي مليان أسود وجواميس).
رد أيوب قائلاً:
- (الحالة دي ما عندك لوحدك، كلنا عندنا، أنا من أمس بالليل ورأسي مليان بحاجة اسمها الأندلس، عقلي يودي ويجيب، سقطت الأندلس بعد تسليم غرناطة آخر الممالك الإسلامية للفرنجة الأوربيين، انتهى الوجود الإسلامي هناك بعد تحققه لمدة ثمانية قرون، ذكر المؤرخون أسباباً كثيرة، أهمها غلبة العوامل العنصرية من قبلية وقومية على وشيجة الأخوة الإسلامية، ضعف العقيدة الإسلامية في النفوس وتطويعها لخدمة القبلية والعنصرية، تغليب المصالح على المبادئ والتحالف مع الأعداء ضد إخوان العقيدة وشركاء الحضارة و المصير، تخلي جمهرة من العلماء والدعاة عن رسالتهم، التكاثر المادي وتبديد طاقة الأمة في بناء القصور المترفة والمساجد المتحفية ووسائل الزينة والراحة والدعة، فساد القلوب والضمائر وانتشار الأمراض القلبية من حقد وبغضاء، وآفات اللسان من غيبة ونميمة، انتشار اللهو والغناء والموسيقى والانحلال والخمور والمخدرات وشتى صور الفساد، الاستهانة بالدماء التي حرم الله إراقتها بدون وجه حق، فساد النظام السياسي، الحكم المطلق وبعده عن الشورى، إبطال فريضة الجهاد ضد أعداء الإسلام، تدخل النساء في شؤون الحكم بصورة سافرة، الخيانة من بعض العائلات المعروفة، كثرة الثائرين والمتمردين مع غياب حكم الشورى، اسناد المناصب المالية والإدارية والقيادية في الدولة إلى أهل الثقة والولاء، التعصب للرأي والفقه والمذهب والجنس، بالله عليكم الكلام ده كله حاصل عندنا ولا ما حاصل، أنا خائف إذا لم نتدارك أنفسنا التاريخ يعيد نفسه، وحكايتنا تبقى حكاية أندلس جديدة، كان اسمها السودان، ونقعد نولول على الماضي زي النسوان).

رد صدام قائلاً:
- (صدقت يا عمي، في أبيات شعر مرثية للأندلس حفظتها عن ظهر قلب تقول:

لكل شيء إذا ما تم نقصـــان.. فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأيام كما شاهدتها دول.. من سره زمن ساءته أزمـــــان
وهذه الدار لا تبقي على أحد.. ولا يدوم على حال لها شـان...).

تأوه الفحيل ثم رد قائلاً:
- (يا أخوانا المصيبة شنو من أسود وجواميس دخلتمونا في أندلس، هيجتم علينا المواجع، ما تتعبونا أكثر مما نحن فيه).
رد صدام قائلاً:
(يا أبوي عشان نكمل عليك المصائب أنا اليومين دي كابسه في رأسي حاجة اسمها غزة، أنوم غزة، أصحُ غزة، كابوس بالليل غزة، هلوسة بالنهار غزة، الصهاينة لم يتركوا فيها بشر ولا حجر ولا شجر، سووها بالأرض، والدنيا كلها تتفرج على الفلسطينيين أهل الحق المظلومين، اليهود جاءوا من شتى بقاع الأرض إلى فلسطين، استوطنوا فيها، طردوا أهلها الأصليين منها بقوة السلاح وبتواطؤ بريطانيا المستعمر في ذلك الوقت، اعترف العالم بدولة إسرائيل أعطاها الشرعية ومن بعدها صار الفلسطينيون لاجئين، قامت اسرائيل باحتلال كل الأراضي الفلسطينية وبعض الأراضي العربية على عدة مراحل، وارتكبت المجازر البشعة بحق الفلسطينيين، ولما قاوم الفلسطينيون وحاولوا الدفاع عن حقوقهم المسلوبة وأعلنوا المقاومة عدوهم إرهابيين، نفس السيناريو يتكرر عندنا، عرب الشتات هم الصهاينة الجدد، والسودانيون هم الفلسطينيون الجدد، وبريطانيا تلعب نفس اللعبة).
تثاءب أيوب، غطى فمه بصفحة كفه الأيمن، خاطبهم قائلاً:
- (يا أخوانا يلا، كلنا في الكوابيس والهلوسة سواء، نأخذ لينا شوية رقدة، والبسويه الله كله طيب).

تمدد الفحيل على سريره بعد أن تخفف من ملابسه، وخرج صدام ليتصيد الأخبار، لعله يسمع عن يوسف ما يثلج صدورهم. وقبل أن ينعم الفحيل ببدايات نعاس يدغدغ جفون عينيه سمع أصوات نواح وبكاء قريبة تأتي من جهة الغرب، لعن الشيطان في سره ولبس جبته على عجل وخرج ليتبين الأمر، رأى جمهرة من الناس متجمعين أمام بيت جارهم الرابع، من بينهم شمشرة، خاطبه قائلاً:

- (سلام عليكم يا شمشرة، إن شاء الله خير، الحاصل شنو؟).
- (وعليكم السلام، فضل فيها خير، الحاصل إنه ولد جيرانكم ديل ضربوه جماعة، ودوه المستشفى ومات، قاعدين يجهزوا في الجنازة).
- (بالبساطة دي مات ويدفنوه وخلاص).
- (الموت هذه الأيام زي شراب المويه، مات وخلاص، في كل لحظة يموتوا ناس، يا دفنوهم في المقابر، ويا يدفنوهم جوه بيوتهم).
- (والقتلة أحرار طلقاء).
- (يا عمي لا شرطة ولا قاضي ولا سجن، ما خلاص عائرة وأدوها سوط).
- (يا رجل أين كنت مختفي، لك مدة طويلة غير ظاهر في الحارة).
- (نظهر وين مع دُل دُلل دي، والموت الذي يلفح يمين وشمال).

خيم الصمت على المكان، للموت حرمته، الناس في حيرة أين يدفنوا الميت، المقابر أم في باحة البيت، حزموا أمرهم في النهاية وتوكلوا على الحي القيوم، فليغامروا ويذهبوا إلى أقرب مقابر، إن تسهلت الأمور الحمد والشكر لله، وإن لم تتسهل بسبب العوارض الأمنية الكثيرة فليعودوا أدراجهم بالجنازة، بيت أهلها أولى بها. تصاعدت حدة البكاء والنواح معنى ذلك أن الجنازة على وشك الرحيل، أخرجوا الجنازة، وضعوها في سيارة دفار، ذهب بها المشيعون إلى المقابر، وعاد الفحيل بقلب محزون مكسور إلى

بيته. جلس على سرير قبالة أيوب الذي كان مستلقياً وكعادته ممسكاً بهاتفه قرب أذنه، خاطبه قائلاً:
- (البكاء شنو؟ مات منو؟).
- (مات ولد الجيران مقتولاً).
- (أعوذ بالله، ربنا يرحمه ويغفر له ذنوبه).
- (ما في خبر من يوسف).
- (والله ما في أي خبر، تلفونه لا يرد، وأخواته في حالة من الكرب والكمد لا يعلم بها إلا الله).
- (نشوف لحدي بعدين الحاصل شنو، وبمقتضاه نحدد تصرفنا يكون كيف).

حل وقت الغداء الذي دائماً ما يكون بعد صلاة العصر، ابنه صدام مع أهله في الإسكان الشعبي، يجهز في سيارته التي تركها هناك لأن ذلك المكان أكثر أمناً لقربه من القاعدة الجوية، ليحمل عليها نصف بضاعته من منتجات تجميل وعطور وشامبو وكريمات ويذهب بها إلى عطبرة (أم الطيور) حيث سكن أصدقائه الذين يعملون معه في نفس التجارة بسوق الكلاكلة، وابنهم يوسف ما زال مجهول المكان، جلس هو وأيوب متقابلين حول منضدة صغيرة عليها طعام الغداء، خبز وإدام بطاطس، شهيتهما للأكل مقفولة، أكلا في صمت وفي نفس كل منهما تدور هواجس مخيفة، كل الأمور ضبابية غير واضحة المعالم، أيد خفية تسوقهم إلى عوالم مجهولة، عيونهم في ظلام دامس لا ترى بصيص نور أبداً، عقولهم تحجرت ما عادت تنتج أفكارا، قلوبهم صدئت ما عادت تحس وتشعر، سمعا جلبة في الردهة، ثم تعالت أصوات خارج الردهة، ذهب الفحيل ليستجلي الأمر، البنت الكبرى تحاول أن تهدئ من روع أختها الصغرى، أمسك بيدي البنت الصغرى، كانت

في حالة يرثى لها، دخلت في حالة هيستيرية، لم تتحمل الواقعة، لم تتحمل أن أخاها الوحيد مفقود، لا يُعرف له أثر، إن ذهب فعلاً إلى المهندسين ليتفقد بيتهم فهي تعرف أن البيت ومداخل الحارة كلها تحت مرمى النيران، وأن الجنجويد القتلة يحوطون بالمكان كالسوار بالمعصم، وأن أخاها شاب، والشباب ضالة منشودة لهم، يعدونهم صيد سمين ينفع للسخرة وإن لزم الأمر يجبرونهم على القتال إلى جانبهم، وأن أخوها لا يتحمل أقل حقارة، قلبه حار شطة، لذلك فهو في نظرها لن يكون إلا مأسوراً أو مقتولاً، وإن ذهب إلى مكان آخر، فالخطر قائم، والموت واقف للناس بالمرصاد في أي زمان وفي أي مكان، قالت الكبرى أن أختها لبست ملابسها وركبت رأسها لازم تذهب للبحث عن أخيها لأن رجال البيت غير مهتمين، حاولت أن تمنعها من الخروج، ولكنها مصرة عليه، خاطبها بنبرة ودودة قائلاً:

- (يا بنتي هدئي من روعك شوية، نحن مقدرين لمشاعرك، لكن التعقل مطلوب).

بدون أن تعي ما تقول أفصحت عما في داخلها:

- (أتركوني في حالي، أنا ذاهبة لأبحث عنه، ولن أعود).

- (يا بنت أرجعي، الساعة كم، بعد شوية سيحل المساء، إن غداً لناظره قريب).

- (لن أرجع، أنتم تتفرجون وأخوي ما معروف وين).

حاول أن يهدئ من روعها بقدر الإمكان لأن الموقف كان فعلاً صعب جداً، فوق طاقة تحمل قلبها الواهن الذي سكنته الأحزان منذ زمن بعيد، حبها لأخيها الوحيد لا يدانيه حب، خصوصاً بعد

يتمها برحيل أمها عن الدنيا الفانية، هش إليها بنبرة حنونة متفائلة قائلاً:

- (يا بنتي كل شيء بيد الله، نحن إيمانا في الله كبير، وربنا لن يخذلنا أبداً ما دمنا قريبين منه).

- (أنا ما دايره كلام كثير، ماشه يعني ماشه، كان انطبقت السماء والأرض أنا ماشه).

- (يا بنتي أخزي الشيطان، المرأة كان فأس ما تشق الرأس).

- (أنا أقوى من ألف فأس، ماشه يعني ماشه).

- (يا بنتي اللعنة على هذه الحرب البغيضة، ربنا يستر عليك وعلينا ويحفظ أخاك).

حاولت الخروج، فهي في حالة نفسية مشحونة بهيجان وتوتر عصبي مدمر، لا تدري ما تقول ولا ما تفعل، وما كان منه إلا أن يفعل ما ليس منه بد، أمسك بها بقوة، حاول أن يجرها إلى داخل البيت، قاومت بشدة، خوفها على أخيها منحها قوة بدنية هائلة، وقوة إرادة وشجاعة، وبعد أن تدخلت أختها الكبرى تمكنا من إدخالها إلى غرفتها وأوصدا عليها باب الغرفة، خبطت على الباب من الداخل، تكلمت بكلام كثير، بعد فترة خارت قواها، صمتت، جلست على السرير ودخلت في نوبة بكاء تمزق القلوب، ثم هدأت وراحت في نومة، إن الله بعباده لطيف خبير، يرسل النعاس أمنة منه لعباده المظلومين المقهورين.

(١٠)

مجبور ولا بطل، ما كان له خيار آخر إلا أن يذهب ليفك طلاسم هذا الولد الشقي، أخطأ الفحيل خطأ ذريعاً بارتدائه لبسة أفريقية قديمة، ظنها ستبعد عنه شبهات الجنجويد، وما درى أنها ربما ستكون سبباً يجر عليه النكبات، باتهامه بأنه جندي أو ضابط سابق، أو من الفلول، دعا بكل الأدعية النبوية الشريفة التي يحفظها عن ظهر قلب، شوارع الحارة شبه خالية، رحل من رحل، والباقون مندسون في بيوتهم خوفاً من طلقات وقذائف طائشة، سوق شنقيط يعج بكل أصناف البشر، معظمهم مجرمين وقتلة وحرامية، شارع الإسفلت حافلات تذهب وتجيئ، جنود ارتكاز الجيش يفتشون المركبات، جنود على دراجات نارية يصرخون في حماسة ويلوحون بأياديهم في الهواء، ركب حافلة خط السوق الشعبي، وجوه الركاب حزينة كئيبة مكفهرة، ذكرته لوحة بيكاسو (الجرنيكا)، دمرت قنابل الألمان سوقا صغيرا في قرية جرنيكا الواقعة في إقليم الباسك في اسبانيا، ضُرب السوق بالقنابل في الوقت الذي كانت فيه طرقاته مكتظة ومليئة بالناس، تحطمت قرية صغيرة آمنة، تمزقت أجساد رجالها ونسائها وأطفالها، استمر القصف طوال ثلاث ساعات، ولم يبق في القرية أي شيء حي، قتلوا البشر وهدموا البيوت والأشجار؛ حتى الحيوانات لم تنجو، دمرت الحياة فيها تماما، كان حدث مروعا، ومع ذلك لا يساوي قدراً ضئيلاً مما جرى ويجري في غزة وفي بلده اليوم، ذكرته كيف حظي هذا الحدث باهتمام فنانين وشعراء وكتاب بشكل خاص في ذلك الوقت، منهم بيكاسو، تأثر بتلك الجريمة، قرر رسم لوحة يصور فيها القرية المنكوبة، أطلق عليها اسم القرية نفسها (الجرنيكا)، اللوحة لا تصور مكاناً تم قصفه للتو، دمار، وبقايا حريق، وأجساد، أشلاء ممزقة، وضحايا تستغيث، وتصرخ، وتنتحب، وتحشرج، وتحتضر، وضحايا متهالكة، وأجساد ملتوية وفزعة، على وجوهها كل ألوان

الهلع، أشلاؤهم تختلط بكل شيء؛ في اللوحة تسعة أشكال، أربع نساء، وطفل واحد، وتمثال محارب، وثور، وحصان، وطائر، تمثل وجوه عدة في الحياة، لم تفرق القذائف بين أي منها، القذائف كانت تغتال جوهر الحياة والوجود ذاته، تتحكم في حبكة اللوحة النساء، رجل نصفه تمثال ونصفه إنسان، ثور غير متحرك، وحصان بارز، بينما النسوة يصرخن ويندفعن ويبكين ويسقطن، إنهن يعبرن عن الحياة في حركتها الدؤوبة التي تريد القذائف لها أن تتوقف مرة واحدة وللأبد، النساء رمزية عن الجمال الذي أرادوا تشويهه، رغبة منهم في إحلاله بالخراب والقبح، كانت قرية من نساء وأطفال، بينما كان أغلب الرجال في جبهة القتال، اللوحة تصور آثار الوحشية والدمار وألم ومعاناة الإنسانية التي يمكن أن تحدث في أي مكان. كثير من الفنانين قاموا بمعارضة الجرنيكا، كلوحة "صبرا وشتيلا" كصرخة غضب على تلك المجزرة المروعة. بقيت جرنيكا ليست فقط كتعبير عن مأساة قرية إسبانية، بل إدانة لكل عدوان يتعرض له أي مكان محاصر بالمأساة والدمار، جرنيكا تعبر تعبيرا بليغا عن الصراع العنيف بين إرادة الحياة وإرادة التدمير والظلام، تعبر عن ويلات الإنسان وهلعه أمام إرادة التدمير الوحشية، الثور يطأ تحت أقدامه تلك المرأة الأم وطفلها الذي يمثل نضارة الحياة، اليد المتقلصة على مقبض السيف المحطم لا تتخلى عن تلك الزهرة الرقيقة، فهي تقاوم إرادة التدمير، وهناك في أعلى الصورة يظل المصباح مرفوعا برغم القتل والدمار والهلع، إنه نور الحرية الذي لا ينطفئ، الجرنيكا شهادة تشهد بأن كل انتصار في الوجود لا يساوي شيئا بجانب أنين حصان جريح، أو صرخة فزع طفل رضيع، اللوحة لا تقف أمام المدافع والرصاص بل تبعث الرعب في قلوب أعداء الحياة، إنها خالدة على مر العصور ما دام هناك ازهاق لأرواح بشر في عبثية غاشمة. ذكرته الجرنيكا مذابح الجنينة، قفزت إلى خواطره محطته السابعة والأخيرة:

((دار أندوكا)، مدينة أهلها مساليت، ناس سُكَّرة مسالمين، معبر حدودي لتشاد وسائر دول غرب أفريقيا، مركز تجاري حدودي كبير، تربتها خصبة، مياه أمطارها غزيرة، مياهها جوفية وفيرة، خيراتها، صمغ عربي، قطن، تبغ، ذرة، سمسم، بطيخ، مانجو، جوافة، باباي، برتقال، أحياء سكنية عريقة، ذاخرة بالحياة، امتداد، شاطئ، سلام، رياض، جمهورية).

هناك تقارب عجيب في النطق بين جرنيكا وجنينة، المذابح في دارفور ليست جديدة، بسبب التنافس بين الزراع أهل الأرض من المساليت وعرب الشتات على الأرض والكلأ والماء، ولكن ما شهدته الجنينة في هذه الحرب ليس له مثيل، قتل ونهب وحرق واغتصاب، بعد أسبوع من بداية القتال في الخرطوم اندلعت مناوشات بين ميليشيا الجنجويد ووحدة من الجيش تتمركز شمال المدينة، انسحب الجنود إلى قاعدتهم في أقصى الطرف الشمالي الشرقي للمدينة، مع انسحابهم وجهت الميليشيا نيران أسلحتها إلى سكان المناطق التي تقطنها أغلبية من المساليت جنوب المدينة، وصل للميليشيا مدد من عرب الشتات على ظهور الخيل أو على دراجات نارية، أو على سيارات لاندكروزر مغطاة بالطين، انتاب المساليت خوف من تكرار الأعمال العدائية التي استهدفتهم في الماضي، هرع المئات منهم إلى مستودعات الأسلحة الخاصة بالشرطة، واستولوا على الآلاف من بنادق الكلاشنكوف، رجال ونساء كبار سن ومراهقين غير مدربين مشوا في الشوارع وهم يحملون البنادق، حاصرت الميليشيات المدينة، في نهاية أبريل دفنت أولى الجثث في مقبرة الغابة، واستمر تدفق جثث الموتى، دفنوهم في مقابر جماعية، قتلوا بعض الناس أحياء حرقاً بعد أن أشعلوا في بيوتهم النار، خلال شهر يونيو تحولت المدينة إلى مستنقعات من الدم، لم يتمكن الناس من دفن موتاهم وفروا هاربين يطلبون النجاة، اغتصبت عشرات النساء والفتيات، في شهر نوفمبر عادت هذه القوات مرة أخرى لتنهي مهمتها التي بدأتها،

بدأوا يبحثون عن أفراد قبيلة المساليت خصوصا في منطقة تمركزهم (أردمتا) الهدف إبادتهم جميعا، سيطروا على قاعدة الجيش، كثفوا هجماتهم على مخيم أردمتا للنازحين، معظمه من المساليت، اعتقلوا الناس وأطلقوا عليهم النار، قطعوا أجساد بعضهم حتى الموت بالفؤوس والمناجل والسواطير، نقلوا المئات منهم إلى ملعب لكرة القدم واعدموهم هناك، ظلت الجثث المنتفخة ملقاة في الشوارع لعدة أيام، أضرمت النيران في المنازل بعد أن تعرضت للنهب، نهبوا المتاع والأجهزة ولم يتركوا حتى الأبواب والشبابيك، فر كثير من الناجين إلى تشاد، لم ينج أكثر الفارين من كمائن الميليشيات التي كانت لهم بالمرصاد، الآلاف من المساليت قتلوا، عملية تطهير عرقي لاستئصالهم بالكامل، في الرابع من نوفمبر وقف نائب قائد الميليشيا أمام القاعدة العسكرية المحتلة وهنأ قواته بالنصر، بمجرد السقوط تفاوض السكان مع الميليشيا على تسليم كل البنادق المتوفرة في مخيم أردمتا ضماناً لسلامة المقيمين والسماح بالمرور الآمن لمن يريد المغادرة، بمجرد تسليمهم لأسلحتهم بدأ قتلهم ونهب منازلهم، أخرجوا الرجال وتركوا النساء في المنازل، ثم حصدوهم بالذخيرة. قال في نفسه: (الجرنيكا لوحة رسمتها يد فنان ولكن الجنينة مذبحة ارتكبتها أيادي قتلة، سفلة، همج، غجر، وحوش كاسرة). ركاب الحافلة كأنهم شخوص وأشكال الجرنيكا صامتون لا يتحدثون، قطعت الحرب ألسنتهم، جمدت عقولهم، حجرت قلوبهم، صادرت مشاعرهم، خلاص لا ماضي لا حاضر ولا مستقبل، كل شيء فيهم وفي بلدهم تدمر، الشوارع شبه خالية، والحافلة نصف مقاعدها شاغرة، الأسواق خربة خاوية، سحب التجار بضائعهم من دكاكينهم، حلت محلها أسواق دقلو، أسواق الحرامية، فعلاً اسم على مسمى، كل شيء بقيمة أقرب إلى البلاش، من الإبرة والخيط إلى الشاشة والمكيف والثلاجة، ما في حد ضاربه حجر دغش، وما في حد يسأل حد، قانون ما في، بوليس ما في، سجن ما

في، ألهف وبيع وألهف ثاني. المقابر على يسار الشارع، الأحياء ينظرون إلى الأموات ولسان حالهم يقول: (باطن الأرض خير من ظاهرها، أنتم في نعيم ونحن في جحيم، لو تدرون ما نحن فيه لشكرتم ربكم أن قبض أرواحكم قبل حدوث ما نحن فيه)، على يمين الشارع المنطقة الصناعية، آثار الحريق والدمار واضحة، ألسنة الدخان ما زالت تتصاعد من بعضها؛ وقفت بهم الحافلة في موقف حافلات الثورات، محطة الوقود محروقة، سيارات الدفاع المدني محروقة، الخراب في كل مكان، أمامهم سوق دقلو، سوق الحرامية، أغرب سوق في العالم، الذين يعرضون البضائع المسروقة يحملون عصى غليظة ومواسير حديد وسكاكين وسواطير وفؤوس، والذين يشترون، رجال ونساء إما حرامية أو جاهلون فات عليهم أن من يشتري من سارق ويعلم أنه سارق هو نفسه سارق. بدون مقدمات قامت القيامة، قامت الكعة، تطايرت أواني وحلل، تطاير غبار وتراب، تعالى صراخ وعياط، تفرق الناس في كل اتجاه، ما عليه، عاقبة البوار بوار، دعا في نفسه: (اللهم أضرب الظالمين بعضهم ببعض)، تسارعت خطواته باتجاه الطرف الآخر من موقف الحافلات لعله يجد ما يوصله إلى المهندسين، قالوا له أن أقرب حافلة إلى هناك أن تركب خط الشقلة وتنزل بعد الصينية وتكمل الباقي كداري. توكل على الحي الدائم وركب الحافلة وفي سره يقول: (يا ولدي يوسف أدخلتني مدرسة مدرسيها وتلاميذها كلهم حرامية أبالسة وشياطين وعفاريت)، وجوه الركاب منفرة، على الأخص وجوه نساء يحملن معهن بقج أواني منزلية وملبوسات، تحت كبري ود البشير تاتشرات الجنجويد واقفة ورشاشاتها مصوبة نحو السماء، يريدون أن يهدوا قبتها فوق رؤوس أعداء الديمقراطية من فلول وأنصار دولة ستة وخمسين، سيارات محروقة مرمية طرفي الطريق، سيارات داخلة في أعمدة كهرباء، سيارات مقلوبة، سيارات مخلعة ما بقي إلا شاصي هيكلها الحديدي، دمار في كل مكان، تاتشرات تجوب الشارع عليها جنجويد ممددين أرجلاً قذرة خارج

صناديقها، أوقفوهم في أول ارتكاز، اثنان منهم واقفان بسلاحهما في منتصف الطريق، تاتشران برشاشات منصوبة واقفتان تحت الأشجار، ينفذون تعليمات واحدة في كل ارتكاز، يصعدون الحافلة، وبمنتهى الصفاقة وقلة الأدب يطلبون الهويات، ينزلون الشباب ومن يشكون في أنه نظامي سابق، وبمنتهى التعالي والازدراء يأمرون السائق بالتحرك بعد أن يدفع فدية معلومة، مروا بمقابر حمد النيل، الأجداث المحفورة حديثاً ظاهرة من ترابها، أعدادها يبعث على الذهول، كثيرون من الموتى لم تجد جنازاتهم حظاً في الجبانات فدفنوا داخل بيوتهم، وصلوا صينية المهندسين الرابطة بين السوق الشعبي والمنصورة وسوق ليبيا بالهواء، على بعد خمسمائة متر شرقاً ارتكاز جنجويد كبير، يقابله ارتكاز سلاح المهندسين في نفس الشارع شرقاً على مسافة لا تزيد عن كيلومتر واحد، تاتشرات مخزنة على اليمين وعلى الشمال، وإطارات سيارات كبيرة وبراميل تسد الطريق، وجنجويد منفوخون يطلعون الحافلات وينزلون، يتسلون بالركاب المساكين، ركاب لا والي لهم ولا معين، لا يمكن أن تمر حافلة بسلام، لازم اثنين أو ثلاثة يشرفوا قائد الارتكاز، والله أعلم بما هم بهم فاعلون. بعد أن تخطوا الارتكاز المشؤوم نزل ومشى على رجليه، عبر الشارع إلى الجهة المقابلة، المهندسين شمال الشارع والفتيحاب جنوبه، دلف في أول منعطف، الشوارع خالية من المارة، صمتها صمت القبور، كل القصور والفلل الفارهة ما عادت لها قيمة، عافها أهلها، هجروها وهجوا في أرض الله الواسعة نازحين ولاجئين، سطا عليه جنجويد ولصوص، نهبوها، دنسوها وخموا رمادها ولم يتركوا فيها حتى عود كبريت، قابله شبح واحد يمشي على خوف واستحياء، خاطبه قائلاً:

- (إلى أين ذاهب يا عم).

- (ذاهب إلى منزل أخي، يفتح في شارع الإسفلت أمام مسجد المهندسين).

- (أعمل حسابك يا عم، ذلك المكان خطر، يوجد قناصون فوق العمارات، لذلك أمشي لصق الحيط).
- (شكراً يا ابني بارك الله فيك).

فكر ثم قدر وقال في نفسه: (لأذهبن أولاً إلى بيت قريبنا حاج مدثر ربما يكون يوسف معهم أو يعرفون له خبراً)، عرج عليهم بيتهم في منتصف الطريق إلى بيت أخيه، طرق الباب، جاءه ولده الكبير بعد فترة طويلة، هذه الأيام الطارقون بِشَرٍ كثيرون، وبخير قليلون، اندهش عندما رآه، قال في عجالة:
- (أدخل، أدخل، يا حاج من أين جئت، كيف جئت، إن شاء الله خير، الجابك شنو، وصلت لينا كيف؟).
- (يا بطل خلينا من كيف وكيف، إن شاء الله أنتم تمام، وكلكم طيبين، وأبوك كيف وأولادكم كيف).
- (كلنا تمام، ثاني في تمام، نصبر بعضنا البعض، وأبوي نائم، متحسس شوية).
- (يوسف ولد أيوب مر عليكم هنا ولا عندكم خبر عنه).
- (حصل عليه شنو، ما قاعدين معكم في أمان الله).
- (والله جاءهم خبر إنه باب بيتهم مفتوح على مصراعيه، وانت عارف الشباب دمه حار، قلنا يمكن مشى يتفقده، لأنه خرج من صباح أمس ولم يعود للبيت حتى لحظة خروجي منهم).
- (والعمل شنو؟).
- (أنا ماشي على بيتهم يمكن يكون هناك).
- (أعمل حسابك المنطقة خطرة فيها تدوين وقناصة).
- (لا يوجد حل آخر، الدنيا عندنا مقلوبة فوق تحت، لا بد من ركوب الصعب).
- (أعمل حسابك ما تمشي بالشارع العام، وأمشي مع الحيطة، أعملها ساتر).

ودعه ومشى حسب نصيحته مع الحيط، حيط نقرتها ونقشت فيها نقوشاً غائرة قذائف وطلقات، لا يعرف من أية جهة سيأتيه الخطر، لم يصادف في طريقه بشراً أو حتى كلاباً ضالة أو قطط، يخيم على المكان صمت قاتل مريب، الأشجار أمام البيوت بعضها ذبل وأكثرها مات من شدة العطش، كل حركة يسمعها يحسبها النهاية وما عليه إلا أن يتشهد: (لا إله إلا الله، الموت حق والحياة باطل)، ويواجه الموت بإيمان لا يشوبه شك أصغر أو أكبر، دلف من آخر منعطف على الشارع العام المؤدي لبيت أخيه، المسافة لا تزيد عن مائة متر، مر أمام ثلاثة بيوت، خاوية على عروشها، أمام البيت ساتر من حجارة كبيرة وبلوكات إسمنتية، وهناك أمام سور سلاح المهندسين خلف شارع الإسفلت الرئيس الذي لا يبعد لأقل من مائتي متر، سواتر من جوالات رمل، بلوكات إسمنتية، هياكل سيارات محروقة، مدافع منصوبة، وفوهات مدافع دبابات، و تاتشرات قتالية، وقف أمام الباب، طرقه مرات ومرات، خبط عليه بحجر كبير، وما من مجيب، أتاه صوت من فوق مبنى العمارة المقابلة: (ما في زول البيت فاضي)، نظر إلى أعلى، لم يرى المتكلم، ولكنه فهم أنه قناص، أتاه الصوت مرةً أخرى: (لسلامتك لا تعود بالشارع الرئيس أدخل بالشوارع الجانبية)، عاد أدراجه من حيث أتى، لم يسلك نفس الطرق التي أتى بها، مشى وسط البيوت إلى أن وصل الدوار الذي عبره بالحافلة من قبل ورأسه في حالة دوران عنيف لا يتوقف، وقف مدة طويلة في هجير الشمس ولم تأت حافلة، رجل وامرأتان واقفون كأصنام حجرية، بعد مدة زهقت وتضايقت المرأتان أوقفتا ركشة، وغابتا عن الأنظار، لم يتحمل الرجل أكثر، مشى على رجليه، وغاب هو كذلك عن الأنظار، بقي واقفاً لوحده، وتاتشرات الجنجويد تذهب وتجيء كأنما إطاراتها تلف وتدور فوق جسده، تمزقه تفتته إلى أشلاء دقيقة،

ثم جاءت حافلة قديمة تترنح كأنها سكرى، دعك عينيه غير مصدق، سمع الكمساري يصيح: (السوق الشعبي)، ركب وهو يغمغم: (تودينا السوق الشعبي، تودينا جهنم، المهم أمرقنا من هنا)، نصف مقاعدها شاغرة، وجوه الركاب أوحت له بأشياء غامضة مبهمة، في مجملها خوف وقلق وترقب، مروا بنفس السيارات المصدومة والمحروقة، و ارتكازات جديدة، سمعوا فيها نفس الأسئلة، مروا بمحطة محروقات، وبمقابر حمد النيل، وكبري ود البشير، وصمتهم صمت القبور، الحرب حولتهم إلى صم وبكم وعمي، وصلوا الموقف، جرجر رجليه نحو موقف الثورات، حيث سوق دقلو، سوق الحرامية، استعاذ بالله من شياطين الإنس والجن، ركب حافلة سوق شنقيط، الذي فيه أيضاً سوق دقلو، يعني بصريح العبارة، والواضح ما فاضح، أي شيء حلال طيب زكي معدوم، وحرام وسخ نتن مفروش على الأرض، مروا بمقابر الجمريه، وبمقابر البكري، وبالبيوت على جانبي الشارع التي تحولت إلى مقابر، ولكن بدون أسماء، سماها الناس مقابر دقلو، نزل من الحافلة، شق سوق دقلو، سوق الحرامية، ما عنده في جيوبه ما يخاف عليه، حتى جواله لم يعد يلزمه وهو خارج بيته، لأنه أصبح مصدراً للمتاعب خصوصاً في ارتكازات الجنجويد، ما يحمله إلا أحمق، إما شفشفوه وإما اطلعوا على ما فيه من رسائل وصور ولبسوا صاحبه تهماً ما أنزل الله بها من سلطان. ساورته ظنون وشكوك ومخاوف، ماذا يقول لمن ينتظرونه بفارق الصبر، يقول لهم، يوسف ما زال مفقوداً، وماذا ستكون ردود أفعالهم، يحثون على رؤوسهم التراب ويحسبوه في عداد الأموات، أم يخرجون في الشوارع، يدورون كالمجانين، يتفرسون في وجوه الناس، يسألونهم إن رأوا يوسفاً الوحيد الذي أوصافه كذا وكذا. وبينما هو سابح في حيرته رأى جاره أبوعلي وسفة سعوطه تكور شفته السفلى، تخدرها، تدغدغ أحاسيسها،

يتكلم مع صبيان عربة الكارو التي تحمل النفايات من أمام البيوت، سمعتهم سيئة، يحملونها بعدم مسئولية، يأخذون أجورهم عليها ويشتتونها في الطرقات كيفما يكون ليعودوا على عجل ويكرروا نفس الفعلة، ومتهمون كذلك بأنهم إذا دخلوا البيوت أياديهم خفيفة، ما سنحت لهم فرصة إلا وشفشفوا ما يمكن شفشفته، خاطبه قائلاً:

- (سلام على الصامدين، الجماعة الشفشافة ديل ظهروا من وين؟).
- (وعليكم السلام، أصبحوا عملة صعبة، يظهروا يوم ويغيبوا عشرين يوم).
- (يمكن لقوا ليهم شغلات ثانية).
- (اليومين دي كل شيء وسخ جائز، وانت كنت وين وجئت من وين؟).
- (كنت في المهندسين).
- (يا زول الوداك هناك شنو، انت مجنون، الدوشمان هناك شغال قرف).
- (وداني يوسف، يوم وليلة غائب عن البيت).
- (يوسف قبل شوية كان واقف معي هنا، ورجع دخل البيت).

يا الله!!! ما صدق ما سمع، بنبرة مشحونة بفيوض من لهفة، لتأكيد مؤكد ظن أنه بعيد المنال، في زمن أوحش من وحشة القبور، رد قائلاً:

- (يا زول الكلام ده صاح، مائة في المائة صاح، كان معك بلحمه وشحمه، شفتوا بعيونك البأكلها الدود دي).
- (يا زول استغفر الله، أدخل بيتكم شوفو).

دخل البيت على عجل، هاله ما رأى، رآه جالساً وسط أهل البيت يتبادل الحديث معهم كأنه لم يأت بفعل عكر حياتهم التي هي أصلاً معكرة، خاطبه بنبرة لا تخلو من عتاب قائلاً:

- (يا ابني يوسف تغيب عن البيت في هذه الظروف القاسية ولا تحدث أحداً بوجهتك، مش عيب عليك؟).

- (الحكاية جات عفواً بدون نية مسبقة يا عمي).

- (أبوك حزن عليك حزن يعقوب على ابنه، واخواتك أدخلتهم في حالة لا يعلم بها إلا الله).

- (الراجل ما بخلي حقه للرجال).

- (دي ما رجالة، دي حماقة، المال والبيوت يمكن تعويضها لكن الروح مستحيل تتعوض).

- (كل شيء قدر مكتوب، واليوم إن جاء لا يتقدم ولا يتأخر).

- (ونعم بالله، ولكن الحذر والاحتياط واجب، ولا ترموا بأيديكم في التهلكة).

شعر أن حديثه معه لا يقدم ولا يؤخر، ما في رأسه في رأسه، ولكل جيل قناعاته ومفاهيمه، والتعايش بين الأجيال يحتاج إلى تقديم تنازلات، ولذلك آثر السلامة وانصرف عن الموضوع، وخاض في أحاديث، ظن فيها ترطيب للجو، وإدخال لنسمات فرح في نفوس أجدبتها رياح عقيمة، ما فيها غير حصا جبال إحن ومحن، لا تصلح لإنبات ابتسامات وزهر وورد، وليمون وبرتقال وتفاح.

(١١)

مضت الأيام بخطى وئيدة وحياة الناس تتقلب بين يأس ورجاء، يأس من أن لجيشهم القدرة على استئصال هذه المليشيا التي قضت على الأخضر واليابس وبدلاً من أن تواجه الجيش في ميدان المعارك فهي تختبئ كفئران مذعورة في بيوت المواطنين، تتخذ منهم دروعاً بشرية، وتستخدم ضدهم كل أساليب قذرة، قتل، طرد، نهب، واغتصاب، المدد البشري للميليشيا لا ينقطع، كل يوم تأتي وجوه جديدة، لأن خطوط إمدادهم البشري من جهة الغرب فاتحة. أهله في دار السمبر حاضرة قبيلة دار حامد في لهفة وخوف يسألون عن أخبارهم ويمدونهم بما عندهم من أخبار، أخبارهم تقول إن طريق الإسفلت لم يعد كما كان طريقاً للصادرات من خيرات البلاد والعباد، تحول إلى طريق وارد لمرتزقة وعتاد لميليشيا، وأن الجيش لا حول له ولا قوة اكتفى بالفرجة، لأسباب يعلمها هو، فهو سيد العارفين، وأهل دار السمبر ينظرون في غبن وحسرة، شاحنات، ودفارات، ودراجات نارية عليها جنجويد كما كتب عبد العزيز بركة ساكن:

(يسكنون في أحياء طرفية، في معسكرات ضخمة، يتمظهرون في المدينة في سيارات لاندكروزر مكشوفة عليها مدافع الدوشكا، وتعلق على جوانبها الآر بي جي البغيض، وهم عليها في ملابس متسخة مشربة بالعرق والأغبرة، يحيطون أنفسهم بالتمائم الكبيرة والخوذات، لهم شعور كثة تفوح منها رائحة الصحراء والتشرد، على أكتافهم بنادق جيم ثلاثة صينية تطلق النار لأتفه الأسباب، وليست لديهم حرمة للروح الإنسانية، لا يفرقون مطلقاً ما بين الإنسان والمخلوقات الأخرى؛ الكلاب الضالة مثلاً، تعرفهم أيضاً بلغتهم الغريبة " الضجر "، وهي عربي النيجر أو الصحراء الغربية، ليس لديهم نساء ولا أطفال بنات، ليس من بينهم مدني ولا متدين، ولا مثقف، ليس من بينهم معلم أو متعلم، مدير أو حرفي، ليست

لديهم قرية أو مدينة، أو حتى دولة، ليست لديهم منازل يحنون للعودة إليها في نهاية اليوم، يعملون من أجل شيء واحد، هو ذلك المخلوق ذو السوق الطويلة، والظهر القوي المحدودب، صاحب البطن التي بإمكانها أن تختزن برميلاً من الماء، يصورونه في راياتهم شعاراً، يأكلون لحمه وشحمه، يشربون لبنه، يسكنون في وبره وعلى ظهره، المخلوق الذي يستطيع أن يحملهم بعيداً جداً حيث يَقتُلُون ويُقتَلُون من أجل أن يوفروا له المرعى، هو ربهم وسيدهم، عبدهم ومملوكهم في نفس الوقت، أو ما يسمى الجمل...)، جنجويد ماشيين على أرجلهم، في طريقهم من فرقانهم الموبوءة بالمسغبة والعطش والفقر إلى أم درمان أرض الميعاد والنعم والخيرات، وشاحنات، ودفارات، وتك توك، ودراجات نارية تحمل أحمالاً متراكمة، ما ظهر منها، أثاث بيوت، ثلاجات، مراوح، مكيفات، شبابيك، أبواب، دواليب، وعربات كارو والحمير التي تجرها، وما بطن منها، عملات صعبة، عملة محلية، ذهب، فضة، لم يتركوا حتى الحلي (الفالصو) التي تتزين بها البنات الصغيرات، كل هذا الخم واللم في طريقه إلى فرقانهم البائسة وأسواق دول الجوار. خدمة الاتصالات في تذبذب مستمر، ولكنها على أية حال لا تنقطع بالكلية وإنما تفي بالغرض من وقت لآخر. تبخرت الأخبار السارة، ما عادت تأتي إلا الأخبار التي تدمي القلب وترفع ضغط الدم، اتصلوا به قالوا له: (أمك مريضة، اشتد عليها المرض، ومن الأفضل أن تأتي، حالتها تسوء يوماً بعد يوم، واسمك دائماً على لسانها، وأمنيتها الوحيدة أن تراك قبل أن تموت، وربما بوجودك تتحسن أحوالها، والأعمار بيد الله، المرض لا يقتل وإنما إذا جاء أجل الله فإنه لا يتأخر ولا يتقدم، كم من مريض حي يرزق وكم من ممارض مات وشبع موت)؛ أفضى لأهل البيت بالخبر، جلسوا يتشاورون في أنجع السبل لسفره إلى ديار الأهل والحرب سدت على الناس الطرق، الجنجويد انتشروا كالسرطان في كل مكان، يمارسون

جرائمهم التي لا تنفك عنهم أبداً، يقتلون وينهبون ويفرضون إتاوات حسب هواهم، خاطبه ابنه صدام قائلاً:
- (يا أبوي المسألة واضحة، لازم تسافر، ده مفروغ منه، ولكن السؤال، كيف يتم ذلك في الظروف الصعبة دي).
رد أيوب قائلاً:
- (يوجد طريقان، الطريق الأقصر هو طريق أم درمان بارا، طريق دوغري، والطريق الأطول هو طريق أم درمان عطبرة مدني الأبيض بارا، وده طريق باللفة).
رد يوسف قائلاً:
- (طريق أم درمان بارا نعم هو الأقصر ولكنه الأخطر، تبدأ الخطورة في إنه كيف يصل إلى سوق ليبيا ثم سوق القش، ارتكازات الجنجويد في الطريق كثيرة، أي جنجويدي قذر ممكن يدخله في ورطه، وسوق ليبيا غير آمن، وسوق القش حكاية ثانية، والطريق بمدني آمن ولكنه طويل، أقل حاجة يأخذ ثلاثة أو أربعة أيام، ينزل من حافلة ويطلع في حافلة، وطبعاً الحكاية دي متعبة ومرهقة جداً).
رد صدام قائلاً:
- (أنا غايته شائف الرأي الأصوب أن يسافر بطريق مدني، درب السلامة للحول قريب).
رد أيوب قائلاً:
- (ده الرأي الصحيح، لأنه سوق القش مهدد بالضرب بالطيران في أية لحظة، لأنه بؤرة للجنجويد، والركاب الذين يسلكون هذا الطريق معظمهم حرامية، يتاجرون في المسروقات).
ظل الفحيل طيلة هذا الوقت صامتاً لم ينبس ببنت شفة، يسمع لهم ويقلب آرائهم في رأسه، ثم نطق أخيراً:
- (الاختيار بين الاثنين صعب، ولكن على كل حال سوف أغادر غداً الصبح، والصبح لناظره قريب، وربنا يهدي إلى ما فيه الخير).

انفض سامر مجلسهم، ذهب كل منهم ليقضي شئونه الخاصة، تمدد على سريره، داهمته غفوة، ولكن ما في قلبه في قلبه، حلقت روحه في رحاب جنة اسمها الأم (سئل رسولنا الكريم، عن أحق الناس بحسن الصحبة (المحبة)؟، قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟، قال: أبوك، ثلاثة مرات أمك وفي الرابعة أبوك، حملتني في بطنها تسعة أشهر ثم وضعتني كرهاً، أرضعتني لبنها وربما تكون على جوع أو مرض أو تعب، رحل عنها أبي وتركني وعمري أربع سنوات، لم يترك لها سوى دكان حلاقة مؤجر تقتات منه، سعت بقدر استطاعتها لأن توفر لقمة العيش لي ولأختين، تقدم لها الخطاب ولكنها رفضت رفضاً باتاً أن تتزوج مرة أخرى، رهنت باقي حياتها لفلذات أكبادها، حرصت على تعليمهم مهما كلفها ذلك من ثمن وقدمت في سبيل ذلك تضحيات جسيمة، ترعرعت في كنفها وكنف جدي وعمي وعمتي، كان بيتنا قطيتان وراكوبة داخل حوش جدي، يأويني مع جدتي أم أمي وخالتي وأختي، ثم رحلنا إلى بيت جديد ملاصق لحوش جدي، غرفتان من طين وراكوبة، كانت بيديها تطعمني وتسقيني، وإذا مرضت بلمساتها وحنانها وريقها تشفيني، كل يوم كنت أكبر في عينيها، ما كنت في بداياتي محباً لمدرسة ولا تعليم، كنت أذهب إليها مكرهاً، لذلك كانت خطواتي الأولى متعثرة، كنت وما زلت على يقين بأن دعواتها الخالصة لربها هي التي جعلت حياتي تنقلب رأساً على عقب، أصبحت محباً للدرس وللتميز فيه، تدرجت بفضلها في مراقيه إلى آخرها، كانت تحزن لحزني وتفرح لفرحي، فرحتها بأولادي أحفادها لا توصف، كما كنت امتداداً طبيعياً لحياتها هم كذلك صاروا امتداداً طبيعياً آخر لحياتها، كانت سخية كريمة محبوبة، أينما تتوجه، وأينما تسير، وأينما تحط تصحبها البركة، مع أهلها وأقربائها وجيرانها وصويحباتها لا تعرف إلا الحب ونكران

الذات، حجت إلى بيت الله الحرام وعمرت أكثر من مرة، لا تفارق مسبحتها أنامل يديها، لا تفارق سجادتها تحت رجليها، كفنها وحنوطها وسدرها تحتفظ بها في شنطة من حديد، اسم الله لا يفارق شفتيها، من كراماتها ذكرها للموت كثيرا، ومن يكون حاله كذلك فهو إلى ربه أعبد وأقرب، جاءت إلى خاطره آيات من سورة الضحى: «ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث»، صدق الله العظيم، من أجل نعم الله علي أن منَ علي بأم رؤوم، منحتني كل حياتها، لم تبخل علَي بذرة عرق، أو نقطة دم، أو دقيقة أرق وسهر، وها هي تناديني، وهي في أضعف حالاتها، في خريف حياتها، في آخر رمق من روحها، بعد أن منحتني كل قوة كامنة فيها، بعد أن منحتني ربيع حياتها، وأنا بعيد عنها، يفصل بيني وبينها بحر مسجور بجنجويد عفن أوساخ).

رقد على سريره في ذلك المساء بعد أن صلى صلاة الاستخارة ودعا ربه طويلاً أن يهديه سواء السبيل ويمن على أمه بالصحة والعافية، لا ينسى ربه أبداً، في ساعات أمنه ورخائه، يحمده جزيل الحمد، ويشكره جزيل الشكر، وفي ساعات شدته وبلوائه لا ملجأ له منه إلى إليه، يشكو له ما به، ويطلب منه العون والمدد.

(١٢)

استيقظ من نومه في الصباح الباكر، هب من فراشه لكي يتهيأ لصلاة الفجر، شعر بنشاط وافر وبخفة لم يعهدها في نفسه من قبل، توكل على الله وذهب إلى مسجد الحارة، كثير من المصلين تركوا صلاة الجماعة فيه بعد أن هشمت قذائف طائشة بعضاً من نوافذه الزجاجية، بعد فراغه من صلاته ودعائه بما شاء من أدعية، جلس في مكانه المعهود متكئ بظهره على أحد الأعمدة، أطل ببصره من النافذة، الخيوط الأولى للصباح البهيج تنساب في الكون، لوحة ألوان فردوسيه لا تثبت على حال، تتغير في كل لحظة للأجمل، شعر أن الكون يعزف في سيمفونية لونية غير عابئ بالحرب والموت والدمار، وأن عينيه انقشع عنهما ظلام العمه الذي غشاهما بالأمس، وأن قلبه وجوانحه تغمرها فيوض من أنوار ربانية، علل كل ذلك بأنه ربما يكون إشارة بأن أموره بإذن الله ميسرة، وما عليه إلا أن يتوكل على الحي القيوم. عاد إلى بيته بعد أن ودع بنظراته محراب مسجده، زواياه وأعمدته، مصاحف قرآنه، وكل ما فيه من سجاد، وكراسي.

لبس ملابساً متسخة، على رأسه طاقية بدون عمامة، وضع نظارته الشمسية في جيبه، حقيبته كيس نايلون به ثلاث جبب، ثلاث سراويل، وثلاث عراريق، وملاءة خشنة زرقاء، وعمامة، دس ما عنده من نقود قليلة في باطن حذائه، المخاطر تحدق به من كل مكان، لا يأمن على نفسه من مجرمين، ربما راجلين، أو على دراجات نارية، أو على ركشات، ينقضون في سرعة البرق كصقور كواسر على فرائسهم، ولا يأمن جانجويداً يحملقون في الوجوه بحقد دفين ويلصقون تهماً جزافية بغرض التشفي والابتزاز، ذهب إلى محطة الحافلات وفي معيته أيوب، وأبوعلي، وصدام، ويوسف؛ وداعهم كان مؤثراً، مخاوفهم عليه كانت كبيرة، فهم يعلمون أن كثيراً من الذين سافروا في هذه الأيام ذهبوا ولم يعودوا، إما قتلتهم رصاصات

طائشة، أو دمرت مركبتهم قذيفة، أو أسرهم جنجويد، أو اختفوا في ظروف غامضة، أربعتهم في سويداء أفئدتهم يتمنون له أن يكون من قلة المحظوظين الذين وصلوا إلى ديار أهلهم سالمين، وخوفه عليهم كان مكبوتا، فهم تحت رحمة قذف لا ينقطع من مدافع ورشاشات، جلس في أحد مقاعد الحافلة لصق إحدى النوافذ، لوح لهم بيد واهنة لو كانت تنطق لقالت الكثير، ونظر فيهم بعينين مظلمتين، ضاقت محاجرهما، وخبا بريقهما، ما عادتا تريان إلا دماراً وموت. سوق صابرين، وما أدراك ما هو، نزل من الحافلة، حمل كيسه، حافلات سوق ليبيا على الطرف الغربي البعيد من السوق، مشى وسط زحام كثيف، بائعو خضار وفواكه يفترشون الأرض، أصحاب دكاكين مواد غذائية وبهارات يحتلون البرندات ويضيقون على الناس الممرات، أصحاب طبليات واقفون بها كيفما كان يسدون بها على الناس الطرق، صبية يحملون كل شيء يجوبون السوق وهم ينادون عل أشيائهم بأصوات حميرية مزعجة، خليط من عسكر يحملون بنادقاً يتسكعون في السوق، وباعة، ومشترين، وحرامية، ومجرمين، الصالح منهم والطالح. السوق عبارة عن كتل بشرية تسحق إنسانيتها في صراع بهيمي للفوز بفتات ملذات دنيوية زائلة. بعد جهد جهيد تمكن من التسلل بين هذه الجحافل البشرية التي تتدافع بقوة جبارة كصخور تهبط من عل، تدوس كل ما ومن يصادفها، سمع صوتاً ينادي:

- (سوق ليبيا، الراكب عشرة، لا زيادة ولا نقصان، عجبك أركب، ما عجبك باي باي، قطر عجيب يودي ما يجيب).

توكل على الله وركب، جلس على مقعد بجانب شاب يبدو عليه من هيئته أنه من أولاد ناس محترمين، خاطبه قائلاً:

- (السلام عليكم يا ابني، أنا ماشي سوق القش عندك فكرة كيف أصل).

- (يا عم الله يكون في عونك، سوق القش مليان جنجويد، مليان وسخ وعفن، ده نار جهنم).

تحركت الحافلة ببطء لأن الشارع مزدحم بحافلات، وسيارات، وعربات كارو، ومارة، استغرق ذلك وقتاً طويلاً، وبعد خروجهم من السوق مروا بارتكاز تابع للجيش، استوقفوهم، نظروا في وجوههم نظرات ذات معنى، سمحوا لهم بالمرور، مروا بارتكاز ثاني وثالث، وتكررت نفس المعاملة التي لا تخلو من شدة وغلظة، سأله قائلاً:

- (الحكاية شنو؟).

- (لسه ما شفته حاجة، دي المناظر، الفيلم لم يبدأ بعد، زمان من سوق صابرين لسوق ليبيا خمسة وأربعين دقيقة تقريباً، الآن لو وصلت في ساعتين انت محظوظ، السائقون يزوغون وسط الحارات، يتفادون التعطيل والتفتيش في نقاط الارتكاز).

بعد فترة ليست بالقصيرة رأوا نقطة ارتكاز كبيرة أمامهم، سواتر ترابية، وسواتر بسيارات محروقة، أربع أو خمس سيارات قتالية عليها رشاشات رباعي وثنائي، اثنتان تحت الأشجار القريبة، والأخريات واقفات عند المدخل، وحافلتان واقفتان رهن التفتيش، وجنجويد واقفون وبنادق وآر بي جي على كتفهم، وآخرون يطلعون وينزلون ركاباً من الحافلات الواقفة، خاطبه قائلاً:

- (أها نحن يا عمنا خرجنا من جمهورية السودان ودخلنا جمهورية الجنجويد، شد حيلك، إن عاينوا فيك، ووجهك ما عجبهم ينزلوك طوالي، يتهموك بأنك استخبارات، جاسوس، عسكري قديم، شيطان أزرق، المهم وقعتك سوداء).

- (يا ابني الله يكفينا شرهم، نتحسبنوا والله نعم الوكيل).

جاء دور حافلتهم، تحدثوا مع السائق، أنزلوه وذهبوا به إلى قائدهم ثم عادوا به، صعد على متن الحافلة ثلاثة شياطين، العياذ بالله، تفرسوا في الوجوه بعيون حاقدة ماكرة، أمروا الركاب بإبراز بطاقات هوياتهم، نظروا فيها، فتشوا الحقائب، أمروا شابين بالنزول، وبعبارات غليظة سمحوا للسائق بالمرور، تنفس الركاب الصعداء، وفي نفس الوقت حزنوا وتأسفوا على مصير الشابين، لأن

ما ينتظرهم من المؤكد لن يكون مجرد نزهة فيها ما لذ وطاب، أما هو تراءى له أنه رأى قُجَبْغا، ذلك البلبوص، الوزغ، الحرباء، الحية، بلحمه وشحمه ووسخه وعفنه واقف ديدبان هناك، يبحلق بعيني ضبع مفترس في وجوه الناس، إنه المجنون في رواية إيهاب عدلان (هكذا صرخ المجنون)، أو رواية هربرت جورج ويلز (الرجل الخفي)، مروا بارتكازين آخرين، نفس المعاملة الخشنة وسوء الأدب من وجوه عكرة، وبعد رحلة عذاب، ما بعده عذاب، وصلوا سوق ليبيا، طار عقله من رأسه، إنه ليس السوق الذي يعرفه، إنه سوق جهنم، أينما التفت رأى جنجويداً شعثاً غبراً معممين بكدمول إما واقفين كأباعر يحملقون في الناس، أو ماشين بينهم كحمر غبية، أو راكبين على دراجات نارية يتأرجح الآر بي جي على كتفهم، لا فرق عندهم أن يدهسوا كلباً أو إنسانا ساقه القدر إلى هذا المكان، رأى أمواجاً من البشر، وجوههم لا تنبئ بخير، قتلة أطلقوا من السجون، وحرامية، ونشالين، ومومسات، ومروجي مخدرات، ومتعاونين، وبائعي خضار وفواكه، رأى تاتشرات قتالية برشاشات تتحرك ببطء وسط عالم مجنون خرج عن طاعة الله، خاطبه قائلاً:

- (فعلاً نحن في جمهورية الجنجويد، جمهورية الأبالسة والشياطين).

- (الداخل إليها مفقود، والخارج منها مفقود، لولا ظروف قاهرة لما أتيت إلى هنا، هيا دلني على موقف مركبات سوق القش).

بقدرة قادر وبعد جهد جهيد شقا الزحام، أمسك بكيسه بقوة، الخطافون واقفون للناس بالمرصاد، وصلا إلى مكان اصطفت فيه حافلات مهلهلة قديمة وتيك توك، خاطبه قائلاً:

- (أها يا عم، هذا هو الموقف، استودعك الله، الله يكون في عونك).

رد عليه بنبرة شاكرة قائلاً:

- (بارك الله فيك يا ابني، ما عدمناك، ربنا يحفظك من كل شر).

لحسن حظه كانت الحافلة المهلهلة في انتظار آخر ركابها، ركب في صمت، شيمته التوجس والحذر من كل مخلوق يمشي على تراب هذا السوق الملعون، نظر نظرة خاطفة في الوجوه، دعا ربه في سره أن يكفيه شرهم، خيم صمت قاتل على الجميع، غاب عن عالمهم ودخل في عالمه الخاص، سمع صوتاً يقول:

- (النازلين سوق القش وصلنا أنزلوا).

يا الله سوق قش فعلاً، التبن علف الماشية أكوامه مشتتة هنا وهناك، عربات كارو، ركشات، تيك توك، حافلات، دراجات نارية، رواكيب، ستات شاي، جنجويد يروحون ويجيئون، كلاشنكوف، آر بي جي، ثنائي ورباعي يروحون ويجيئون، رجال ونساء وأطفال يمشون وعيونهم زائغة، روائح كريهة، بول وبعر حمير، بول وغائط وعرق بشر، دخان وغبار وتراب، التقطت أذناه طنيناً لصوت أجش ينادي:

- (راكب واحد بس، يلا، دار الريح الأبيض بارا).

ما صدق، قال في سره:

- (يبدو أن أموري ربك رب الخير مسهله).

لم يتردد، دفع لهم أجرتهم، صعد على متن الحافلة، كل المقاعد مملوءة إلا ثلاثة مقاعد شاغرة، أحدهما وسط المقاعد الأمامية، وآخر وسط المقاعد الخلفية، والثالث جوار النافذة الأمامية التي تقابل نافذة السائق، أجلسوه على الأول، وبعد برهة صعدت راكبة ومعها طفل، فقالوا هذا مقعدها أرجعوه إلى المقعد الخلفي، لبى أوامرهم طائعاً مختاراً بدون إظهار لأية بادرة اعتراض، رجع للمقعد ووضع كيسه تحت رجليه ونظارته الشمسية في جيبه، طفق ينظر في وجوه الركاب، هل هم فعلاً كما وصفوهم له من قبل، شرذمة من مجرمين وحرامية، امتهنوا تجارة الحرب في مسروقات منهوبة من بيوت هجرها ساكنوها قسراً، معظم الجوه لم تعطه انطباعاً طيباً، ومن أحاديثهم بدا له أنهم يعرفون بعضهم البعض، وأن هذه ليست أول رحلة لهم، فهم في سفر دائم لأن

تجارتهم الفاسدة رائجة، هم تجار الغفلة، تجار الحروب، همهم الأوحد تعظيم أرباحهم وفوائدهم بأي حال من الأحوال، لا يهمهم أحرام هو أم حلال، وبينما ماكينة الحافلة تدور، على وشك الإقلاع، وما زال آخر المقاعد شاغراً، جاء جنجويدي، يمشي الهوينى، يا أرض ما عليك إلا أنا، خاطب السائق قائلاً:

- (أين تصريح السفر).

- (يا سعادته، ما حصل طلعنا تصريح سفر من قبل، هل ده نظام جديد).

- (أيوه نظام جديد، عندنا مكتب هناك، أعمى ما تشوف، أطرش ما تسمع، فلنقاي وسخ بليد، المرة الجائية تمشي المكتب، تدفع الرسوم، وتطلع التصريح، مفهوم).

- (مفهوم سعادتك).

تنفس الركاب الصعداء، لم يدم ذلك طويلاً، وإذ بفتى صغير السن لا يتعدى عمره السابعة عشر في مشيه عرج، جنجويدي على رأسه كدمول، بندقيته على كتفه يعتلي الحافلة ويجلس على المقعد الشاغر، همس الركاب لبعضهم البعض قائلين:

- (يا عيب الشؤم مصيبة وحلت بنا).

- (اليومين دي السفر أكبر مصيبة).

- (الشقي ده ما يركب إلا الحافلة دي).

- (الشقي ده ماشي وين).

- (يا أخوانا يمكن لي خير، زمان لم يركب معنا رجل مرور، ما الله أدانا، ما في زول ثاني يتكلم معانا، لا مخالفة ولا يحزنون، ولا دندنة لأم ديبون).

- (يعني مع صاحبنا ده ما في جنجويدي يفتح خشمه معنا).

تحركت الحافلة بقدرة قادر بعد أن أمضى السائق والسماسرة والكومسنجية وقتاً طويلاً في تصفية حساباتهم المالية، قاموا بعد الركاب أكثر من خمس مرات، وفي كل مرة يتغالطون ويرمون باللوم على بعضهم البعض، نفس قصة الرجال البلهاء، كل منهم يضمر

سوء النية للآخر؛ سلكت الحافلة طرقاً داخل الحارات لكي يتفادى سائقها عصابات الجنجويد الذين يركبون دراجات نارية يلفون بها في الشوارع، يتحايلون على الناس بأية حيلة من الحيل للفوز منهم بغنائم، ثم وصلوا إلى ارتكاز كبير، حاوية مستخدمة كمكتب، سقيفة طويلة عريضة من الزنك، ثلاثة سيارات قتالية عليها رشاشات، عدد كبير من الجنجويد، صعدوا على متن الحافلة، تفرسوا في الوجوه، نظروا في بطاقات هوياتهم، سألوا منهم من سألوا، وفي النهاية أمروا الجنجويدي المسكين بالنزول، بعينين خائفتين ورجلين راجفتين نزل على مهل، دار بينهم حوار مسموع عجيب:

- (تتبع لأي وحدة؟).
- (وحدة عجال لاقن).
- (اسم أميركم؟).
- (مرفعين خلا).
- (سبب تركك لوحدتك؟).
- (كنت مضروب تحت العلاج).
- (ماشي وين؟).
- (ماشي لأخواني في جبرة الشيخ).
- (وين إذن التحرك؟).
- (ما أنطوني إذن).
- (ليه ما استلموا منك السلاح؟).
- (ما استلموه).
- (شيل حاجاتك أنزل).
- (دور يا سواق أمشي خلاص).

همست امرأة خمسينية بنبرة لا تخلو من شفقة ورجاء قائلة:

- (يا ولدي ما تخليه يمشي وليد صغير ومعوق ومضروب كمان).

وخرجت أصوات مرعوبة من هنا وهناك:
- (يا حاجة أعملي حسابك، ما تتدخلي، تجيبي لينا مصيبة).
- (يقوموا ينزلونا كلنا معه).
- (فزعنا طلع وجع).
- (خليهم ينزلوا معه صاحبة اللسان الطويل دي).
- (أنا خائف يقصوا ليها لسانها الطويل ده).
ردت قائلة:
- (كان كدي خليهم ينزلوه ويقطعوه شرموط ويعلقوه في رأس الحافلة).

بعد ساعة زمان تحركت بهم حافلتهم، حافلة سجم ورماد، حمدوا الله وشكروه في سرهم وجهرهم أن أنجاهم من زبانية العذاب، هؤلاء الجنجويد لا يردعهم رادع عن الإتيان بأفعال لا تخطر على بال، حركة السيارات في الشارع شبه معدومة، إلا من سيارات قتالية تابعة لهم تأتي مسرعة من الاتجاه المعاكس، بدايات موسم الخريف ظاهرة للعيان، الأرض خضراء بعشب ينمو هنا وهناك، بدت قرية رهيد النوبة، يا للحسرة موقف السيارات والشاحنات، حيث الدكاكين، المطاعم، المقاهي، وأماكن إصلاح الإطارات ونفخها بالهواء، خاوية على عروشها، تساءل قائلاً:
- (سبحان الله، خربانة الدنيا أم قدود، البلد عدمت طافي النار).

رد الجالس بجواره قائلاً:
- (رهيد النوبة انتهت، هجرها أهلها منذ زمن طويل، منذ أن اعتدى الجنجويد على سائقي الشاحنات، قتلوا منهم من قتلوا، ونهبوا من الشاحنات ما نهبوا).

خرجت أصوات من هنا وهناك:
- (البهائم ديل استباحوا البلد، حق الناس غنيمة باردة لهم).
- (والناس مساكين ما عندهم ما يدافعوا به عن أنفسهم وأموالهم).
- (والجيش لا حول له ولا قوة، قاعد حارس ثكناته).

- (يا أخوانا ما تجددوا علينا المواجع، البلد كانت هاملة، ضاعوا وضيعونا وضيعوها، وقعدنا نبكي عليها).
- (يا أخوانا الطمع في الحكم يعمي البصر، يقود للتحالف مع الشيطان).
- (والشيطان شوفكم نجوم الضحى).

توقفت الحافلة أمام قهوة صغيرة، دكان مبني من طين، حوله سقيفة من قش، نزل السائق وعاد ومعه رجل يحمل باقتين مملوءتين جازولين، قال في نفسه:
- (سبحان الله، تحولت القهاوي إلى محطات تزويد بالوقود، ومن أين يأتيها الوقود، نحن في زمن العاقل مجنون، والمجنون عاقل، ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم).

ثم بدت لهم بلدة جبرة الشيخ، مآذن مساجدها، أبراج وهوائيات اتصالاتها، محطات وقودها، احتلها الجنجويد منذ زمن طويل، مركز مهم يمر عبره مددهم من ليبيا، ويمر به ما نهبوه إلى فرقانهم، لدهشته نزل السائق بالحافلة من شارع الإسفلت ودخلها، ما كانوا من قبل يدخلونها، أمام مركز شرطتها آلاف من السيارات المنهوبة واقفة، ماتت دهشته عندما توقفت الحافلة ونزل أحد الركاب، تحركت الحافلة بعد أن أنزلوا له عفشاً يثير الريبة، وقبل أن يصعدوا شارع الإسفلت ثانية قابلهم تانكر وقود تئن وتشخر ماكينته من ثقل ما يحمل في جوفه، قال في نفسه:
- (الآن حصحص الحق، لا جنون ولا يحزنون، درب ليبيا فاتح، أكرب يا قاش).

ازداد اخضرار الأرض، أينما نظر مروج خضراء مد البصر، بذر الفلاحون أراضيهم سمسماً ودخناً، عملوا ما عليهم والرازق الله، برك مياه الأمطار متجمعة في منخفضات تحت الأشجار، ما شد انتباهه شاحنات ودفارات تحمل جنجويداً، تتبعهم تاتشرات مسلحة، وما جعله يخرج من طوره ومن جبته التي يلبسها، ويعوي كأسد جريح:

- (لا يمكن، هل ترون ما أرى، جحافل من الجنجويد، يأجوج ومأجوج ماشين كداري، زاحفين نحو أم درمان، قليل منهم يحملون سلاحاً، والباقون يحملون أطماعاً جامحة، لا تحدها حدود، قالوا لهم أنتم في حرب مقدسة، العمارات لكم، الذهب لكم، النسوان لكم، ومن مات منكم يموت شهيداً، وفوق ذلك ديته مدفوعة لأولياء دمه).
- (يا أخوي لسه ما شفته حاجة، الكلام ده بدا من زمان، الناس ديل تركوا وراءهم أية حاجة، هملوا بهائمهم، هملوا عقابهم، لماذا يتعبون ويشقون، أنهب شفشف وودي، عرس، وحكامات تغني، وأمشي وتعال ثاني، وشيل وودي وعرس ثاني).
- (أكلهم وشرابهم كيف، ديل ماشيين كداري أكثر من سبعمائة كيلومتر؟).
- (ديل عمرهم كله مشي، أكلهم مصرور في هدومهم المتسخة دي، وشرابهم من موية الخريف الآسنة الراكدة دي).
- (استنفروهم، غشوهم قالوا ليهم أنتم مهمشين، وقالوا ليهم البلد حقتكم، سرقوها الفلول، دولة ستة وخمسين ظالمة، دمروها وعلى أنقاضها أبنوا دولتكم الجديدة).
- (يعني ده زحف مقدس، حرب صليبية).
- (عربان الشتات سلالة قريش دي فرصتهم، القوة معهم، دول عربية وأفريقية وغربية معهم، السودان أرض ميعادهم، كما عاد اليهود إلى فلسطين هم كذلك عائدون إلى أرضهم الموعودة).
- (المخطط قديم جديد، ونحن نائمون غافلون).
- (يا أخوانا الجهل مصيبة، وعدم الوطنية مصيبة أكبر، أولادنا حاملين السلاح معهم، دي يفسروها كيف، عرفنا واحدين منهم مجرمين، وواحدين مغفلين، الكلام في المتعلمين والمثقفين، وفي دعاة عاملين فاهمين للدين).

ثم بدت لهم بلدة أم قرفة، أيكات أشجار سيال متناثرة هنا وهناك، اخضوضرت بعد أن كانت عابسة عارية من الأوراق، تتخللها بيوت بلوك وطين وقش، القهاوي التي تطل على شارع الإسفلت مغلقة، أبوابها مختومة بالشمع الأحمر، لا يوجد رواد، توقفت حركة الشاحنات والسيارات، المغصة والغبينة دفعت الركاب بعنف ليفضفضوا ويخرجوا ما في دواخلهم من ألم مكبوت:
- (ولى زمن العز، كانت هذه القهاوي عامرة، باصات، شاحنات، دفارات، سيارات، تذهب وتجيء، زبائنها ينقشون كالدود).
- (أصحابها أخذوا ما فيها وخزنوه في بيوتهم، الجنجويد لا أمان لهم).
- (الجنجويد يأكلون ويشربون ولا يدفعون).
- (ولأتفه الأسباب يقتلون الإنسان كالصرصور، وليس كالبعير، لأنهم يقدسون البعير).
خاطبهم قائلاً:
- (هذه البلاد كانت وادعة، سوق الإثنين عندهم من أعظم الأسواق، يأتيه الناس من قرى قريبة وبعيدة، يذبح على الأقل ثلاثين من الإبل، يبيعون ويشترون ويتبادلون المنافع في سعادة وسرور ودخان شية الجمر يعطر أجواءهم ويسيل لعاب الاشتهاء فيهم).
- (راحت عليهم، المساكين الآن يشكون لطوب الأرض).
- (كل يوم وثاني، فلان ضربوه، فلان قتلوه، شاحنة فلان شفشفوها).
- (ما دخلت يأجوج ومأجوج بلداً وإلا لاقى أهله منهم صنوفاً من الويل والثبور).
ثم بدت لهم قرية جريجخ، وادعة تنوم على سفوح تلال رملية، بيوت قش وطين مبعثرة تطل برؤوسها من بعيد من بين أشجار سيال وهجليج ونيم، هنا عمل الشياطين ارتكاز، شرذمة تنفر منهم النفوس، على رؤوسهم كدمولات، أغطية سرائر، تئن من تحتها

رقابهم، تشبه عمم الأتراك في الزمن البعيد، قالوا كانت للأتراك بمثابة أكفان، أما لهؤلاء فإن كان لها في الصحراء دواعي، فهي هنا بمثابة تخفي وتخلف وغباء، صعدوا في الحافلة، تفرسوا في وجوه الركاب كبوم نذير شؤم وقبح صوت وصورة، بدا أنهم وجدوا ضالتهم عند سائق الحافلة، فسمحوا لهم بالمرور. كان هذا المكان يعج بصبية يحملون أكياساً مملوءة بثمار الدوم، وبنساء يقفن أمام جوالات مملوءة بفحم الوقود، كل هذا اختفى، لا حياة مع يأجوج ومأجوج، بعد مدة وجيزة تراءت لهم غابات من أشجار الدوم، أخت أشجار النخيل بجريدها المروحي، ومروج خضراء، وجبل توشح بثوب رمادي، وسمسم ودخن شق الأرض، لثمت أوراقه ضوء الشمس. ثم غدوا على مشارف دار السمبر، مآذن مساجدها، أبراج وهوائيات اتصالاتها، أشجار لبخها ونيمها، عبق تاريخها، ضحكت لهم سواقيها، أشجار ليمون وقريب فروت ومانجو، داكنة الاخضرار من ارتواء بماء زلال لا ينقطع، لوحت لهم أغصانها بتحية أثلجت قلوبهم، دخلوها بسلام آمنين، وقفت الحافلة في موقف الحافلات، تنفس الركاب الصعداء، ما صدقوا أعينهم أنهم وصلوا بسلام، لأن الحكايات التي تحكى مرعبة، كثيرون بدلاً من أن يصلوا إلى وجهتهم وصلوا إلى قبورهم أو لا أحد يعرف لهم خبراً أو أثرا. حمل كيسه، وقف يتفرج في المكان، مسرح صباه، دهمته هلوسته، تذكر الأيام الحلوة التي مضت، تذكر فيها أساطين الظرف والفكاهة، لخمة، السريحي، النتيح، البريق، خواجة لويزو، خواجة استاورو، وسُكَرة، والرزة، وآخرون وأخريات، السلسلة طويلة، أجال بصره هنا وهناك لعله يرى واحداً من أهله أو ممن يعرفهم من أهلها، على يمينه مبنى البنك الزراعي، من طابقين، كانت أبوابه من

الزجاج الملون السميك، وجدرانه مغطاة بالخارج بصفائح خضراء جميلة، الآن كل شيء فيه مهشم، طلقات كثيفة لرشاشات أحدثت فيه ثقوباً بائنة للعيان، كل ذلك يحكي عن حقد وغبن وكره دفين دفع فاعليه لأن يقتلوه ويصلبوه واقفاً لأنه سبب من أسباب خضرة وخير وجمال هذا المكان، إنهم عدو للنماء والجمال والإنسان أينما وجدوا، على شماله هناك زريبة مواشي، أغنام وتيوس، خرفان وحملان، وسماسرة وبائعون ومشترون، وهنا دكاكين وبقالات ومطاعم يتصاعد منها دخان شواء، وتحت أشجار نيم ضخمة أكوام من بطيخ، وأكياس مليئة بليمون، وعدد من حافلات وسيارات تاكسي ليموزين دار السمبر الأبيض تنادي على الركاب، وقف طويلاً، لا يرى إلا وجوه أغرابٍ لا ينفعونه ولا يضرونه، سأل عن سيارة أجرة، قالوا له أن الشوارع مترسة، حفروا فيها خنادقاً عميقة، سدوها بجذوع أشجار وحجارة، خوفاً من الجنجويد، ما دخلوا بلداً إلا واستباحوا دماء وشرف أهله وأموالهم، أهل دار السمبر لهم بالمرصاد، موتهم حق وحياتهم باطل، ضرب أخماسه في أسداسه، ما عليه إلا أن يذهب راجلاً إلى بيت أهل زوجه، هم الأقرب، سلك طريقا بعيداً عن السوق، الشوارع شبه خالية إلا من قليل من سابلة يمشون يجرجرون أقدامهم في تثاقل، ولماذا يستعجلون كل شيء عندهم ملحوق، المتاريس في كل الشوارع، واجه مشقة كبيرة في عبور بعضها، لأنها عميقة جداً، وسيقانه رفيعة وركبتاه تطقطقان مع كل صعدة ونزلة، قرع الباب، فتح له ابن أخت زوجه، لم يصدق عينيه، جرى إلى داخل البيت وهو يكاد يطير من الفرح:

- (عمي الفحيل وصل، والله وصل).

وضع كيسه، رفيق دربه الأمين، سلم عليهم الواحد تلو الآخر، أم زوجه، خالة زوجه، أخوات زوجه، أولاد أخت زوجه، سألوه:
- (كيف تركت أم درمان، وأهلها؟).
- (أم درمان وأهلها الله يكون في عونهم، ضرب النار شغال ليل نهار، نوم ما في، الناس تأقلمت على صوت الرصاص وقذائف الرشاشات والمدافع وقصف الطائرات، خلاص الموت عندهم زي شراب المويه).
- (وكيف عملتم في الطريق مع الجنجويد؟).
- (ديل قصتهم طويلة، سوق ليبيا حقهم، احتلال كامل، ما حيرني الناس القاعدين في السوق ديل عائشين مع الهمج ديل كيف، شارع الظلط من أم درمان لحدي هنا حقهم بالكامل، حديدهم ماشي، كدمولهم ماشي).

نظر في عيني أم عياله ونظرت في عينيه، لغة العيون أبلغ من لغة الكلام، عاشا معاً أكثر من أربعين سنة، تقاسما حلوها ومرها، رزقا أولاداً وبنات، شبوا عن الطوق، صاروا ملئ السمع والبصر، ما وجدا منهم إلا براً وحناناً، بيتهما عشهما الذي بنوه بعد جهد جهيد شهد أروع لحظات حياتهما، الحياة كانت سهلة، رغيدة، الجيران حلوين، أهل الحارة حلوين، الدنيا كلها حلوة، إلى أن ظهر في البلد طاعون، غول، عفريت، اسمه جنجويد، أوجدوه من عدم، ربوه، مكنوه، فطمع في ابتلاع البلد برمتها، ها هما الاثنان الآن في زمان ومكان ليس لهم فيهما اختيار، وفي حاضر بائس ومستقبل مجهول. بعد أن تغدى وتمدى وأخذ قسطاً من راحة بعد سفر عانى فيه من جلسة طويلة، هيجت له أوجاع مفاصله وغضروف رقبته وظهره، ودعهم ويمم وجهه شطر بيت أمه وخالته اللتين يكن لهما حباً لا

يدانيه حب. كان اللقاء مؤثراً، ذرفت دموع أمه وخالته، هطلت كصيب من السماء، فرح ابن خالته وزوجه وأولاده، ما صدقوا أنه واقف أمامهم بلحمه وشحمه، قبل رأس أمه التسعينية الراقدة في سريرها، أمعن نظره فيها، هدها المرض، هزل جسمها، ضعفت ضربات قلبها، ضعف بصرها وسمعها، أمعن نظره في خالته التي تصغرها بسنين قليلة، عصرتها الحياة، احدودب ظهرها بسبب وقوعها من عربة كارو جمح حمارها، وبسبب أنهم ضيعوا زمنهم مع بصير يدعي علاج كل الكسور بدون فائدة، عندما قابلوا بها الطبيب قال لهم: (فات الأوان، تصلب العصب، ولا ينفع إجراء عملية جراحية لها). سألوه نفس الأسئلة التي سمعها من قبل، أجابهم بنفس الإجابات وزاد عليها أن الناس هنا في خوف، ولكن خوفهم أقل من هناك، وأن الناس هنا ما عاشوا الحرب بعد، وإنما يتسمعون الأخبار، وان من سمع ليس كمن رأى، حل المساء، أعدوا له فراشه، نصبوا فوقه ناموسية، بدونها لا يستطيع أحد النوم لأن بعوض الدنيا كلها يعيش ويتناسل في هذا البلد، بعوض من نوع خاص، يمص الدم وينقل الملاريا وحمى الضنك وأمراض أخرى لم تعرف بعد، نام نومة لم ينم مثلها من قبل، أخت الموت، لأن نهاره كان مليئاً بأحداث جسام، ينوء من حملها جبل مرة، وجبل ميدوب، والجبال البحرية، وجبال النوبة، وجبال البحر الأحمر.

(١٣)

مهما تكالبت عليه مصائب الدنيا، ومهما ناله من نصب وتعب فهو حريص على أداء فرائضه في وقتها، لذلك صحا من نومه مبكراً، ثم صبح على والدته التي كانت رغماً عن مرضها ماسكة بمسبحتها تسبح وتحمد وتكبر ربها سراً وجهرا، بصوت راعش ضعيف سألته عن أهلها وجيرانها، وعن الحرب هناك، وعن قطرة عينيها اللتان تعانيان من الجلاقوما، المويه السوداء، ولضعف في سمعها الذي كانت ترخيه لتسمع صرخاته وأناته في مرضه وهو صغير رفع صوته بدرجة لا تسبب لها أي نوع من الأذى، طمأنها عليهم، أنهم بخير، والحرب ما زالت تدور من حولهم، ومن وقت لآخر يكتوون بنارها، شظايا ودانات وقذائف تقع في بيوت الحارة، مات من مات، وجرح من جرح، ونزح من بيته من نزح، والباقون مجبورون على البقاء، وأن قطرة عينيها مع شح الدواء لم ينجح في الحصول سوى على حبتين منها تكفيان لشهرين فقط. أعدت خالته شاي الصباح، أحضرت البنت الصغرى الرغيف السخن من مخبز قريب، وكانت حفلة شاي عامرة، الولد والبنات في فرح غامر يغمسون نتف الرغيف في أكواب مترعة بشاي الحليب، يرفعونها نحو أفواه مبتسمة، يسيل الشاي على مرافقهم، وعلى أسفل شفاههم ومقدمة رقابهم وملابسهم، وهي تنظر إليهم بعينين حانيتين وبقلب يفيض شفقة ومحبة. مدة غيابه عن البلد كانت طويلة، كثير من الذين يعرفهم غيبتهم مقابر أباب حمد، وكثير منهم في أرذل العمر فاقدين للذاكرة، وكثير منهم كانوا صغاراً ولا يعرفون عنه الآن شيئاً، في نظرهم مجرد غريب قذفت به أمواج الحرب، وكثير منهم هاجروا تركوا البلد وحل مكانهم مهاجرون أتوا من بقاع شتى. مشى بحذر متخطياً تروساً وخنادقاً محفورة إلى أعماق سحيقة، خبط على أبواب بيوت الأهل والجيران، فتحوا له أبوابها، قابلوه بوجوه تنبض بحب وترحاب، الأطفال نظروا ببراءة في وجهه

الغريب، تبادل مع الجيران كلاماً كثيرا، سألوه عن الحرب ومتى ستضع أوزارها، أكرموه بتمر وشاي أحمر، تغيرت البيوت، ما عادت مبنية من طين وقش، تغير الحال، الثلاجات، المكيفات، وشاشات التلفاز في كل بيت. مشى على غير هدى في الدروب، أشجار الموسكيت الشوكية شديدة الاخضرار نبتت في كل مكان، أغنام كسولة تستظل بظلها، ودجاج ينقر في الأرض وكتاكيت تحوم حوله، وفراغات بين البيوت مزروعة بأنواع شتى من الخضر، فجل، بصل، جرجير، خضرة، بامية، رجلة، وطماطم، ومن داخل البيوت تبدو أغصان أشجار الليمون محملة بثمرات خضراوات وصفراوات، عيون المياه الجوفية قريبة جداً، لدرجة محيرة، يكفي حفر خمسة وثلاثين متراً وتتدفق المياه بوفرة من أنبوب بلاستيكي بمضخة غاطسة لا تتعدى قوة حصانين، لا يستخدمون الأسمدة الكيمائية، أرضهم تربتها رملية طيبة صالحة للنبات، يستخدمون أحياناً روث البهائم كسماد، تحيط السواقي إحاطة السوار بالمعصم بهم من جميع الجهات، الهواء منعش خصوصاً في الصباح الباكر والأمسيات، البيوت القريبة من السواقي تتمتع بنسائم مشبعة برياحين الخضار، عربات الكارو التي تجرها الحمير تذهب وتجيء وعلى متنها نساء ورجال وشوالات وقفف، فهي ليموزينهم الذي ينقل الناس من وإلى السوق.

وضعوا صينية الإفطار على طاولة صغيرة أمام أمه، التي كانت ترقد على سريرها تحت ظل أغصان شجرتي نيم ودوم صنوان متلاصقتان، نبتتا لصق السور الخارجي للبيت وتمددت أغصانهما حتى حائط أقرب غرفة، وتحت الأغصان شدت ملايات وشراشف قديمة بحبال فوق رأسها، جلسوا حول الصينية، نفس الملامح والشبه فتة مرق العدس بالخبز، واحتفاءً به، معها صحن عصيدة، صحن سلطة، أم فتفت معدة وكرش الخروف مطبوخة بالفول السوداني والشطة والليمون، خالته تعلم أنه يشتهيها ويموت فيها.

جلسوا كلهم، الخالة، الولد والبنات وأمهم، أكلوا هنيئاً مريئاً، وبين الفينة والأخرى، بنبرة حنونة يخاطب أمه:
- (يا أمي أكلك عاجز، يا أمي الصحة والعافية مع الأكل، وعدم الأكل يسبب المرض).
- (يا ولدي النفس مسدودة، ما خلاص أكلت وشبعت، المكتوبة كملت).
- (يا أمي ربنا يعطيك طول العمر، أجبري نفسك).
- (جبرتها لكنها أبت).
- (يا أمي عشان خاطري زودي شوية).
أخذت آخر لقيمة لها، نفضت يدها وأردفت قائلة:
- (كفاني، عليكم الله خلوني).
صمتت لفترة ثم سألت:
- (وروني أخبار الدعامة شنو، ناس الجيش ما قتلوهم، ما كملوهم، ريحوا الناس من شرهم).
- (يا أمي ديل أنجاس بعاعيت، يقتلوا منهم مائة، يجوا مائتين يسدوا محلهم من تشاد والنيجر).

ثم جاءوا بصينية الشاي والقهوة، أمسكت بكوبها وأنشأت ترشف رشفات خفيفات في صمت رهيب وهي تمسح بأصابعها على عينيها، أمعن النظر في وجهها، يا الله، كان وجهاً ملائكياً صبوحاً يفيض بماء الحياة، كان وجهاً لا يعرف هياج الغضب إلا في حالات نادرة وسرعان ما يعود بعدها إلى هدوئه صفائه، بحر ذاخر بالعطف والإحسان، كان وجهاً لطيفاً يألفه وينجذب إليه كل من يراه، كان وجهها شمسه سراجه الذي يضيء له ما بين جوانحه، وينير دروبه في الحياة، ويمنحه الأمل الأخضر، ويمنحه القوة على مجابهة التحديات، وقمره الذي يبدد ظلام روحه، ويجعله يحس بجمال آيات الله في ملكوته العريض، والآن وجهها شاحب خفت ضوؤه كشمعة ذابلة، مليء ببقع وبثور سوداء تحكي عن عمر مديد، لو في استطاعته أن يستعيد له ألقه وجماله الآفل لما توانى

لحظه في ذلك، مهما كلفه من تكاليف وتضحيات. كانت لها ذاكرة قوية مشهودة، مرجع لكل طالب معلومة موغلة في القدم، الآن الأحداث القريبة تتذكرها بصعوبة، ولا ترغب في الخوض في الحديث كثيراً. دعا لها الله في سره أن يمن عليها بالصحة والعافية في باقي أيام عمرها.

حانت صلاة المغرب، ذهب إلى مسجد فلاته وهو أقرب مسجد لدارهم، عُرف بهذا الاسم لأن مؤسسيه ومعظم سكانه ينتمون لقبيلة الفلاته، المعروفون بتدينهم ودماثة خلقهم وطيب معشرهم، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، هاجروا إلى هنا واستوطنوا منذ زمن بعيد، الذين عاصروه منهم يعرفونه ويعرفهم حق المعرفة؛ مرّ في طريقه لهذا المسجد العتيق ببيت ابن عمه (ود حولي)، بيت أنيق عامر يشار له بالبنان، وحولي جد علم في رأسه نار، خلف تاريخاً ناصعاً توارثته الأجيال، عبر في طريقه ثلاثة خنادق عميقة، بالقرب من بئر ماء يفصل بينها وبين المسجد بيت واحد، كان كومر (شعبان) واقفاً هناك بكبووت متجهم، إنه لن ينساه أبداً، فقد كان من مالكيه في أيام خلون عمه (عشرية)، إنه مشهور، موديل سنة أربعين، كان تبع الجيش، ثم تبع الشرطة، ثم تبع مجلس البلدية حامل نفايات، ثم تم التخلص منه مع إخوة له من سيارات خردة تأخذ أكثر مما تعطي، وآلت ملكيته لعدة ملاك، كل واحد منهم يشتريه من الآخر، إلى أن استقر به المقام أخيراً عبداً مطيعاً لشعبان، يحمل عليه تراب البناء، يدور ماكينته بالمنفلة، لا يعرف أسرار مسك عجلة لجامه إلا هو؛ الفحيل كعادته التي درج عليها منذ وقت طويل دائماً ما يؤدي صلاته وهو جالس على كرسي بسبب شد عصبي في رجله اليسرى، لم يجد له علاجاً بالرغم عن تعاطيه لكثير من الأدوية وخضوعه لصدمات كهربائية وتمارين علاج طبيعي كلفته كثيراً من المال، بعد فراغه من صلاته أجال بنظره في وجوه المصلين، سبحان الله عادت صور قديمة إلى ذاكرته الخربة وبمضاهاتها مع الصور التي يراها

أمامه استبانت له ملامح محفوظة لبعض الشخوص ولكن غابت أسماؤها، وبدورها نظرت عيون المصلين فيه، لم يعرفوه تغيرت ملامحه الزمن كفيل بأن يطمس كل شيء، حدق أكثر في من كان يؤم المصلين، شيخ وقور بلحية كثة طويلة، صورة قديمة باهتة بدأت تضح له أكثر وأكثر، صافحه وهو يناديه بلقبه قائلاً:

- (ألست أنت بينسون؟).

- (نعم أنا بينسون وألست أنت الفحيل؟).

- (نعم أنا الفحيل).

تعانقا عناقاً حاراً، مضت سنون عدة، تزيد على الثلاثين سنة لم يلتقيا فيها، سمع باقي المصلين من كبار السن باسمه فأقبلوا عليه وعانقوه بقلوب منشرحة. سألوه عن أحواله وعن أحوال أمه، فهم يعرفون أنها طريحة فراش المرض، وعن أخبار الحرب في العاصمة الخرطوم، وسألهم عن حالهم وحال أهلهم وعيالهم، ودعهم، وآخر كلماته لشيخ بينسون:

- (سوف نلتقي كثيراً بإذن الله، المسجد سوف يجمع بيننا، وسنحكي عن ماضي بعيد، وحاضر عجيب، ومستقبل ضائع).

بعيد غروب الشمس المشهد في عموم البلد يتغير تغيراً كاملاً، تدب الحياة في الطرقات بعد أن كانت شبه ميتة بالنهار، عمار المساجد يأتون إليها زرافات ووحدانا، والذين لا يهتمون بذلك يتحلقون حلقاً في مجموعات في الطرقات، يتناقلون في شراهة الإشاعات والشمارات والوشايات، ويخوضون في أخبار الحرب، ومنهم من لا يخفي تعاطفه مع الجنجويد لجهل أو سوء فهم أو لأحقاد دفينة في نفسه، ويدخلون في مهاترات فجة وفي لغو ما أنزل الله به من سلطان، مر بواحدة من تلك الحلقات، لا تبعد عن بئر المسجد كثيراً، بعضهم على كراسي وآخرين مستلقين على ظهورهم فوق بسط أو فوق رمال ناعمة، صافحهم جميعاً، منهم من عرفه

وغالبيتهم لم يعرفوه، ثم مر بالقرب من بائعة طعمية، صاج الطعمية فوق النار، زيته يغلي كغلي الحميم وهي ترمي فوقه بمهارة بكرات حمص الكبكبي المطحون والمعجون والمخلوط بالشمار، ونساء وصبية يجلسون من حولها، ولما عاد إلى البيت وجد أمه في سابع نومة داخل ناموسيتها تفوح منها رائحة الليمون، الذي تدعك به جسدها وأطرافها ليقينها بأنه أقوى طارد طبيعي للبعوض، ذلك المخلوق الذي يختفي نهاراً ويظهر بكثافة عجيبة ليلاً. البنات وأخوهم متحلقين حول جدتهم يشربون شاي المساء، الشاي يشربونه في انشراح عجيب وهم يتشاكسون ويثيرون الفوضى والعكننة، بدونه لا يذوقون طعم النوم أبداً، مدت له خالته كوب حليب وخاطبته قائلة:

- (أمك شدينا ليها ناموسيتها، شربت لبنها، وسألت عنك، وتمسحت بليمونها ورقدت).

- (الله يديها الصحة والعافية).

وفي أثناء عودته من رحلته إلى المسجد لاحظ أن السماء كانت ملبدة بالغيوم، ولا أثر للنجوم فقد اختفت خلفها، وأن الهواء قد برد نوعاً ما، لم يعط الأمر كثير اهتمام، تمدد فوق سريره تحت الناموسية التي لا يمكن لبشر من لحم ودم أن يذوق طعم النوم بدونها، لأن البعوض بلدغاته المؤلمة سيشبع من دمه وينقل له طفيليات الملاريا، وإن لم يرسله إلى قبره سيبقيه طريح فراش المرض بعيون مزغللة وشفاه يابسة، وشهية مقفولة لمدة طويلة، قرأ أوراده في سره، ومع الهجمة الأولى للنعاس بدأت الأفكار تدور في

رأسه، الإقامة هنا قد تطول لأن الحرب حسب الشواهد والمعطيات حتماً سوف تطول، ومصادر الدخل كلها مجمدة أو ابتلعتها حرب ضروس لا تبقي ولا تذر، والأم والخالة والأولاد لهم أفواه مفتوحة، ويمرضون ولا بد لهم من علاج لكي يتعافون، وما بيده إلا حيلة واحدة، قطعة أرضه الوحيدة التي يملكها في هذا البلد، مسقط رأسه، ومرتع صباه، فليجمع أطرافه المالية، ويستعين بمن يمكن أن يعينه، وليحفر فيها بئراً كما فعل الآخرون، وليركب فيها مضخة غاطسة كما فعل الآخرون، وليتوكل على الله مغيث المتوكلين، عسى أن تخضر الأرض الجدباء بخضار يبهج النفوس، ويصل إلى الأسواق، ويأتي منه عائد مالي مجز يستر الحال في زمن عصيب يسأل اللهَ الناسُ فيه الستر والسلامة. نام ما شاء الله له أن ينوم، ثم رعد الرعد، وبرق البرق، واشتد هبوب الرياح، وعلى عجل في ذعر وخوف أدخلوا أمه إلى داخل غرفتها، ودخل هو في غرفة ثانية، ودخل الباقون في غرفة خربة ثالثة، وهطل المطر غزيراً مدراراً، قطراته وهي تساقط على سقف الغرفة المعمول من ألواح الزنك أصدرت أصواتاً مزعجة، طردت النوم من عيونهم، ما عاد لنومهم لذة أو حلاوة، البرق يلمع من وقت لآخر، يخطف الأبصار، ودوي صوت الرعد ا ينذر بوقوع الصواعق، سبح في سره: (سبحان من سبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته).

(١٤)

بعيد فراغه من صلاة الفجر وللمطر زخات خفيفة أنعشت نفسه، أنستها الحرب وويلاتها، طارت به بأجنحة الذكريات، عبرت به الزمن إلى الوراء، ما أروعك يا أبا القاسم الشابي، وما أروع تونس الخضراء، وما أروع الخضرة هنا في زمن الخريف، حل الخريف وحلا أهلاً به وسهلا، وفي هذا الصباح، أصبح الصبح جميلاً يملأ الأفق بهاه، فتمطى الزهر والطير وينابيع المياه، فأفيقي يا خرافي وهلمي يا شياه، الأجواء في غاية الروعة، تثير وتلهب الذكريات، آه يا حسرتاه على أزمنة جميلة مضت، وخُرُفٌ جميلات ولت، خلفت في النفوس أمتع الذكريات، ذكريات طيور السمبر والرهو وقد عادت من رحلتها الموسمية، تسكن أعشاشهما القديمة فوق أشجارها التي لا تضل الطريق إليها أبداً، تملأ الدنيا صراخاً وضجيجا، ذكريات أيام أن كانت أسوار البيوت من شوك وقش تنبت على حوافها زهور برية، وخضرة ورجلة خريفية بزهرات بنفسجية، وحينما تكتسي الأرض بسندس أخضر وتزدان بنبات الضريسة ذات الشوك المكور الذي يشبه الألغام البحرية وأعشاب لا نعرف لها اسماً ولا فصيلة يظهر جراد العَتاَب، جراد صغير يسهل الإمساك به لأنه يطير لمسافات قصيرة، وتظهر حشرات حمراء اللون كنا نظنها دَلمَات تغير لونها من الأسود إلى الأحمر بفعل مياه المطر، ويظهر البطيخ الصغير المشوي على الجمر والمغلي في الماء الحار، والعونكوليب، والتبش، والعجور، واللوبيا، ويكثر الحليب والروب الرائب، وترخص أسعار الدجاج والبيض، والتيوس، والحملان، ثم تظهر الجمال وعلى ظهورها البطيخ محمول في شباك منسوجة من حبال سعف الدوم، يا لها من ذكريات بديعة، مشى، ظل يمشي، نسي الخنادق المحفورة، كاد أن يسقط فيها لولا عناية الله، كأنما جنية لعوب تعزف على ناي يعزف ألحاناً ساحرة، يطرب للألحان، يمشي بدون إرادة، الجنية تسوقه خلفها، تخطى ثلاث خنادق حتى وصل

أمام بئر ود حماد، ثم تخطى خندقين حتى وصل إلى المنعطف الذي يؤدي إلى شارع اللبخ، ثم تخطى ثلاث خنادق أخر حتى وصل أمام مسجد أولاد يسن، ثم تخطى خندقين حتى وصل أمام مدرسة البنات، ثم تخطى أربعة خنادق حتى وصل المنعطف أمام نادي الموظفين الذي يؤدي شارعه المستقيم إلى السوق مباشرة، تخطى خندقاً عميقاً قبل أن يصل إلى شجرة اللبخ المعمرة الكبيرة أمام مركز شرطة وسجن المدينة، هذه الشجرة تشعبت، ولدت شجيرات، لها جذوع منفصلة، تحتها أناس ينظفون بصلاً ويعبونه مرةً أخرى في جوالات، وتحتها سيارات لاندكروزر ولواري، دخل السوق والمسجد الكبير بمئذنته الطويلة على شماله، وعلى يمينه بنايات جديدة لمحلات تجارية حلت محل بيت مأمور المركز الذي كان قائماً هنا، صف الدكاكين القديمة من الجهة الجنوبية للسوق ما زال قائماً في مكانه، اختفت زريبة العيوش وزنك العفش والكرش والكمونيه وحلت مكانها أكشاك مؤقتة مشيدة بالزنك، فوضى ما بعدها فوضى، فراشون يفرشون بضاعتهم على الأرض، كل ما يخطر على البال معروض للبيع، وبائعات الأطعمة والطعمية والبيض المسلوق جالسات على مقاعد خلف قدور وصيجان على مواقد التهب فحمها، درداقات وعربات كارو تجرها حمير وتك توك تزاحم الناس فيما بقي من مساحات ممرات أصلاً متعرجة ضيقة، السوق مزدحم جداً بأناس غرباء، بعضهم جاءوا من القرى المجاورة، والباعة وأصحاب الدكاكين غرباء جاءوا من الغرب، ضاقت بهم المعيشة في مدن وقرى دمرتها نزاعات واحتراب قبلي، ثم فطن إلى أنه في قلب السوق، أكشاك حلت محل زنك الخضار والجزارة الكبيرة، منها ما يعرض لحوماً، وما يعرض شتى أنواع الخضار، وما يعرض فواكه، وما يعرض بقوليات، وما يعرض أحذية وملابس، صف الدكاكين القديمة من الجهتين الشرقية والغربية ووسط السوق ما زالت في أمكنتها، في الجهة الشمالية اختفت زريبة المحاصيل ودكان وبستان خواجة استاورو وحلت محلها

أكشاك ودكاكين جديدة، بيتا مفتش المركز وطبيب المستشفى قامت محلهما عمارات ودكاكين، انعطف غرباً، مر بحطة وقود، ثم عبر خندقين إلى أن وصل إلى قطعة أرضه، الحمد لله مسورة من جهاتها الأربع، له جيران من ثلاث جهات، ودكان وبابان يفتحان على شارع رئيس. دخل من الباب الصغير، وجده مفتوحاً، أجال نظره في كل الاتجاهات، الأرض فضاء غير مستوية، مزروعة ويكه ولوبيا وبطيخ، أشجار موسكيت كبيرة تنمو لصق سورها من جهتي الجنوب والشرق، اكتفى بما رأى وقفل راجعاً إلى من حيث أتى. عاد هذه المرة بطريق آخر، مر عبر سواقي مزدانة بأزهار أشجار ليمون وشطة وبصل و ويكة وبرسيم، وبأوراق جرجير وفجل، مر بنوق وجمال معقولة باركة وواقفة، وبرجال واقفين وجالسين يتبولون بسخاء على أشواك الموسكيت التي تسور تلك السواقي، وبطواحين غلال وورش إصلاح سيارات إلى أن وصل إلى شارع الإسفلت، شارع الصادرات، الذي يربط غرب البلاد بأم درمان، هاله المشهد الذي رآه، سيارات تاتشر عسكرية قتالية منصوبة فوقها دوشكا وثنائيات ورباعيات عليها جنجويد لا يشبهون أهل بلاده لا شكلاً ولا ملبساً، جنجويد على دراجات نارية على كتفهم البنادق و الآر بي جي، جنجويد يمشون راجلين، كلهم زاحفون نحو أم درمان، وشاحنات ودفارات وتك توك تحمل عفشاً وأثاثاً وأجهزة كهربائية ومواد بناء وشبابيك وأبواب وأسرة قديمة، كلهم عائدون إلى فرقانهم بغنائم نهبوها من متاجر وبيوت الناس، والذي جعل الغبن يقطع قلبه ويفري أمعاءه أن كل هذا يحدث أمام عينيه وطلقات الفرح والاستهتار والاستهزاء تخرج في مجموعات من بنادقهم، كأنهم يتحدون الناس ويقولون لهم: (يا أيها الجبناء نأخذ منكم ما نريد من غنائم حُمرة عين، رجالة شراسة وقوة، المال يحتاج إلى أسود تحميه، وأنتم مجرد خرفان لا تنش لا تهش). أذن أذان الجامع الكبير لصلاة الظهر، وقف في صف الميضأة، المتوضئون كثيرون، كلهم غرباء، دخل الجامع جلس في واحد من عدة كراسي مرصوصة

وسطه، طفق ينظر في كل الاتجاهات، الجامع عصري، فيه كل سبل الراحة، مراوح ومكيفات وفرش جميل، نوافذ زجاجية وأبواب خشبية منقوشة، طفق ينظر في وجوه المصلين، عرف بعضهم ولم يعرف الآخرين، بالرغم من أن الزمن لعب لعبته في تشويه الوجوه إلا أن مخلفات الصور القديمة أثر يدل على البعير، بعد الفراغ من الصلاة صافح أقرب الناس منه مكاناً من ظن أنهم عرفوه، من عرفوه خاضوا معه في أحاديث لا تخلو من مجاملة، البعد الزمني شاسع، وتحتاج الذاكرات إلى منشطات ومحفزات. أكوام البطيخ تحت أشجار النيم على جانبي شارع الإسفلت أمام المسجد لفتت انتباهه، حمل بطيختين لأن أمه الغالية تحب البطيخ وتموت فيه. عبر تروساً وخنادقا، الأرض ما زالت مبتلة بمياه مطر أخذت تجف رويداً رويدا، الأغنام راقدة في دعة وخمول تحت أشجار الموسكيت، دخل البيت، أشجار ليمون وقشطة وسدر وشجيرات مزهرة، تتمايل أغصانها، وتحفحف أوراقها بصوت لطيف، ويفوح شذى عطرها في عرصات البيت، أمه في أحسن حالاتها، خالته جالسة على مقعدها تهب بهبابتها على جمر أوقدته لقهوتها، أمه أمامها فنجان من القهوة، وحولهما أولاد البيت يتشاغبون ويلعبون، فقعوا البطيختين، وضعوا أمام أمه نصف أحلاهما، تناولت لبها بفرح غمر وجهها، سألوه عن أسباب غيابه الطويل، وأنهم تناولوا طعام إفطارهم، وإفطاره جاهز في انتظاره، في أثناء تناوله لطعامه سألهم عن أخبار أخته وأقاربهم بمدينة الأبيض التي لا تبعد عنهم مسافة تقل بقليل عن أربعين كيلومتراً فقط قائلاً:

- (ناس الأبيض أخبارهم شنو؟).

ردت أمه بصوت خافت قائلة:

- (الله يكون في عونهم، الدانات يومياً تصبح عليهم وتمسيهم).

ردت خالته قائلة:

- (الجنجويد حاولوا دخولها أكثر من مرة وفشلوا).

خرج صوت إحدى البنيات:

- (في كل مرة يقابلوهم ناس الهجانة ويفجخوهم فجخ تمام).
رد قائلاً:
- (هم طبعاً متبعين سياسة الأرض المحروقة، يقصفوا من بعيد، لا يفرقون بين مدني وعسكري).
- (كثيرون فقدوا أرواحهم، وكثيرون إصاباتهم خلفت فيهم عاهات مستديمة أو فقدوا أطرافهم).
- (الأطفال يعيشون في حالة من الرعب مستمر).
- (السلع في الدكاكين قلت والأسعار ارتفعت)
- (والمويه حيرت الناس، سعر البرميل خمسة آلاف جنيه، والحصول عليه بسل الروح، بعد تعب شديد).
- (غايتو الله يلطف بعباده)
- (المصيبة الثانية السفر من دار السمبر إلى الأبيض أصبح مخاطرة كبيرة، الطريق فيه جنجويد وفيه حراميه، تطلع من ديل تقع في ديل، تحت التهديد بالسلاح، تديهم التلفون وتديهم القروش، ومع ده كله ذلة وإهانة).
- (الناس تركت الذهاب إلى هناك، إلا في حالات الشديد القوي، مثل إسعاف مريض، أو فاتحة في ميت يكون قريب من الدرجة الأولى).

بعد أن فرغ من تناول طعامه أفصح لهم عن نيته زراعة قطعة أرضه التي يعرفونها تمام المعرفة، وأنه بصدد نظافتها وحفر بئر فيها، وأنه ذاهب إلى ابني عميه (حمادة) صاحب ورشة الحدادة، و(الوافر) صاحب السواقي، الذي يعرف كل واردة وشاردة عن فنون الزراعة، تحضير الأرض، زراعتها، وتسويق إنتاجها. ذهب أولاً إلى حمادة، تحدثا طويلاً في شأن زراعته المطرية التي باشرها في قطعة الأرض، وأنها تحتاج لأكثر من شهرين حتى يحين أوان حصادها، وأن تنفيذ فكرة زراعة نفس الأرض وسقيها من حفر بئر بمضخة غاطسة من الصعب أن ينتظر كل هذا الوقت، وبعد أخذ ورد قبل على مضض مقترح قلع الزرع من جذوره، معه حق فهو قد بذل

جهوداً جبارة، وأنفق مالاً مقدراً، وبنى قصوراً في الرمال، وفي لمحة بصر يضيع منه كل شيء، طبعاً هذا فوق طاقة احتماله. ودعه وذهب إلى الوافر، تحدثا طويلاً عن الفكرة، وجدواها وإمكانية تنفيذها، بحكم تجاربه السابقة طمأنه بأن هذا المجال ربحه مضمون، وهو تحت خدمته ولن يبخل بمعرفة أو جهد أو وقت في سبيل تنفيذ الفكرة، والمطلوب أولاً وأخيراً رأس المال، تكلفة البئر كاملة بمضختها وتوصيلاتها ومفاتيحها تحتاج على أقل تقدير إلى تسعمائة ألف جنيه، قطع شجر الموسكيت وحرقه يحتاج إلى مائة ألف جنيه، تسوية الأرض ونظافتها وحرثها يحتاج إلى مائة ألف جنيه إضافية، تناول معه وجبة غداء دسمة، ودعه وشكره على مشاعره الطيبة، وكلماته الصادقة، وأن الأخ والصديق الحق يعرف فعلاً وقت الضيق. صلى صلاة المغرب جماعة بمسجد أولاد يسن، بعد الفراغ من الصلاة صافحهم وعانقهم جميعاً فهم إما أنداده في سنه أو أكبر سناً منه قليلاً. ولحسن حظه كان من بينهم (إزيرق) رفيق دراسته وصباه، بيتهم مجاور لبيت عمه (عشرية)، يفصل بينهما شارع ضيق، مات عمه، ومن بعده مات بيته، نصفه وأكثر أرض فضاء تحفها أسوار مهدمة، وما تبقى منه ديوانه الذي بناه، وأشجار دوم ونخيل وليمون وجوافة غابة ملتفة تظلل المكان، تفرق الأولاد والبنات في أرض الله الواسعة، وبقي البيت يحكي عن ماضي جميل، كان عامراً بالحياة، عامراً بالضيوف، عامراً بأحداث كثيرة، أفراح حفلات أعراس وطهور، ورقصات زار، ومآدب لا تنقطع، وأحزان ومناحات لفقد أحباب. عادت به ذكريات هذه الحرب المدمرة المرة إلى ابن عمه (عشريه)، الذي ورث نفس اللقب عن أبيه، تغرب في الشرق والغرب، هاجر إلى ليبيا، ثم إلى دول الخليج، أفنى زهرة شبابه هناك، وعنَ له أن يستريح من تعب الدنيا، جمع كل ما رزقه الله وعاد إلى حضن وطنه العزيز، بنى بيتاً يشار إليه بالبنان في بحري بالقرب من مشفى شرق النيل، البدروم به أثاث يكفي لحجرات ثلاث طوابق من المبنى الذي انتهى منه

طابق واحد، ظل يسكنه قبل أن يغادر إلى البلاد التي كان مغترباً بها ليكمل بعض الإجراءات لأن صلته بها لم تنبت بالكامل، ونشبت الحرب اللعينة وهو هناك، وبعد مدة جاءته الأخبار من بعض الجيران الذين لم ينزحوا بعد، أن الجنجويد نهبوا بيته، لم يتركوا فيه شيئاً يذكر، الأثاث الذي استعصى عليهم حمله ونقله دمروه، حطموه كما حطم سيدنا إبراهم عليه السلام أصنام المشركين. دعاه إزيرق وألح عليه في أن يدخل بيته ويشرب معه كأساً من الشاي، لم يخيب ظنه، لاحظ لوحة طاقة شمسية كبيرة موضوعة فوق سقف إحدى الغرف، دخل من باب صغير يفتح على سقيفة جميلة، على أطرفها أسرة عليها فرش وملايات موشاة بصور أزهار حلوة، وشباب في عمر الزهور، منتفخون قوة وفتوة، جالسون في وسطها يلعبون ورق الكوتشينة، وآخرون جالسون على الأسرة يتنظرون دورهم ليشاركوا في اللعب بدلاً عن المغلوبين، عرفهم به، صافحوه مصافحةً أي كلام، نوع من أداء الواجب، وهم في لاهيتهم منغمسون إلى أذنهم، مغيبون لدرجة تجعلهم لا يحسون بما يجري من حولهم، وفي الركن جهاز تحكم في الطاقة الشمسية، خاضا في ذكريات عهد الصبا، أيام كان يا ما كان يحلو السمر تحت ضوء القمر، أيام شليل وينو أكلو الدودو، شليل وين راح أكلو التمساح، حكى له إزيرق عن مشوار حياته الذي مشاه، طلق مهنة التدريس طلاقاً بائناً وهاجر إلى ليبيا القذافي، مكث فيها ما شاء الله له أن يمكث، ثم غادرها إلى مالطا، ومنها إلى إيطاليا، عمل في مزارعها الخصبة، في قطف العنب وحمله ونقله للشاحنات، كانوا يمنحون المسكن والطعام بالإضافة إلى راتب مقابل العمل، بعض الإيطاليين استغلوا العمال المهاجرين، سكنوهم في خيام ومنازل مؤقتة (غيتو)، عيشوهم في ظروف سيئة تفتقر لأبسط الخدمات الأساسية، يجبرونهم عل العمل لساعات طويلة مقابل أجور زهيدة، في أشياء كثيرة غير مريحة هناك، طبعاً العنب ده ينقلوه إلى معامل عصر النبيذ، يعني بالواضح صناعة الخمور، وفي مزارع تربي

الخنازير، حيوانات خبيثة قذرة تعيش على الأوساخ والقاذورات، حرم الدين أكل لحمها، في نهاية المطاف لم ترق له الحياة هناك، عافها تركها وعاد مرة أخرى إلى مهنته السابقة، ودعه وداعاً حاراً بعد أن رشف بمزاج رائق الشاي الأحمر الظريف وما زالت آخر كلماته ترن في أذنيه:

(الكهرباء هنا ساعات قطعها أكثر من ساعات وجودها، أحياناً تقطع لأيام عديدة، لا تتردد في أي وقت، لنا الشرف أن تشحن بطارية هاتفك عندنا).

دلف في طريقه على بيت المبروك (البدوي) ابن خالته، طويل نحيل باسم الوجه لا يهتم بأكله ولا ملبسه، له طباع وهوايات عجيبة، راهب يسكن في صومعة، يسكن وحيداً متوحداً بعد رحيل أمه الطيبة التي لم يسمع منها أحدٌ أبداً كلمة جارحة، وأبيه الفكي الوقور، ، كثير التعبد والخشوع قليل الكلام، رحلا في سلام عن هذه الدنيا الفانية وتركاه وأخت وأخوين، ورث منهما كل خصالهما الحميدة، مكث في بيتهما لحاله، أخته مع زوجها وأخواه أحدهما له بيت منفصل والآخر في أم درمان التي كانت بلد الأمان، والآن بلد القتل والطعان، يقضي أيامه بين صنعته التي يتقنها اتقاناً يفوق حد الوصف، ضرب بلوك البناء بماكينات صغيرة يمتلك منها اثنتين أو ثلاثة، ومطاردة بهائمه التي ترعى طرف البلد أو في الجوار، وكثيراً ما ضاع منها ما ضاع وسرق منها ما سرق، بيته مكون من غرفة واحدة ودورة مياه، بيتهم القديم تهدم وطينه سوته الأيام بالأرض، كل ما في هذه الغرفة فراشه، وأواني طبخه، وكتبه، ومصحفه، وشاشة عرض تلفزيوني أحضرها له أخوه (فتاح) هدية من السعودية بعد أن عاد من مشاركته هناك ضمن قوات عاصفة الحزم، بابها مغلق بدون قفل، أما باب السور الخارجي مغلق بجنزير عليه قفل

معطوب، أعواد أشجار طويلة وقصيرة مكومة هنا وهناك، ألواح زنك قديمة بعضها مسند بشعب على السور من الداخل، وبعضها مرمي في الفناء، شجرة ليمون غير مشذبه أغصانها متدلية تلامس الأرض، سرير قديم مرمي تحتها، البيت من ثلاث جهات مسور بأغصان وأشواك أشجار الموسكيت، ومن جهته الرابعة مبني بالبلوك، تمرح في الداخل نعاج وحملان وأغنام ودجاج وكتاكيت، فهو مولع بتربيتها، يشتري البهائم الهزيلة بأثمان بخسة ثم يقوم برعايتها وتسمينها وعرضها مرة أخرى للبيع، أما الدجاج يخرج من البيت وقتما يشاء، سور الموسكيت لا يمنعه من الخروج، وقطعة الأرض المجاورة مهجورة، غابة من شجر الموسكيت، يتجول فيها بحرية مطلقة، بيض دجاجه متاح لكل من يرغب فيه، بلا مقابل، وبلا من أو أذى، يعطيه ومعه ضحكات بريئة، راوده أهله أكثر من مرة بالزواج إكمالاً لنصف دينه، ونسوا أن له فلسفة خاصة في الحياة، فهو حصور لا رغبة له في النساء، كل همه مصاحبة الدعاة وأهل التقوى والصلاح، والانكباب على قراءة كتبه الدينية التي ورثها عن أبيه والتي اقتناها بحر ماله، قرع على بابه، فتحه له وعلى وجهه نور وفتور وبدايات نعاس، دخل بصعوبة لأن أغصان شجرة الليمون تسد المدخل، جلس طرف السرير وجلس هو على كرسي متهالك، السماء صافية، لا فيها سحب ولا غمام، النجوم التي تزينها تتلألأ بوهج عجيب، أحضر ترموساً صب منه حليباً في كوب كبير، وبدأ يسأل أسئلة كثيرة عن الأهل هناك والحرب والجنجويد والجيش، والفحيل يكرر نفس الإجابات التي ملَ ترديدها على مسامع الناس، ولم يبق له إلا أن يرددها على مسامع الدواب، وحكى له هو عن أفعال الجنجويد هنا، وكيف أثاروا الذعر وسط الناس،

دخلت شرذمة منهم البلد بمساعدة طابور خامس من المتعاونين، وهم أرذل وأنجس أولاد البلد، دلوهم على بيوت التجار والموسرين، دخلوها وكانوا يسألون عن أصحابها بأسمائهم، ومرة أخرى جاءوا إلى تاجر بعينه، وهددوه بأنهم يعرفون الخزائن التي يضع فيها أمواله، وجاءوا إلى بيوت بعينها، أخذوا منها سيارات تحت تهديد السلاح، ومن بعدهم جاء أحد سفهاء قادتهم يدعى (برشم) جاء إلى هنا بتاتشرات قتالية واجتمع مع وجهاء البلد بالجامع الكبير وعرض عليهم الحماية، ولكنهم ردوه بشهامة وكبرياء وطلبوا منه مغادرة بلدهم، غادر وقد أضمر في صدره أحقاداً لا تنذر بخير، ومن يومها جدَ أهل البلد وحفروا الخنادق وترسوا المعابر، وصار الجنجويد كلما يأتون عابرين يهددون الناس بأن لهم يوم أسود لم يحن وقته بعد. وهو بدوره حكى له بأنه بصدد زراعة الأرض التي يعرفها، ويحتاج إلى خبراته ومجهوداته ومساعدته، وبوجه باسم وقلب طيب قال له: (أبشر بالخير، أنا من يدك دي لي يدك دي).

فتح باب الشارع الذي لا ينفتح إلا بعد دفعه بقوة، أصدر صريراً اقشعرت منه مسامع الجيران، وجد أهل بيت خالته مستلقين على أسرتهم، تحت ناموسياتهم، التي تدرأ عنهم شر الناموس، أمه استسلمت لسلطان النوم، خالته تترقب عودته لتقوم نحوه بواجب الضيافة، الأطفال ناموا بعد نهار طويل قضوه في لعب وجري وعراك، حكى لخالته بكل ما جرى له في ذلك اليوم، وأن معدته مليئة بالطعام والحليب ولا تنقصه إلا نومة هادئة.

تخفف من ملابسه، استلقى على سريره تحت ناموسيته، ودارت في رأسه هواجس وأفكار:

(مليون ومائة ألف جنيه مبلغ كبير، من الصعب تدبيره جملة واحدة، البنوك مغلقة بالضبة والمفتاح بعد أن نهبها ودمرها الجنجويد، ومد اليد إلى أولاده طامة كبرى، حاول أن يتحاشاها بقدر الإمكان، والأهل والأقارب كل في شأنه، كل منهم يبحث له عن مغيث ومعين، إنه يؤمن في قرارة نفسه أن عمل الخير يبدأ بخطوة، والباقي على رب العالمين، ويؤمن أن الله منحه نعمة العقل، وما عليه إلا أن يستغلها لأقصى حد، بالعقل يمكنه أن يقرب البعيد، وأن يجعل الأحلام حقيقة معاشه واقعة، ويمكنه أن يحول ما هو معدود من المستحيلات إلى ممكن، وما هو محسوب بتكلفة عالية يمكنه تقليصها إلى النصف، وأن يركز على ما هو ضروري ويهمل ما هو ثانوي، وأن يستغل كل الموارد المادية والبشرية المتاحة صفرية التكلفة، وأن يبحث عمن يعطيه بالدفع المؤجل، وما عليه إلا أن يبدأ بالخطوة الأولى، وكل خطوة تتلوها خطوة، حتى الوصول إلى نهاية الطريق، وبلوغ هدفه الذي يمكن تحقيقه بمثابرة وثبات إرادة).

(١٥)

مضت أيامه بخطى ثقيلة، العمل يقتل الوقت، وعدمه يطيل الوقت، خصوصاً لمن عود نفسه على بذل جهد وعطاء، ما كان الفحيل يجلس على كرسي تحت ظل شجر، يحكي لجلسائه من أصحابه عن بطولاته وانجازاته عبر سنوات عمره المديد، وما كان يندب حظه العاثر الذي أوجده في بلد موسوم بالتخلف لا يهتم بشؤون متقاعديه الذين أفنوا زهرة شبابهم في خدمته، أكلهم لحماً ورماهم في قارعة الطريق عظاماً، وإنما كان يعمل وينتج في ورشته الصغيرة التي أقامها في بيته، أدوات وأصباغ وغراء وجبس وكرتون، كان يبدع مزهريات جميلة يصنعها من الكرتون المقوى، كانت لها سوق رائجة، يطليها بمواد ثابتة، ينقشها بنقشات ساحرة، ويلونها بألوان في غاية الروعة والجمال، هذه الحرب دمرت كل شيء، أوقفت كل شيء، أصابت كل شيء بشلل تام، هنا في بلده التي أتى إليها مرغماً لا يستطيع أن يملأ فراغه بهذا الإبداع، لأن معظم مدخلات العمل غير متوفرة، ولأن الناس يواجهون صعوبات جمة في توفير ضرورياتهم فأنى لهم أن يفكروا في توفير كماليات ورفاهيات أصبحت كالأوثان لا تضر ولا تنفع، لذلك ظل يؤدي فرائضه الخمس في هدوء وطمأنينة وخشوع تام بمسجد فلاتة، يجلس مع الشيخ بينسون يجتران ذكريات حلوة جميلة عطرة مرت كما يمر السحاب والغمام، كلاهما في خريف العمر، العمر الذي يكون فيه الإنسان أبعد عن الدنيا وأقرب إلى الآخرة، في إحدى هذه الجلسات حكى له بينسون عن أيامه الحلوة، هل ينسى أياماً مضت، هل ينسى ذكراها، هل ينسى أياماً مضت فرحاً قضاها أثناء دراسته في الجامعة، التي تخرج فيها مهندساً معمارياً ذو آمال وأحلام عراض، لم يعمل في هذا المجال وإنما عمل في مجال هندسة الري بمشروع الجزيرة، وأنه تنقل في أقسامه المختلفة، تبوأ أرفع المناصب القيادية، وأنه تنقل في مدنه الكبيرة، ود مدني، المناقل،

والحصاحيصا، وأنهم كانوا يهتمون بدمج المعرفة الهندسية والتكنلوجية لتصميم أنظمة ري فعالة بحلول مبتكرة، وتقليل استهلاك المياه ورفع كفاءة الري ومواجهة التحديات المناخية والبيئية وأبرزها ندرة المياه، وهو وكل مهندسي الري امتلكوا مهارات عملية ومعرفة علمية لتوفير الاحتياجات اللازمة من الماء للنباتات والمحاصيل الزراعية، وذلك من خلال استخدام نظم وأساليب الري الذكية التي تعتمد على مراقبة وتحليل البيانات لتحديد احتياجات المياه بدقة وتوجيه توزيعها بكفاءة مما يقلل من الهدر ويحافظ على الرطوبة المناسبة في التربة، وكانوا يهتمون بتدريب العمال وتقديم أفضل المقترحات لاستغلال الموارد المائية وتنظيم مواعيد العمل والتنسيق بين مهام الري والزراعة المختلفة. دفن آماله وأحلامه العراض في ترع وجداول مشروع الجزيرة، «رحلت من قول لود سلفاب.. لألتقي بسابع الأصحاب، وصلته والقطن في الحقل نضر.. يروى من الخزان لا من المطر، أعجبني من احمد التفكير.. في كل ما يقوله الخبير...»، في كل موسم كان الزراع يحرثون يفككون تربة الأرض، يسوونها، يحددون أماكن الزراعة، ويختارون البذور، وهم يحددون لهم نظم الري ومصادر المياه، جدولة الري، يراقبون النباتات، تسميدها، وحصادها، وإزالة المحاصيل بعد نضجها، وفرزها إلى استهلاك أو تخزين، وأنه مع كل موسم يذهب شبابه، وتشحب نضارته، إلى أن ظهرت عليه علائم أعراض الشيخوخة، ثم جاءه الخطاب المشؤوم الذي ليس منه بد، هادم الملذات، الذي يذكره بالحكمة (من عاش مات، ومن مات فات، وكل آت آت)، إنه خطاب أدينا عرض أكتافك، الذي أنبأه بأنه كفارس عليه أن يترجل، ودع زملاءه والعمال والزراع في كبرياء، حزم أمتعته، وجاء بأهله وأولاده واستقر معهم هنا، في بلده مسقط رأسه، في بيته الذي بناه بحر ماله، كما مصطفى سعيد الطيب صالح طيب الله ثراه، أما الفحيل فحكى له بدوره عن رحلة طويلة، مليئة بأفراح وأحزان، وبإخفاقات ونجاحات، وجدها فرصة

سانحة، فضفض له عما يجيش بخاطره ويشغل باله، زراعة الأرض، وما يمكن أن يقدمه له من نصائح معرفية في هذا المجال، وعده خيراً وأنه تحت الخدمة في أي وقت شاء. وكما يقول المثل إذا كنت مع ناس في دارهم فدارهم وإذا كنت في أرضهم فأرضهم، لأهل بلده عادات وتقاليد طيبة لا يفرطون فيها أبداً، منها السير في الجنائز وزيارة القبور، جنائزهم كلها مهيبة، يُصَلون عليها في الجامع الكبير طرف السوق، وكل من في السوق إلا النساء والأطفال يمشون فيها، منذ أن وطأة قدماه تراب بلدته مشى في جنازات عديدة، لا يمر أسبوع أو أقل إلا وساكن جديد في طريقه إلى مقبرة البلد، (مقبرة أباب حمد)، وفي كل مرة من هذه المرات كان يزور قبر أبيه، ومقابر أقاربه وقريباته، يقرئهم السلام ويدعوا لهم بطيب المقام في روضة من رياض دار السلام، بحسنات مزيدة وذنوب مغفورة، ويغبطهم على ما هم فيه، لأنه بعدهم مع هذه الحرب اللعينة باطن الأرض خير من ظاهرها، كلهم مدفونون في ناحية واحدة في الجانب الغربي للمقبرة، يمر في كل مرة بذلك القبر الذي لن ينساه أبداً لأنه صرح فريد بارز يستدل به على تلكم القبور، قبر ضابط تركي مبني من رخام مصقول محفور عليه اسمه ورتبته العسكرية وتاريخ وفاته، المؤرخون يقولون أن الأتراك تزوجوا أو تسروا من بنات البلد، خلفوا منهن ذرية، ولما عادوا إلى بلادهم منعوهم بالقانون من إحضارهم معهم، فتركوهم في رعاية أخوالهم وخالاتهم وذهبوا بلا رجعة، وانقطعت بينهم كل الأسباب وصلات الأرحام، يمر بقبور كثيرة، مكتوب على شواهدها أسماء من تبلى أجسادهم فيها، يقرأ عليهم الفاتحة لأنه كان يعرفهم عندما كانوا يمشون وينطقون ويضحكون، المشيعون وسط القبور وهم يسترون الجنازة يبدون وكأنما على رؤوسهم تحط الغربان، يستشعرون بقلوب وجلة خائفة رهبة الموت، وحالما يعودون إلى أعمالهم وبيوتهم ينغمسون مرة أخرى بدون وعي منهم في ملذات الدنيا وتفاهاتها، «من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له

ولياً مرشدا» صدق الله العظيم، تفصل بين المقابر وطريق الإسفلت، طريق الصادرات من الناحية الغربية أرض فضاء كانت ساقية قبل أن تحولها الدولة إلى قطع سكنيه، وفي كل مرة كان يرى الجنجويد على متن سياراتهم القتالية ودراجاتهم النارية زاحفين شمالاً كجراد صحراوي لا يبقي ولا يذر، أو عائدين جنوباً محملين بغنائم منهوبة من بيوت الناس ومؤسسات الدولة، وينسى المشيعون ما هم فيه ويخوضون في مرارات الحرب، وأنها غضب من الله بسبب سوء أعمال الناس وبعدهم عن هدي قرآنه ورسوله، ومن عادات بلده تقديم التعازي والجود بالموجود في بيوت المآتم التي تعقب دفن الجنائز، مشى إلى هناك عدة مرات، يوم أول ويوم ثاني ختامي ينتهي بصلاة المغرب في جماعة وخطبة عصماء تمجد الميت وتذكر مناقبه عملاً بالقول أذكروا حسنات موتاكم، وتشكر جزيل الشكر كل من دفن وعزى وهاتف وتدعوا لهم ألا يريهم الله مكروهاً في عزيز لديهم، والمكروه مكتوب والموت مكتوب ليس منها فوت، أهل التقوى والصلاح يجلسون في صمت، يستحضرون حرمة الموت، يتذاكرون أنهم قريباً ميتون وبهم لاحقون؛ وأهل الدنيا في غيهم سادرون، يخوضون في لغو وإشاعات وغيبة ونميمة، وفي أخبار الحرب، من يبطن منهم في قرارة نفسه الأمارة بالسوء ميله للجنجويد يبرهن لهم أن كل المعارك التي دارت تشهد بأنه ما في جيش، ومن يحب وطنه يفند الأعذار لجيشه، وأن حربه ليست ضد جنجويد ملاقيط فقط، لو كانت كذلك لانتهت بنصر ساحق في أسبوع، وإنما ضد قوى ومخابرات عالمية صنعتهم وتمدهم بأسلحة فتاكة، إنهم في وادي والموت والميت في وادي آخر.

عرف في بيت خالته فتى اسمه (أبو القاسم)، لا قصير ولا طويل، في الثلاثينيات من عمره، وافر النشاط، يأتي إلى أمه، يسألها عن صحتها وأحوالها، وبعد أن يطمئن عليها يجلس معه ويؤانسه وهو يرشف قهوته التي لا يستحي أبداً من طلبها، حياته لا تستقيم ولا ينعدل رأسه بدون مادة (الكافيين) المنشطة فيها، أبداً لا ينطبق عليه المثل: (من يقول إنه يفهم في كل حاجة لا يفهم في أيتها حاجة)، لأنه فعلاً يفهم في كل حاجة، يأتي للبيوت لا حرج بينه وبين أهلها، يقلم ويقطع الأشجار، يحفر الحفر، لأنه ليس في البلد سيارات أو عربات كارو لنقل الأوساخ والقمامة وإنما يدفنونها فيها كما يدفنون موتاهم، يبني بالقش وبالطين، يصلح أعطال الكهرباء، يطعن حقن، يركب درب، يحلق الرؤوس، يعمل كل هذه الأعمال بمقابل زهيد وشعاره الذي يرفعه (الجود بالموجود)، سمعه يحكي عن أشياء كثيرة من ضمنها بندقيته الكلاشنكوف، فهو يحب الكلام ورواية الحكايات لحد الثرثرة، خصوصاً بطولاته التي سطرها بشجاعته بحكم عمله كحارس ليلي في مؤسسة حكومية، طلب منه الفحيل طلبين، الأول أن يعلمه فك وتركيب وتعمير وضرب السلاح، كان ملماً بكل ذلك أيام الدفاع الشعبي، أيام أن كانت للدولة هيبة، ولكنه نسيها مع مرور الأيام ، والثاني أن يذهب معه إلى الأرض ليقوم بقطع شجر الموسكيت وحرقه، بعد يومين أتاه حاملاً بندقيته، كرر له درس فك وتركيب السلاح عدة مرات، استرجع بصعوبة تلك الفنيات، ولكن خذلته لياقته البدنية، ما عادت له القدرة التي تجعله يمسك بالبندق بقوة ويفك أجزاءها في رشاقة كما كان في السابق، غلبه إخراج وإدخال ياي تعمير الطلقات، ومع ذلك ارتاح في قرارة نفسه أنه فعل أضعف الإيمان،

وإذا ما جد في الأمور جديد، ووجد نفسه أمام موقف يحتم عليه استخدام السلاح فهو جاهز نصف مويه ونصف نور؛ بعد بضعة أيام ذهبا إلى الأرض، عبرا خنادقاً وتروسا، عبرا شارع الإسفلت، وجنجويد ضباع مفترسة، رائحتهم نتنة، أنتن من جيف الحمير، لا تألفهم النفوس، ولا تطمئن لغدرهم ومكرهم، يزحفون شمالاً عطاشاً جياعاً، ويعودون ذاهبون جنوباً سماناً محملين بأموال وغنائم، عاين الشجر، وبقلب قوي وبلسان طويل قال: (غداً البداية، ويا شجر جاءتك النار، جاءك أبو فاس، للشجر كناس)، ذهب الفحيل إلى هناك بعد يومين، لم يجده ولكنه وجد غصناً واحداً من شجرة واحدة مقطوع مرمي على الأرض، ولما التقاه تعلل بأسباب واهية وأنه عائد إليها في الغد، ولم يأتي في الغد ولا بعد الغد، فهم الرسالة، أن الشجر فعلاً ملتف كثيف، ولا يقدر على إزالته إلا من امتهن هذه المهنة، واكتسب فيها خبرات تراكمت على مر السنين، وأن الرجل دخل في تحد فوق طاقته، ولا يريد أن يكشح الملاح ويكسر البرمة، وعى الفحيل الدرس، وجال في خاطره (من عقله في رأسه يعرف خلاصه)، صرف النظر عما عده عبثاً ومضيعة للوقت، واستيقن في قرارة نفسه ما عليه من الآن فصاعداً إلا أن يعطي الخبز لخبازه ولو يأكل نصفه.

(١٦)

انتقل الفحيل إلى ديوان بيت أولاد عمه، يفصل بينه وبيت خالته شارع ضيق، هنا في المجال وسع وهناك ضيق، هنا هدوء وهناك جلبة ولغط، وهنا شجرة ليمون معمرة مثمرة، غرستها زوج عمه في ستينيات القرن الماضي قبل رحيلها من الفانية إلى الدائمة، أوراقها خضراء، داكنة الاخضرار، أغصانها تتمدد تعانق السور، وتتدلى تعانق الأرض، وتعلو تعانق سقف حجرة الديوان، سماها ليمونة الجنة، في الصباح الأرض تحتها صفراء اللون لأن ثمارها الصفراء تساقط منها مع هبوب نسمات الصباح التي تجعل أغصانها تتمايل في روعة ودلال، وعند الضحى والظهيرة ظلها ظليل دائم، وعند المساء وهو يستلقي على سريره بالقرب منها تفوح منها روائح عطرية ليمونية تعبق المكان بعبق أسطوري، حينما يرنو إليها ببصره متغزلاً في جمالها وهو في حالة استرخاء تام تنتابه خواطر شتى، الحرب وما أدراك ما هي الحرب، حرب لم يشهد مثلها أولون، ولن يشهد مثلها آخِرون، أوساخ أنجاس أوباش حثالة يدعون أنهم مسلمين والإسلام منهم براء، في لذة شيطانية يقتلون وينهبون ويغتصبون ويدمرون، وفي أوهامهم وأهوائهم يعمهون، يظنون أن من مات منهم شهيدا، جزاؤه عند الله جنة خلد نعيمها لا ينفد، ولجهلهم وغبائهم وشركهم لا يعلمون أن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر؛ تتزاحم في صدره الوساوس، وفي رأسه الأفكار، شجرة الليمون المباركة همست له في أذنه: (لا تتردد، توكل على الله، الحي القيوم، مجري السحاب، ومنزل الودق من خلاله، والذي يخرج لعباده مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، أزرع أرضك، الخير في الزراعة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها)، ذهب إلى الوافر، أعطاه كل ما معه من مال، وقال: (فلنبدأ على بركة الله)، رد عليه: (الغد بإذن الله ضربة البداية)، وبالفعل جاء قاطعوا الأشجار بفؤوسهم وأدواتهم وحبالهم، رجل وولداه،

هذه مهنتهم توارثوها أب عن جد، تخصصوا في شجر المسكيت، قطعاً وحرقاً لفروعه، وحفراً وقلعاً لجذوره، وحرق ما تبقى منها في باطن الأرض، ومع ذلك قالوا: (المسكيت بالبوص، نبت شيطاني، عرقه دساس، شجر خبيث تمتد عروقه إلى مسافات بعيدة لا يضمنون عدم نبته مرة أخرى)، الفحيل يعلم حكاية هذا الشجر، جابوه فزع بقى وجع، أتوا به لمكافحة الزحف الصحراوي فانتشر كالنار في الهشيم، هدد النبات والإنسان والحيوان، أصبح في حد ذاته مشكلة تحتاج إلى مكافحة، بذرتها مغلفة بغلاف محكم غير قابلة للهضم، تخرج مع فضلات الحيوانات فتساهم في نشرها، أشواكها قوية تستطيع ثقب إطارات السيارات، تسبب جروح للحيوانات التي تتغذى عليها، فوائدها محدودة تنحصر في حطب وقود وفحم وأعلاف؛ قضى الحطابون قرابة الأسبوعين وهم في صراع مميت مع هذه الشجرة الشيطانية، أما هو فكان يخرج صباحاً من بيت خالته، يعبر المتاريس التي بدأت في التآكل، والخنادق التي بدأت في الانحسار، ربما لشعور الناس بشيء من الأمان، ولا يدرون أن الأمان مع الجنجويد ضرب من السراب، ما دخل السوق، إلا ومر بسوق دقلو، سوق الحرامية، لدقلو سوق في كل مدينة وفي كل قرية، فيه كل شيء، أدوات كهربائية، أدوات منزلية، مواد بناء، أثاث قديم وجديد، ملابس، أحذية، كل ما يخطر على البال معروض هناك بأسعار ما أنزل الله بها من سلطان، تثير العجب العجاب لبخسها وعدم معقوليتها، القاعدة الذهبية تقول:

(من يشتري المال المسروق من حرامي، ويعلم أنه حرامي، فهو نفسه حرامي)، والحرامية الذين يبيعون معروفون، فهم من أهل الضواحي، والمشترون أغلبهم من النساء، مصداقاً لقول رسولنا الكريم أن أغلب أهل النار منهن، في السر يتداول الناس في مجالسهم أن بعض التجار ضعيفي النفوس يشترون منهم بطرق ملتوية، عن طريق وسطاء ويخزنوها في مخازنهم بليل، لفت نظره

من بين كل هذه الأشياء المعروضة، منشار كهربائي قابل للشحن قاطع للأشجار، رآه هناك ونسيه مع ما نسي من منسيات لا أول لها ولا آخر، طيلة هذه المدة كان يرمق الحطابين بعينين متعجبتين، أبوهم في شجاعة منقطعة النظير يقتحم دغل الشجر الشائك، بدون أدوات سلامة، لا قبعة ولا نظارات ولا ينتعل حذاءً مطاطياً واقياً وإنما ينتعل شبشباً من البلاستيك تخترقه الشوكة كما تخترق حقنة الحكيم إلية المريض، شاكته مرةً شوكة، اخترقت شبشبه ونفذت إلى باطن قدمه، اقشعر لها بدن الفحيل، سلها في هدوء وواصل في عمله كأنه هش على ذبابة، رق لحاله وتذكر ذلك المنشار الكهربائي فقال له: (هناك منشار كهربائي معروض في سوق دقلو، اشتريه فهو سريـع ويغنيك عن تعب القطع بالفأس، وتكون لك ميزة تميزك على منافسيك من قاطعي الأشجار الآخرين)، كان رده مقتضباً ووافياً: (الله بيننا والحرام، كده نحن راضين ومبسوطين)، ولداه حالهم كحاله يسحبون الأفرع المجذوذة ويكوموها في وسط المكان، وكلما كبر الكوم يقومون بحرقه، فتتصاعد ألسنة اللهب ويتصاعد الدخان في عنان السماء، وفي مرة نزلت الأمطار، بللت الأفرع المقطوعة، ولكي يحرقوها أتوا بجالون بنزين من السوق، بدأوا في صبه عليها، خلص البنزين ولم تتقد النار، بدلاً من أن يذكيها أطفأها، لأنه مغشوش، زمن الحرب الغش وارد؛ انتهت هذه المرحلة بخيرها وشرها، وبدأت مرحلة نظافة الأرض، حفروا حفرة كبيرة عميقة ودفنوا فيها الأوساخ والحجارة. بدأ ماله في النضوب، توقف العمل فترة من الزمن، موسم الخريف مع جماله ورونق أزهاره لا يترك الناس في حالهم، لا يمضي بدون أن يخلف ذكريات مرة لا تنسى، أمراض الخريف، اشتكت أمه من حمى

تنتابها بين فينة وأخرى، ثم عافت الأكل، وازداد شحوبها، والأطباء تركوا البلد، خافوا على أنفسهم من الجنجويد من أن يأخذوهم قسراً لعلاج مرضاهم وجرحاهم، فعلوها من قبل أخذوا طبيبتين من مركز خاص لأمراض النساء والولادة وبعد أن عالجن لهم جرحاهم أعادوهن سالمتين من كل سوء، ومن رحمة الله بأمه وجود طبيب من أولاد الجيران لم يغادر بعد ولكنه يعد عدته للرحيل، بعد أن كشف عليها، كتب لها على ورقتين واحدة للمحاليل الوريدية والثانية للتحاليل المعملية، حمد الله أن الصيدليات ما زالت تعمل مع شح الدواء وغلائه، وهناك معمل خاص ليس ببعيد، معداته على قدر الحال ولكنها تفي بالغرض، أهل البلد يعرف بعضهم بعضا، لذلك ليس غريباً أن أتت الفاحصة إلى البيت وأخذت دم الفحص من أمه، قدرت ظروف الحرب، نتائج التحاليل أكدت ظهور الملاريا، مع المحاليل المائية وعلاج الملاريا والزيارات المتكررة من الطبيب بلغت العافية، ومع ذلك ضعفها وهزالها ظلا يزدادان يوماً بعد يوم بسبب قلة أكلها، الحمى عمت البلد، أقرب إلى الوباء، أودت بحياة عدد لا يستهان به من ضحاياها، ولكل أجل كتاب، قريبة له واحدة من ضحاياها، في ريعان شبابها، لزمت الفراش ليومين فقط، رحلت وتركت زوجاً وولدين بقلوب فطرها الألم ما فتئوا يغالبون الحزن ويذرفون الدموع، غالبية أهل البيوت رقدوا على فرش المرض، بسبب الملاريا، التيفويد، حمى الضنك، أو حمى مجهولة، وعلاجهم كله واحد محاليل وريدية مع بندول، لم تنجو زوجه مما أصاب الناس، فهي أصلاً تعاني من أمراض مزمنة، زيادة على فراقها لبيتها وأولادها، فكانت مصيبتها أكبر، أتوا لها بطبيب من أقاربها، هو

كذلك يعد عدته للرحيل خوفاً من الجنجويد، اتبع نفس الخطوات التي أتبعت مع أمه، والعلاج هو نفس العلاج محاليل وريدية مع بندول، قال في نفسه: (إذا استمر الحال على هذا المنوال، العلاج متوفر واحد، محاليل وبندول، سوف يأتي قريباً اليوم الذي يكتشف فيه الناس أنهم مضطرون للبحث عن الأدوية الشعبية والروحية، ويندمون على أنهم أهملوها ولم يطوروها كما فعل الصينيون)، ثم جاءه المدد من السماء، هيأ الله له الأسباب، وصلت تحويلة من الأولاد، أكمل حفر البئر بسلام، تدفقت المياه من خرطوشها بقوة، مياه عذبة فرات سائغ شرابها في أرض خصبة طيبة، نعمة ما بعدها نعمة، غمرته فرحة غامرة ولكنها ناقصة بسبب أن ما بقي عنده من مال لا يكفيه لشراء ذبيحة يذبحها شكراً لله على نعمه عليه، يدخل بها السرور في نفوس أصحابه ونفوس المساكين الذين أذلتهم الحرب. عقب الانتهاء بسلام من كل ذلك، أكملوا مرحلة حرث التربة وتسوية الأرض، ولم يبق لهم إلا الدخول في اللحم الحي، الشروع في الزراعة، الوافر عارف ببواطن الأمور، اختار صمداً مجرباً أميناً للمزرعة، دوغري عديل لا يعرف لف ودوران، جمل شيل حمار شغل، اسمه (أبوسيف)، أسمر اللون، قصير القامة، ممتلئ الجسم، صارم الوجه، قليل الضحك والكلام، الاتفاق معه بسيط جداً، كل المصاريف التي صرفت عدا حفر البئر وملحقاتها مناصفة بين الطرفين، يتم سداد نصيبه منها من مستحقاته لاحقاً، بعدها الإيراد الصافي مناصفة بين الطرفين. قاموا بتقسيم المزرعة إلى ثلاثة أجزاء، الجزء الأول والأكبر قسموه إلى أحواض، بينها جداول طولية، وفي بداياتها جدول واحد عرضي، في ساعات ريها يفتحون الجدول العرضي على جدول طولي، ويفتحون

الأحواض لينساب الماء فيها الواحد تلو الآخر، وهكذا يقفلون ويفتحون إلى أن يتم ري الأحواض جميعها، بذروا البذور، زرعوا هذا الجزء جرجيراً وملوخيةً ورجلة، قاموا بنفس الخطوات في الجزء الثاني وزرعوه فجلا، وتبعه الجزء الثالث الذي زرعوه جرجيراً ورجلة، الحكمة وراء زراعة الجرجير أنه سريع العائد، ثلاثة أسابيع ويدخل السوق، والمزرعة في بدايتها تحتاج لعائد سريع يعينها على الأقل لسداد ما عليها من ديون. داوم الفحيل على الذهاب يومياً إلى مزرعته، يعبر المتاريس والخنادق التي غمرها التراب، لا يمنعه هجير الشمس ولا المطر، ولا الجنجويد الذين يعبرون بشارع الإسفلت الذي لا مناص له من اجتيازه وهم يطلقون النار في الهواء من بنادقهم ورشاشاتهم إرعاباً وتخويفاً لأهل البلد، يجلس مع أبوسيف، يشد من أزره، يتبادل معه الأفكار، وولده (أمير) - الذي حرمته الحرب من مواصلة الدراسة في مدارس أصبحت مأوى لنازحين فروا من بيوتهم بسبب الحرب - يقرع الماء في الجداول، الفحيل حينما يكون هناك كأنما يتعبد في خشوع بقلب سليم في محراب أو صومعة، يتفكر في عجائب ملكوت الله، يتفكر في المياه وهي تجري في الجداول، ثم وهي تغمر الأحواض، ويتفكر في الأرض وهي تهتز وتربو، ثم وهي تنبت خضاراً بهيجاً يسر الناظرين.

(١٧)

وتمضي الأيام مشحونة بحزن وألم، والناس شغلهم الشاغل أخبار الحرب، ما زال مداوماً على الذهاب إلى مزرعته، لا يغيب عنها أبداً، يأتيها من بيت خالته صباحاً، يتفقد أحوالها ويحل مشاكلها، يتناول إفطاره الذي لا يناله تغيير أبداً، فتة فول مصري مع دكوة فول سوداني وزيت سمسم وبصل كور مع أبوسيف وولده، ويقفل عائداً إلى هناك عصراً، وداوم كذلك على أداء صلاتي الظهر والعصر في الجامع الكبير، فهو الأقرب من دون المساجد إلى مزرعته، يمتلئ داخله وباحاته بالمصلين من أهل السوق، فهم مع تكالبهم على الحياة وحبهم لزينتها من مال وبنين لا يفرطون في صلاتهم أبداً، عندما يؤذن الأذان يتركون كل شيء ويهرعون نحو الجامع، يتكدسون داخل الحمامات وأمام ميضأتين منفصلتين، بعد صلاة الظهر يتحدثون عن شئون كثيرة، منهم من ينبري ليتحدث عن أمور دينية، ربما تكون خلافية، فيعم هرج ومرج، متناسين قدسية المكان، والدعوة إلى سبيل الله بحكمة وموعظة حسنة، وبدلاً من حب وإخاء تعم شحناء وبغضاء، في وقت هم أحوج فيه إلى وحدة ولم شمل لمواجهة خطر الجنجويد المحدق بهم من كل الجهات، ومنهم من ينبري ليتحدث عن الجنجويد وأنهم بلاء ماحق، ولا بد من التعامل معهم بحذر، ليكفوا البلد شرورهم، وأنه بعض السفهاء الطائشين من أولاد البلد يتحرشون بهم، سبق لهم أن جمعوا الناس بعصيهم وعكاكيزهم وسيوفهم وسكاكينهم وقفلوا بهم طريق الإسفلت، وكذلك عندما تعطلت سيارة لهم تحمل غنائم قاموا بحرقها ونهبها، إنهم ينهبون سياراتهم المحملة بالغنائم عندما تقف لأي سبب من الأسباب، ويحدث هرج ومرج داخل الجامع بين مؤيدين ومعارضين، وكثيراً ما همس الفحيل في أذن المصلي الذي يجلس بجانبه: (الجنجويد شر مستطير، ما دخلوا مكاناً إلا وعاثوا فيه فساداً، يقتلون، يغتصبون،

ينهبون وأحياناً يحرقون، يدمرون حياة الناس بالكامل، هؤلاء المصلون، أليست لهم قلوب يعقلون بها وأعين يبصرون بها، ألا يرونهم وهم ينقلون كل شيء نافع وغير نافع في مدن العاصمة إلى قراهم وفرقانهم، وأم روابة والرهد ومدن وقرى في كردفان ليست منهم ببعيد، بدلاً من أن يعدوا لهم ما استطاعوا من عدة يتجادلون كأهل بيزنطة والعدو بين أظهرهم ومن أمامهم وخلفهم)، ولا ينتظر منه جواباً، يغيب عنه وعن الجامع وعن المصلين، تعود له عادته التي لا تفارقه أبداً، يسرح ما شاء الله له أن يسرح، يتماهى مع خواطره ما شاء الله له أن يتماهى، مزيـج من هروب من واقع، بحث عن نور في ظلمات، تلمس لطريق في متاهات، هو نفسه لا يعرف لسرحانه كنهاً، صرخ صوت في داخله: (أينما تحل كارثة في بلد ما أبحث عن الرجل الأبيض، إما يديرها بنفسه أو بمن ينوب عنه، الهنود الحمر عاشوا في أمريكا قبل كولومبس بسنوات طويلة، تعلموا الزراعة وكانت لهم حياة روحية راقية، جاء إليهم البيض محملين بفكرهم الاستعماري الاستبدادي، أبادوهم، قتلوا النساء والأطفال والشباب، دمروا الأخضر واليابس، سمموا الآبار وذبحوا الماشية، وما كان على الهنود إلا أن يبرموا مجبورين سلاماً معهم، ولجأ البيض إلى المكيدة، أقنعوهم بأنهم كحسن نية سيمدونهم بأغطية لحمايتهم، ولكنهم كانوا يضمرون حرباً بيولوجية، الأغطية كانت من مصحات أوبئتهم، محملة بأمراض وبائية مستعصية، طاعون، دفتريا، جدري وغيرها، لأجل حصدهم في وقت قصير، بذلك تمكنوا من إبادة ثمانين في المائة منهم، عرض قادة جيوش البيض مكافآت مالية مقابل عدد رؤوسهم المقطوعة، رأس الرجل بمائة جنيه إسترليني، والمرأة أو الطفل نصف ذلك، ثم تطور الأمر بمضاعفة المكافآت مقابل سلخ جلودهم، مائة وخمسين عاماً من القتل الوحشي والهمجي والتهجير القسري، لوثوا لهم الطعام والمياه حتى لا يستطيعوا الانجاب، سخروهم لأعمال البناء والتشييد دون مقابل، أطعموا أطفالهم للكلاب، عدد قليل منهم

حالياً يعيشون في أمريكا الشمالية، في محميات مخصصة لهم دون توفير أدنى وسائل معيشة آدمية لهم، لأنهم وقعوا على معاهدات تحكمهم أن يعيشوا هكذا مقابل التنازل عن أراضيهم وقراهم التي عاشوا فيها من قبل. البيض النازيون الألمان ارتكبوا جرائم حرب منظمة، نهب، اغتصاب جماعي، سخرة، قتل أسرى، إبادة جماعية، محارق بشرية، دعارة عسكرية، رق جنسي، بغاء قسري، تجارب على الأسرى من البشر بدلاً من الفئران، اختبارات ارتفاعات شاهقة، شرب ماء بحر وتجميد، حرب بيولوجية، نشر مسببات أمراض وبائية بشرية، طاعون، جمرة خبيثة، كوليرا، وتيفويد، ونشر مسببات أمراض حيوانية، ونشر آفات زراعية. البيض الأمريكان في فيتنام أشعلوا حرباً امتدت لمدة عشرين سنة، طرفا الحرب فيتنام الشمالية والجنوبية، الشمالي يدعمه الشيوعيون وحلفاؤهم، والجنوبي يدعمه الرأسماليون الولايات المتحدة وحلفاؤها، كان عدد القوات الأمريكية أقل من ألف جندي قبل بداية الحرب، وظل العدد في تنامي مستمر، ثم زاد العدد على ثلاثة وعشرين ألفاً في عهد كينيدي، وإلى مائة وأربعة وثمانين ألفاً في عهد جونسون، اعتمدت القوات الأمريكية على التفوق الجوي والقوة النيرانية الهائلة، في بداية الحرب كانت أسلحة الجيش الفيتنامي الشمالي بدائية وذات جودة متدنية، ولكن بعد ذلك أصبح يملك أسلحة متطورة ومركبات مدرعة بشكل متزايد، تضخمت قوات الفيت كونج، تسلحوا ببنادق أيه- كيه -٤٧، نمت أعدادهم من خمسة آلاف إلى حوالي مائة ألف جندي، ثم وصلت إلى ما يقرب المليون، استخدموا تكتيكات الكر والفر وحرب العصابات، تغيرت السياسة الأمريكية من ترك شأن هزيمة الشيوعيين إلى حكومة فيتنام الجنوبية إلى القيام بذلك بنفسهم، نتيجة للحرب بلغ عدد اللاجئين في فيتنام الشمالية أكثر من مليونين، ونتيجة للخسائر الكبيرة للأمريكان في الحرب طالب الشعب الأمريكي حكومته بوقف الحرب، فسحبوا جنودهم من هناك وانتصر الشعب الفيتنامي.

البيض الروس في أوكرانيا هجموا على المناطق المدنية، قصفوا المباني السكنية، استخدموا المدفعية، والصواريخ الباليستية والأسلحة المتفجرة ذات الدمار الواسع في مناطق مكتظة بالسكان، دهسوا وسحقوا المركبات المدنية بالدبابات في الطرق الرئيسة، هجموا على المراكز الصحية والمستشفيات وسيارات الإسعاف والعاملين بها، استخدموا الأسلحة العنقودية المحظورة ذات الخطر المباشر والطويل الأمد على المدنيين، استهدفوا المدارس ودور الحضانة، ودور الأيتام، أفشلوا محاولات إنشاء ممرات إنسانية لإجلاء المدنيين، استخدموا الذخائر الحرارية وأجهزة التفجير التي تعمل بالوقود والهواء أو الفراغية ضد المدنيين، استهدفوا محطات الطاقة النووية مما يزيد من احتمال حدوث كوارث نووية، حاصروا المدن ومنعوا وصول المساعدات الإنسانية لهم مع نقص حاد في الغذاء والماء والدواء، ومنعوا سكانها من الخروج، استخدموا متفجرات مخبأة في لعب أطفال وهواتف وأشياء ثمينة، ارتكبوا أعمال إبادة جماعية وجرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب. الصهاينة البيض في غزة، توغل جيشهم برياً داخل القطاع، مع غارات جوية وقذف مدفعي وهجمات صاروخية، استخدموا قنابلاً منزلقة أمريكية الصنع وهو نوع من الأسلحة موجهة بدقة تطلقها الطائرات الحربية، قتلوا أكثر من أربعين ألف فلسطيني من بينهم أكثر من ثلاثة عشر ألف طفل وتسعة آلاف امرأة، وسبعة ألف شخص في عداد المفقودين، وعدد الجرحى يفوق السبعين ألفاً، ربما لقوا حتفهم تحت أنقاض المباني المدمرة، اسقطوا تسعة وعشرين ألف قذيفة على غزة، دمروا دور العبادة مساجد وكنائس، دمروا وألحقوا أضراراً بسبعين في المائة من المنازل، دمروا مئات المعالم الثقافية، والمتاحف والمحفوظات، سرقوا الأموال والذهب والتحف، دمروا الجامعات والمدارس، دمروا المكتبات والأرشيف المركزي، وألحقوا أضراراً بعشرات المقابر، بسببهم انهارت الرعاية الصحية، قتلوا المرضى

والأطقم الطبية، نقص حاد في الغذاء المياه النظيفة والأدوية والوقود بسبب الحصار، انقطاع التيار الكهربائي والاتصالات، ظهور شبح المجاعة، لا يوجد مكان آمن في غزة، قتلوا المدنيين على نطاق واسع، هجروا السكان واحتجزوا بعضهم، اطلقوا النار على المركبات المدنية، اكتشفت مقابر جماعية، بعض الجثث بدون رؤوس، وأجساد دون جلود وبعضهم سرقت أعضاؤهم، أجلوا السكان والنازحين من منازلهم، نهبوا بصورة واسعة الممتلكات والأغراض اليومية ولم تسلم حتى أجهزة الحاسوب، خلفت حربهم نحو أربعين مليون طناً من الركام وفيها كثير من المواد الخطرة على حياة الإنسان وهو ما يحتاج لنحو خمسة عشر عاماً لإزالتها، إعادة إعمار القطاع يحتاج إلى ثمانين عاماً لاستعادة الوحدات السكنية المدمرة. الجنجويد لم يتوانوا عن فعل كثير من هذه الفظائع، لأن من يدير حربهم من على البعد هو نفس الرجل الأبيض، عبر خدامه وعبيده من عرب وعجم. هذه الشعوب المغلوبة على أمرها التي لم تسلم من خبثهم ومؤامراتهم، الذين تخاذلوا منهم ورضخوا وانبطحوا وجبنوا وفروا من بيوتهم كما تفر النعام لصفير الصافر، أكلوهم كما يأكلون لحم خنازيرهم المحببة لديهم، وشربوا من دمهم كما يشربون نبيذاً معتقا، عيشوهم منكسرين ذليلين، لن تقوم لهم قائمة إلى يوم الدين، ومن قاوموا، جاهدوا بأرواحهم وأموالهم في سبيل حقوقهم، ولم يترددوا ولم يتراجعوا، ولم يلينوا أو يهادنوا، حطموا كبرياءهم ومعنوياتهم ومرمطوهم بالتراب بفرق فدائيين، فرق موت، فرق انتحارية، فرق ألغام بشرية، فرق ضفادع البشرية، فانتصروا، عاشوا أحراراً مرفوعي الرأس كشم الجبال، لا تحرك فيهم الرياح ساكناً)، وحالما يكتشف أن الجامع قد خلا من المصلين يلملم أطرافه وينسحب خارجاً في هدوء؛ في ذلك اليوم تثاءب تثاؤباً متكررا، شعر بأن الوسن بدأ يدب في عينيه، جرجر رجليه في تثاقل، ولشعوره بتعب وإعياء مفاجئ بدلاً من أن يعود لمزرعته وجه وجهه شطر ديوان أولاد عمه، استلقى على سريره تحت ظل

سقيفة قديمة، قش سقفها كثيف في مكان وخفيف في مكان آخر تتخلله أشعة الشمس الحارقة، لا يفصل بينها وبين ليمونة الجنة سوى أذرع قليلة، راح في سابع نومة، وإذ بجلبة وعياط أطفال يوقظه من نومته التي لم يهنأ بها طويلاً، جاءهم (أبو البشر) ابن عمه الذي كثيراً ما كان يأتي لزيارتهم وبمعيته أولاده، يعمل هو وزوجه في مؤسستين حكوميتين، ومع الحرب لا مؤسسات تعمل ولا مدارس مفتوحة ولا يحزنون، في أثناء تناولهم لوجبة الغداء أفضى لهم بما يخفيه في صدره بأنه في الأيام القليلة القادمة مغادر إلى ود مدني، حيث رتب للسكن والعمل له ولزوجه والمدارس لأولاده، في ساعات الحرب لا أحد يعلم ما إذا كان قراره صواب أم خطأ، لأن حسابات الحروب متغيرة غير ثابتة، فيها تقهقر وتقدم، وسيطرة وانسحاب، لذلك اكتفى الفحيل بأن يدعوا لهم وهو يودعهم بأن يحفظهم ويرعاهم الله في حلهم وترحالهم وفي غربتهم.
ذهب إلى صلاة المغرب في مسجد فلاتة، بعد الصلاة جلس مع الشيخ (بينسون) الذي بادره سائلاً:
- (ماذا بك يا رجل، نحل جسمك واصفر وجهك، وكيف حال أمكم؟).
رد بنبرة لا تخلو من رضا قائلاً:
- (يا أخي ضغوط الحرب منعتنا النوم من كثرة الهموم، أما أمي حالها متأرجح بين عافية ومرض لضعف مناعتها وكبر سنها).
- (وكيف أخبار المزرعة؟).
- (الحمد لله، ربنا وفقنا، وخضارنا دخل السوق، وبنينا قن للدجاج، والدجاج فقس البيض، وحضن البيض، وفي انتظار الكتاكيت، وذقنا طعم القروش، وأنتم أخباركم وأخبار الجماعة كلهم شنو؟).
- (مبروك، ألف مبروك، لكل مجتهد نصيب، فكروا في حملان وسخلان للتسمين، لكن لازم تفكر كذلك في حاجتين، الطاقة الشمسية لأنه الكهرباء العامة غير مضمونة، والري بالتنقيط، وهو غير مكلف عبارة عن خراطيش بلاستيكية، أما أخبار أهل البيت

كلهم بخير، تأقلموا مع ظروف الحرب، أما أخبار الجماعة في خبر طازج يمكن تكون لم تسمع به بعد، صاحبنا شعبان إنت عارف إنه طموح مُطلع لا يحب القعاد في الأرض لازم يطير في السماء، ركب عربيته الكركوبه الحضرت عرس حبوبه ومشى على جبرة الشيخ عشان يجيب بطيخ، سمع إنه البطيخ هناك رخيص، حسبها غلط إنه ربحه مضمون، نسي إنه الحرب مدورة، اشترى البطيخ وعبأ الكركوبه، نسي أن جبرة الشيخ يحتلها جنجويد، لأنها محطة رئيسة لشارع الأربعين الرابط بين شرق ووسط البلاد وغربها، سوق للمحاصيل والماشية، مركز حضري للرحل والرعاة بالمنطقة، تتوسط خط إمدادهم من ليبيا، ومخزن لمسروقاتهم من العاصمة، ومركز لتجميع المستنفرين القادمين من الغرب، وبالقرب منها مدرج لهبوط الطائرات، ومناجم للذهب، لذلك قاموا بقطع شبكات الاتصالات والإنترنت، ارتكبوا انتهاكات بحق المواطنين، مارسوا السرقة والنهب والاحتجاز، وأهل البلد مجبرون على مسايرتهم والتعايش معهم، ونسي أن سلاح الطيران لهم بالمرصاد، يشن غاراته عليهم من وقت لآخر، ولسوء حظه صادف وجوده هناك هذه المرة غارة جوية مدمرة، شاهد الدمار والجثث بعينيه، نجا من الموت بأعجوبة، لم يصدق، لسان حاله قال: (بلا حكي فاضي بلا بطيخ)، ما صدق المسكين أنه عاد سالماً بكركوبته بدون بطيخ).

- (يا شيخنا الحكاية شنو، في نفس الشارع، خضرجية راكبين حجوج ماشين سوق أم قرفة، جنجويدي راكب دراجة نارية آتٍ من الجهة المعاكسة، ما مفهوم الحاصل شنو، نصيح، مجنون، مهلوس، المهم دخل في مقدمة العربية على طول، طبعاً النتيجة معروفة، الموتر طار حديدة وراء حديدة، وهو قابل منكر ونكير، والمصيبة الأكبر واحدين من جماعته كانوا وراءه، الاشتباك قام فوق، عمروا سلاحهم واتهموهم بأنهم قاصدين يقتلوه، وأنه الحكاية ليست قضاء وقدرا، وإن كان كذلك فهم لا يؤمنون بقضاء ولا قدر، وربك

رب الخير حلال العقد جاب عرب ماشين بالشارع، دخلوا جودية بين الاثنين، وقالوا لهم الحكاية واضحة من شكل الحادث، زولكم غلطان ثم غلطان، وبعد شتيمة ونفخ ورصاص في الهواء وتحت الأرجل أخذوا فطيسهم ومشوا).

- (الجنجويد ديل ما بشر).
- (مش الجنجويد داعميهم والساكتين على جرائمهم هم ما بشر).
- (في دول كثيرة داعماهم بالأسلحة والمرتزقة).
- (أمس استلموا جبل أولياء، يعني النيل الأبيض والجزيرة في خطر).
- (يعني بالطريقة دي الدور ماشي عليهم).
- (ماشي يعني ماشي، الله يستر بس).

قطع أذان صلاة العشاء حبل حديثهم، بعد الفراغ من أدائها، جرجر رجليه ومشى في تثاقل صوب ديوان عمه، مرَ على الجماعة التي تجلس على الطريق قبالة ست الطعمية، قال في نفسه: (ما أكثر الجماعات الذين يجلسون الآن على الطرقات، يتحدثون في فاضي ومليان، الأجدر بهم أن ينخرطوا في صفوف مقاومة شعبية ويحملوا سلاحاً للدفاع عن شرفهم وبيوتهم بدلاً من أن يهربوا منها ويتركوها لقمة سائغة للجنجويد).

استلقى على سريره بالقرب من ليمونة الجنة، وهواء بارد محمل برائحة مطر ينعش روحه، وسماء ملبدة بغيوم، ولحسن حظه الكهرباء تضيء بضوء أصفر خافت، اغتنمها فرصة لا تعوض أمسك بهاتفه واتصل على عمه في التلال بحري:

- (السلام عليكم، أهلاً وسهلاً يا عم).

جاءه صوته ضعيفاً منهكا:

- (عليكم السلام، يا الفحيل، كيف أنتم والأهل).
- (كلهم بخير يسألون عن أخباركم المقطوعة منذ فترة طويلة).
- (حكايتنا طويلة، الحين أتحدث معك من الجزيرة (تمبول)، طبعاً الجنجويد اكتسحوا منطقتنا كلها، وكان خيارنا واحد قبل ما يدخلوا بيوتنا ويشوفونا نجوم السماء في القائلة نشوف لنا جهة نتلم

عليها، وطبعاً جهة أم درمان أو الخرطوم إذا طلع الجمل من خرم الإبرة يكننا الطلوع من هناك، ربك رب الخير هيأ لنا واحد عرفناه هنا من أولاد تمبول قال تعالوا مرحب بكم البيوت عندنا فاضية، وفعلاً مع أم العيال وبناتها وأحفادها وما خف حمله من متاع توكلنا على الله وذهبنا إلى هناك).

- (ده خبر عجيب، ربنا يحفظكم ويكفيكم شرور الجنجويد، بلغ سلامي لأهلك جميعاً ولأهل تمبول الطيبين).

- (يبلغ إن شاء الله، وطمئن الأهل علينا).

أغمض عينيه، أحس فيهما بوجع، بسخونة وحرارة، نيران تشتعل في عقله وقلبه ووجدانه، وطن يضيع، تذروه الرياح، مواطن يضيع مشرد في أصقاع الأرض، زاد لمعان البرق واشتد صوت الرعد، حمل فراشه ودخل داخل الغرفة المستطيلة المسقوفة بألواح الزنك، ومع نغمات زخات المطر وهي تساقط على الزنك، تنقره نقرات مموسقة، استراح بدنه المكدود، وسرح مع خواطره (لعنة الله على من أشعلوا هذه الحرب الملعونة، شردت الآمنين من ديارهم، أنا واحد منهم، أترحل ما بين بيت خالتي وأولاد عمي، وأبو جعران في بيته سلطان، ومن طلع من داره قله مقداره، عدد النازحين كبير جداً، وكل يوم في زيادة، المخطط كبير، تهجير الناس قسرياً من بيوتهم، والإتيان بعرب الشتات ليرثوهم وهم أحياء، تغيير سكاني مرسوم بدقة، النازحون يهربون من بيوتهم يبحثون عن أمن وأمان من جوع وخوف، عمه وأهله وجدوا لهم مأوى في تمبول، ولكن من أين لهم بالأرز، والعدس، والدقيق، والزيت واللبن، الأطفال لا يصبرون على طعام واحد عصيدة بملاح شرموط، وهم معذورون لأنهم لا يدركون ما يجري حولهم، لا

يدركون أن آلاف الأطفال مثلهم توفوا بسبب الجوع وعدم العناية الطبية، نعم بناته يتقن صناعة الحلويات والفطائر، ونقش الحناء والمكياج، تلك البضاعة لا قيمة لها في مجتمع ريفي، والمساعدات الإنسانية لا تصل إلى هناك، وأهل الخير يبذلون ما في استطاعتهم، وما في استطاعتهم قليل، عمه المسكين نفسه أبية، رجل كهل واحد وتحت كفالته وذمته ومسئوليته أكثر من عشرة أرواح، أنَى له أن يجد مصدر رزق يكسبه قليلاً من المال يغنيه عن هبات وسؤال الناس، له بنت حامل ببطن كبيرة، والمرافق الصحية دمرت ونهبت، والأدوية شحت، والأطباء قتل منهم من قتل، ورحل من رحل، مستقبلهم قاتم، يا الله له ولأهله السلامة، ولكل نازح وبائس تضرر من هذه الحرب).

نام، مات الموتة الصغرى، ارتاح بدنه، سكنت جوارحه، هدأت نفسه، راح عنه الأرق، وانزاحت عن نفسه هموم وغموم، وجنجويد السجم والرماد حزب الشيطان في غيهم سادرون، يقتلون وينهبون ويغتصبون، وحتماً إلى سعير جهنم سريعاً صائرون.

(١٨)

كان صباح خريفي جميل، لا يعكر صفوه إلا وابل طلقات تخرج في مجموعات من فوهات بنادق جنجويدية، هذه هي تحيتهم الصباحية لكل مخلوقات البلد وهم ذاهبون شمالاً ليقتلوا وينهبوا ويغتصبوا ثم يعودون بغنائم حللها لهم وثنهم الذي يعبدونه، شوشوا على نسمات الصباح، طردوا النوم من عيون الأطفال، طمسوا البراءة والطلاقة والبشاشة من وجوههم الغضة، أثاروا الذعر وسط الفراشات وهي تلثم الأزهار، نشروا الرعب وسط الأطيار وهي تحوم بين أغصان الأشجار، والناس في حيرة من أمرهم، طفح بهم الكيل، وما بيدهم حيلة غير أن يصبوا عليهم جام غضبهم لعناً في سرهم وجهرهم، ذهب إلى أمه، راقدة على جنبها الأيسر، فهي لا تستطيع الجلوس لوحدها إلا إذا وضعوا مسانداً خلف ظهرها، صاحية ومسبحتها في يدها، طردوا النوم من عينيها، سمعها وهي تدعوا عليهم بقلب أواه منيب:

- (يا الله، ويا رسول الله، ويا أنبياء، ويا صالحين، عذاب الله ينزل بالجنجويد في الدنيا قبل الآخرة، كثمود تهلكهم طاغية، أو كعاد تهلكهم ريح صرصر عاتية تجعلهم كأعجاز نخل خاوية، أو كأهل مدين تأخذهم صيحة فيصبحوا جاثمين).

- (يا أمي، الله يحفظك ويديك العافية، دعوتك دي بالدنيا كلها، بجيوش الدنيا كلها، بسلاح الدنيا كلها، إن أصابتهم إن شاء الله تمسحهم من على وجه الأرض، ما يفضل منهم واحد حي).

- (يا ولدي ديل زي النمل، النمل بموت، تقتلوا هنا، يظهر ليك من هنا، ديل بلاء من الله، وبلاء الله ما يزيلوا إلا الله).

- (يا أمي على الباغي تدور الدوائر، لهم يوم، قريب ما بعيد، وعد الله حق).

- (أمس قالوا قتلوا عيال من أولاد البلد).

- (القصة وما فيها يا أمي إنه ناس القوات الخاصة، ناس الجيش جاءوا من الأبيض، عندهم معلومة، واحدين من عيال البلد متعاونين معهم، يدوهم الأخبار، يدلوهم على محل العربات السمحة، وبيوت الناس أهل القروش، يسهلوا ويقدموا لهم بعض الخدمات، مثل تصليح السيارات، هجموا عليهم في ورشة من الورش، قتلوا اثنين جنجويدي وواحد ميكانيكي، وقبضوا متعاونين ساقوهم معهم).
- (كان من زمان ناس الجيش قلبهم حار ما كان خربوا الدنيا، أها أم أولادك أخبارها شنو، قالوا عيانة).
- (يا أمي، البلد دي ما نفعت معها، دائما تشتكي، ودائماً تعبانة).
- (وديها لعيالها يمكن أحوالها تتحسن).
- (وأنت أتركك لمن؟).
- (تتركني لي الله، كان يومي جاء إنت تقدر تصرفه عني؟).
- (يا أمي الله يعطيك الصحة والعافية وطول العمر).

ودعها ومشى صوب مزرعته، دلف في الطريق على أم عياله لكي يطمئن على أحوالها الصحية، وجدها مستلقية على سريرها وعبوة محلول وريدي فارغة تتدلى فوق رأسها، شعر بنوع من الانزعاج عليها لأن الحمى صارت تعاودها على فترات متقاربة، خاطبها بنبرة لا تخلو من خوفه عليها قائلاً:

- (يا حاجة سلامتك، الحكاية شنو؟).
- (الحكاية زي ما إنت شائف، ودوني لأولادي، كان مت نموت وسطهم).
- (يا حاجة الموت ما بقتل، بقتل الأجل).
- (أنا تعبت خلاص، أخصائيين ما في، دواء ما في، والسكري مرتفع، والنفس مسدودة من الأكل).
- (ما يصير إلا الخير، أصبري، شدة وستزول).
- (الحرب دي ما عندها نهاية قريبة، نتعايش معها، والجائي من الله كله سمح).

ودعها وودع كل من في البيت وغادر على عجل، في الطريق اعتملت في داخله هواجس كثيرة، (أمي صحتها متدهورة، وهي الآن في أمس الحاجة إلي، نعم مع أختها وفي وسط أهلها، ولا يبخلون عليها بشيء، ويبذلون لأجلها كل غالٍ ونفيس، ولكنها تشعر براحة وتتمسك بحياة في وجودي، تتنفس رئتاها هواءً بسهولة ويسر في وجودي، يضخ قلبها دماً بقوة عندما تسمع صوتي، تفرح لضحكي، وتبكي لحزني، أنا لها كل شيء، ضحت بشبابها من أجلي، نذرت روحها لسعادتي، زوجي كذلك صحتها متدهورة، عشنا الحياة معاً تقاسمنا حلوها ومرها، نكدها وسرورها، خطاً مشيناها، كتبت علينا، مشيناها خطوة من بعد خطوة، نتعثر حيناً، ونمشي بثبات حيناً آخر، رزقنا الله بأولاد وبنات، شمسان وقمران يضيئان لنا عندما تدلهم بنا الحياة، ونتيه في ظلماتها، هم لنا معين ومغيث بعد الله، أنا في حيرة من أمري، بعدي عن أمي في هذا الوقت لأي سبب من الأسباب غير معقول في نظري، وعدم مرافقتي لزوجي حتى تصل بأمان إلى أولادها ذنب لا يغتفر إذا ما أصابها مكروه لا قدر الله، فوضت أمري لله، هو حسبي، وعليه يتوكل المتوكلون).

عندما فطن إلى ما حوله وجد نفسه على مقربة من شارع الإسفلت الرئيس أمام الجامع الكبير، رأى مشهداً لن ينساه أبداً، سيارة من سيارات البلدية التي تعمل في نقل القمامة في العاصمة الخرطوم تتصاعد منها أعمدة اللهب وهي تنطلق بأقصى سرعتها نحو الجنوب وسيارة عسكرية تاتشر عليها ثنائي تطاردها، وقف مشدوهاً، التفت ناحية الشمال، رأى أعمدة دخان تتصاعد في السماء، حدثته نفسه بأن الأمر خطير، هناك حدث جلل، ما عليه فليذهب إلى مزرعته ويا خبر اليوم بفلوس بكرة ببلاش. أبوسيف وولده في أمان الله، وسط الخضار يستمتعان بنسيم عليل، وبرائحة خضار عطرة، وبأرض طيبة لينة رطبة، بمتعة عارمة يقلعان الخضار ويربطانه في حزم صغيرة وكبيرة، صبرا على سهره وتعبه، سكبا الجهد والعرق منذ أن كان بذوراً تحت الأرض إلى أن صار خضاراً يانعاً نضراً يؤكل، ذهب

أولاً إلى قن الدجاج، تفقد دجاجه، ديك القن طالع على غصن يابس مرمي في الداخل يصيح ويعوعي كما يحلو له، ودجاجات تحضن بيضها، وأخرى تشرب من الشرابة، وأخرى تلقط الحب من الأكالة، ابتسم ابتسامة رضا ومشى بين الأحواض فوق الجداول اليابسة نحو أبوسيف وولده، حياهما بوجه طلق وخاطبهما بنبرة فرحة قائلاً:

- (ما شاء الله، الخير باسط).

رد أبوسيف بنبرة أكثر فرحاً:

- (أول المطر قطرة، دي البدايات والجائي كثير).

- (هل محتاجين حاجة).

- (ما محتاجين، بارك الله فيك، وصوت ضرب النار شنو؟).

- (علمي علمك، لكن أنا شفته عربية مشتعلة فيها النار هاربة جهة الأبيض ووراها تاتشر جيش ما جنجويد).

- (حوض الجرجير بعناه في ألفين، والفجل في ثلاثة آلاف، الأسعار شويه ضعيفة لكنها سوف تتحسن).

- (يا زول كله خير).

ودعهما وقفل راجعاً إلى من حيث أتى، قبل أن يصل إلى شارع الإسفلت مر على ورشة (عريبي)، بينها وبين الشارع بنشر يقوم بإصلاح وملئ الهواء لإطارات السيارات وعربات الكارو والتك توك والدراجات النارية، وسوق صغير لحزم أعواد النيم والمسكيت والبرسيم وعلف الحيوانات، ربما يكون عنده الخبر اليقين، إنه النجار الذي أبدع في صنع باب قن دجاجه، باب من خشب وشبك سلك حديد وله قفل كذلك، وفوق ذلك اشترى منه برخص التراب خشباً مضغوطاً وحزم قش وشبك، كلها قديمة مستخدمة من قبل لقن دجاجه، رفيق صبا، غادر مع أهله البلد منذ وقت طويل، انقطعت أخبارهم، ثم ظهر على كبر، عمل جندياً، جاب البلاد طولها وعرضها، وبعد أن بلغ سن التقاعد عاد كما يعود الحبيب المنتظر، عادت

العرجاء إلى مراحها، ورشته اسم ورشة، سقيفة صغيرة من زنك فيها دولاب حديد يخزن فيه أدواته ومساميره، أمامها سور صغير من عيدان وشبك حديد، تبادلا التحية، حكيا عن شقاوة الصبا، عن قذف ثمر الدوم بالحجارة، وعن فلقات الرؤوس بذات الحجارة، وعن الذهاب بهم إلى المشفى للعلاج بدلاً من التمتع بكد الدوم، وعن صيد الطيور بالنبل، وعن سرقة بيض الدجاج، سأله عن الأحداث التي جرت اليوم، أجاب وكما قال العهدة على ذمة الراوي: (استخبارات الجيش بالأبيض جاءت إلى هنا وفقاً لمعلومات مسبقة وصلتها، تصدت لعدد من التاتشرات القتالية التابعة للجنجويد عند الكيلو عشرة، والدخان المتصاعد هو دخان سياراتهم المحروقة، وسيارة البلدية كانت مشحونة بالمنهوبات، فرت هاربة من ذلك المكان، وبعد مطاردتها لحقوا بها عند مصنع الثلج الذي نهبوا كل ما فيه والحمد لله تركوا مبانيه سالمة لم يدمروها، وهناك كانت نهاية الحكاية، مات من فيها وتحولت هي إلى حديد محروق، سيبقى شاهد من شواهد حرب تتناقل مآسيها الأجيال، جيل من بعد جيل، كمآسي عاد وثمود، كفروا بأنعم ربهم، فأذاقهم الله أشد العذاب في الدنيا قبل الآخرة، وكذلك نحن كل هذا بذنوبنا، إن لم نتب إلى الله توبة نصوحة لن يرفع عنا هذا البلاء)، كلماته الأخيرة ضربت الفحيل في رأسه كمن ضرب بمطرقة ثقيلة، هيجت عليه هلوسته، غاب في عالمه الآخر للحظات: (الناس في عموم البلاد انغمسوا في لذات الدنيا حتى الثمالة، نسوا أن هناك حشر وحساب، الربا أكلوه، تطفيف المكيال والميزان وفعلوه، الكذب والغش عندهم عادة غير مذمومة وإنما في عرفهم لعب بالبيضة والحجر، عبقرية وشطارة ونباهة، الخمر والسكر، والمخدرات وتغييب العقول، والميسر، كلها محرمات مباحة

يتغاضى عنها القانون، بل ويتعاطاها بعض من منفذي هذا القانون الكسيح، الزنا والبغاء والسفاح والشذوذ الجنسي موجود في علن وخفاء، أولاد الزنا لهم دور تأويهم، المغنون والمغنيات وأهل الطرب ضاقت بهم الآفاق، الراقصون يتثنون في ميوعة، والراقصات يظهرن مفاتنهن بلا استحياء ولا خجل، والناظرون بهم فرحون وفي سكراتهم يعمهون، من أمر بمعروف ونهى عن منكر قل أدبه ورخص مقداره لأنه تعدى على حريات الآخرين، القانون وأهله من قضاة وعسس لا يحمون نفساً ولا مالاً ولا عرضا، لا يحمون طيبين من القوم لأنهم مغفلين ولكنهم يحمون مجرمين، الشرطة في حماية الشعب شعار فضفاض، أحياناً الناس يخافون من شرطي أكثر من خوفهم من مجرم، الشرك الأصغر متغلغل في جذور النفوس، يظنون أن من يعدونهم من أولياء الله الصالحين يشفعون لهم عند الله رب العباد أجمعين، يجلبون لهم الخير ويمنعون عنهم الضرر، يبنون الأضرحة ويزوروها لنيل البركة والعلاج من أمراض البدن والشيطان، ما من منكر إلا وفعلوه، إذا لم يتوبوا ويرجعوا إلا بارئهم فإنه لا محالة ليورثن أرضهم قوماً آخرين وليذيقهم مر مهانة ومذلة)، ولما استفاق استودعه الله، ومشى بخطوات متعثرة، ضاقت عليه حلقات الدنيا وإن اتسعت، ظهر له فساد في بر وبحر، إلى أين الملجأ وإلى أين المفر، قال في نفسه: (إنا لله وإنا إليه راجعون، والمقدر لا بد من أن يكون).

(١٩)

كان الفحيل راقدا على سريره في ساعة متأخرة من ساعات الأصيل يتأمل في دقة خلق شجرة ليمونة الجنة، في أغصانها المتشابكة، في أوراقها الخضراء خضرة تسر الناظرين، في أطيارها التي تشقشق وتغرد بألحان ساحرة أطربت منه الوجدان، في تلك اللحظة زاد إيمانه بأن الله يدبر الأمور في السماوات والأرض كما يشاء، قدير لا يعجزه شيء ولا يفوته مطلوب، وأن قدرة البشر محدودة، ومحاسبون أمام الله على أعمالهم؛ في تلك اللحظة من لحظات صفائه وتفكره في ملكوت السموات والأرض، من نملة مهينة إلى عرش الله العظيم، طن في أذنيه طنين كطنين النحل!! أهل بلاده بلاد السمر يقولون: (أنهم من خير أخيار عباد الله)، (أنهم أصل البشرية)، (أن موسى عليه السلام منهم)، (أن لقمان الحكيم منهم)، (أنهم أول من طوع الحديد)، (أنهم أول من بنوا الأهرامات)، (أن ملوك كوش القدماء استعمروا مصر وهددوا الروم)، (أن محمد على باشا فتح السودان لأجل الرجال المشهود لهم بالقوة والشجاعة ولأجل الذهب)، (أن جدودهم لم يدخلوا الإسلام بالسيف وإنما دخلوه عن قناعة)، (أنهم هم الذين سيعيدون للإسلام مجده)، (أن مهديهم المنتظر هزم الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس)، (أن أحفاده وتابعيهم، وتابعي تابعيهم هم أسياد البلد، منزهون لهم الحق في أن يفعلوا بالبلاد ما يشاءون)، (أن دراويشهم قتلوا امبراطور الحبشة يوحنا)، (أنهم الشعب الوحيد في العالم الذي فجر ثلاث ثورات وأطاح بثلاثة طغاة)، (أن جيشهم لا يقهر عمره أكثر من مائة عام)، (أنهم مزيج راقي من فطنة العرب وشراسة الزنوج)، (أن بلادهم بما فيها من أنهار جارية، وأمطار غزيرة، وأرض منبسطة خصبة، سلة غذاء للعالم)، (أن ما في باطن الأرض من ذهب ومعادن نفيسة وبترول تكفي لتجعلها من أغنى دول العالم)، (وأنهم من مؤسسي منظمة الوحدة الأفريقية

سابقاً الاتحاد الأفريقي حالياً)، (وأنهم من مؤسسي الاتحاد الأفريقي لكرة القدم)، (وأنهم بوابة العرب إلى أفريقيا)، (وأنهم هم من يحررون فلسطين)، (وأنهم أكرم وأجود خلق الله)، (وأنهم أكثر شعوب الأرض حباً لله وللقرآن كتابه ولمحمد رسوله)، (وأنهم أشجع وأفرس خلق الله، شهدت لهم الجيوش الألمانية والإيطالية في الحرب العالمية الثانية)، (وأنهم خير من يتحدث اللغة الإنجليزية كلغة ثانية من بين الدول العربية)، (وأنهم الأساتذة الذين درسوا الخليجيين كيف يلعبون كرة القدم)، (وأنهم بخبراتهم العالية وعقولهم الجبارة أسهموا في بناء دول الخليج حتى تحولت من خيام إلى ناطحات سحاب)، عقله الكبير، كأستاذ لمادة التاريخ ربط ما بين الأحداث التي جرت في بلاده في ماضيها وفي حاضرها وما تنحو إليه في مستقبلها، غاص في بحور تحليلاته وهو لا يدري أعاد بلؤلؤ أم بحجارة، الحرب عنده لعنة ونقمة ولكنها مسرح يعطي دروساً وعبر، الحرب عنده جاءت لحكمة يعلمها الله، اختبار وابتلاء عظيم، أيصبرون؟ كل الصفات الحميدة التي يصفون بها أنفسهم - أنهم، وأنهم... وأنهم - على المحك الآن - أفعلاً تداعت عليهم الأمم، ليكسروا شوكتهم، يكسروا إرادتهم، يكسروا عيونهم، يمرغوا أنوفهم في التراب، يسقوهم كؤوس هوان ومذلة ودونية، لتظل رؤوسهم أبداً متطأطئة منكسة إلى الأرض لا تقدر على نظر في سماء، يريدون نهب خيرات بلادهم، وطردهم من أرضهم، يريدون أن يفعلوا بهم كما فعل بنو صهيون بأهل فلسطين، سلاح متطور حديث يتدفق على ميليشيا الجنجويد بكل سهولة ويسر من الخارج، المرتزقة من كل جنسيات يأتوا بهم لأجل الفتك بآمنين لا يحملون سلاحاً، ونهب أموالهم وهتك شرفهم، وجيش وطنهم حاميهم وحامي بلادهم ممنوع عنه السلاح، لذلك سقطت مدن عديدة، الواحدة تلو الأخرى، آخرها مدينة ود مدني، حاضرة الجزيرة، حيث مشروع الجزيرة، سلة غذاء البلاد، المخطط جهنمي، لا زراعة ولا يحزنون، فليمت أهل هذه البلاد جوعاً، يموت

من يموت، والباقون ما عليهم إلا أن يرفعوا صاغرين راية بيضاء، ينسون إلى الأبد ما كانوا يتفاخرون به بين الأمم من خصال تعد في هذا الزمان من خصال ملائكة، سقطت ود مدني، وبعض الساقطين يقولون: (ما تسقط كان سقطت، سقطت قبلها برلين، والجنينة، ونيالا، وزالنجي)، متناسين أنها حاضرة ولاية ذات ثقل اقتصادي وزراعي، بها أكبر مشروع مروي زراعي في أفريقيا، وأنها أصبحت قبلة لنازحي الخرطوم، ومركزاً لعمليات إنسانية وتجارية في البلاد، وموقعا استراتيجيا يربط بين أجزائها المختلفة، وسقوطها يعني عزل ولايات الشرق تماماً، ولكن السؤال الذي حير السائلين أنَى لها أن تسقط؟ وهي محمية من كل الجهات، وجسر حنتوب الذي يعلو مياه النيل ليربطها بالشرق حاجز منيع يصعب اختراقه عنوةً، هل استعان هؤلاء الجنجويد بمردة شياطين وسحرة؟ أسحروا عيون الناس وأدخلوا الخوف في قلوبهم؟ استمرت المعارك لمدة أربعة أيام، قبل يوم واحد من سقوطها صرح الناطق باسم الجيش بأن ولاية الجزيرة خالية من التمرد، خرج ملايين المواطنين ومعهم أفراد من الجيش يجوبون طرقاتها، شهدت مدن أخرى مظاهر فرح بالنصر الذي تحقق بدحر الغزاة المهاجمين للمدينة، وبدون أيتها مقدمات فوجئ المواطنون بقوات الميليشيا تعبر جسر حنتوب، انسحب الجيش من مواقعه، دخلت عشرات من عرباتهم القتالية، وصلت إلى مقر قيادة الجيش وأمانة الحكومة، غادروا مدينتهم إلى الولايات المجاورة قبل أن يفيقوا من هول صدمة فاجعة ؛ إلى النيل الأبيض القضارف وسنار، كثير من النازحين فروا للمرة الثانية أو الثالثة من القتال ومنهم من فر على أقدامه لعدم توفر وسائل نقل، بعض النازحين وصلوا إلى الرنك في جنوب السودان وإلى الحدود الأثيوبية، ثم احتلت الميليشيا باقي مدن الجزيرة، الحصاحيصا، رفاعة، الجنيد، والكاملين دون مقاومة تذكر، الفحيل لا يفهم ولا يريد أن يفهم ما يقوله الناس في مجالسهم أن هذه الانتكاسة المفاجئة حدثت لأسباب كثيرة منها سوء إدارة قيادة الفرقة،

تقصير في إعداد هذه الفرقة المنشأة حديثاً فهي لا تملك خبرة عسكرية قتالية ولا يوجد تماسك واضح بين عناصرها، نقص حاد في ذخائر ووقود، وهناك من يقولون أن الانسحاب جاء بأوامر عليا لتشتيت قوات المليشيا وتخفيف الضغط على الخرطوم وأن جنود الفرقة وقادتها مظلومون ظلم الحسن والحسين، وسط هذا التهويش والتغبيش والتعميش عادت له ذكريات أيام مضت:

(مدينة أهلها حلوين، سناهير، هواوير، دناقلة، شايقية، رفاعة، حلاوين، عركيين وآخرين، هبة نيل أزرق، عاصمة خورشيد باشا، مشروع رهد، مشروع جزيرة، أكبر مشروع مروي في أفريقيا، زهرة قطن، جمعية لواء أبيض، مؤتمر خريجين، درس فيها محمد نجيب، إسماعيل الأزهري، جعفر نميري، جان بيدل بيكاسو، قحطان الشعبي، سوق كبير، سوق صغير، سوق أم سويقو، سوق سمك، نادي جزيرة، نادي خريجين، حديقة بلدية، حي ود أزرق، دباغة، بانت، جبرونا، جزيرة فيل، حي بريطاني، حنتوب (الجميلة، الجميلة.. حنتوب الجميلة- منظرها البديع.. يا روعة جلاله- تعجب حين تزوروا.. وتجلس على تلاله. الجميلة، الجميلة...)، رفاص ونش، نادي جزيرة، نادي خريجين، إبراهيم كاشف، أبو عركي، محمد أمين، إبراهيم خان). ما يفهمه أن الحرب كر وفر، وأن خسران معركة أو مدينة ليس معناه نهاية الحرب، والحرب خدعة وعمل دؤوب، والعبرة بالخواتيم. جاءت بنت عمه تحمل صينية عليها أواني شاي، وضعتها في منضدة أمامه وملأت له كوباً، وجلست على كرسي موضوع قبالته، وخاطبته قائلة:

- (بدأ اليأس يدب إلى قلوبنا وقلوب الناس، كل يوم جديد نصبح على أخبار تطم البطن وتثير الغثيان).
- (يا أختي الحياة ما كلها حلوة، فيها حلو، وفيها مر).
- (عمرنا الطويل ده كله ما ذقنا طعم حلو).
- (فعلاً الإنسان كفور إذا ذاق طعماً مراً لحظة واحدة ينكر كل ما فات ويقول عمري كله لم أذق طعماً حلواً).

- (الجنجويد ديل حكايتهم شنو؟ كل يوم وهم زاحفين لي قدام، حاصروا الأبيض، الناس تركت الذهاب إليه إلا للضرورة، قافلين الطريق، إهانة وذل، وقلع قروش وقلع موبايلات، والرجال يرقدوهم على بطونهم في الأرض، والنسوان ينزلوهم ويرعبوهم، غايته بهدلة ما بعدها بهدلة، أفضل منها الموت).
- (يا أختي نشيل الصبر، وندعو ربنا يزيل الغمة).
- (ما سمعته خبر حمادة ود عمك؟).
- (يا الله، ماذا حصل له، إن شاء الله خير؟).
- (كالعادة دائماً يذهب إلى الأبيض لقضاء بعض حوائجه هناك، وفي هذه المرة وقع القدر، وإذا وقع القدر عمي البصر، أصابه طلق ناري طائش، ونقلوه للمستشفى).
- (يا الله، دي مصيبة كبيرة وقعت، أنا ماشي على أولاده في بيتهم أعرف الحاصل شنو).

بيته لصق ديوان جده، الديوان الذي يقف شاهداً يختزن كل أحداث الأسرة، دقها وجلها، مشت على ترابه أقدام أجداد وأعمام وأخوال لهم، تركوا من خلفهم سيراً عامرة بطهر ونبل وجود، بذروا بذور محبة وصلة رحم أشجارها تظلل لحفدتهم إلى أبد الآبدين. جاءته إحدى أزواجه - فهو مزواج كثير عيال - تمشي تغطي عينيها سحائب من حزن وبواقي دموع تحجرت على مقلتيها، خاطبها بنبرة لا تخلو من مواساة قائلاً:

- (الله يكذب الشينة، الحاصل شنو؟ سمعت بخبر حمادة، قلت أتأكد من صحته).
- (الخبر صحيح، الضربة ما سهلة، نقلوه للمستشفى، ح يعملوا له عملية مستعجلة في مستشفى خاص غداً).

ودعها بدعوات طيبات لعلها تزيل بعضاً مما بها من معاناة، وتبث في نفسها بعضاً من طمأنينة وثبات في زمن صعب، الصابرون على الجمر فيه قليلون.

- (الله يجيب العواقب سليمة، وينجيه من كل شر، ويعود لكم سالماً معافى).

ذهب في الصباح إلى موقف الحافلات، وفي أذنيه ترن دعوات أمه لابن أخيها، (اللهم أحفظه من كل شر، اللهم أحفظ عشا البايتات، أبو الضيفان والضيفات، اللهم نجح العملية، اللهم رجعه سالماً لعياله، اللهم عليك بعيال الحرام ال كانوا السبب، اللهم الجنجويد لا ترفع لهم راية، ولا تحقق لهم غاية، اللهم عذبهم في الدنيا قبل الآخرة، اللهم عذبهم كما عذبوا خلقك، اللهم تجيئهم طامة من عندك في بيوتهم وعيالهم وأهلهم، اللهم صب عليهم نار غضبك وسخطك)، جلس في آخر مقعد شاغر كان في انتظار آخر راكب، وكان هو هذا الراكب، انطلقت الحافلة وفي رأسه يدور أمران، الأمر الأول ابن عمه، الذي لا يعرف بالضبط تفاصيل ما حدث له، هل إصابته يمكن السيطرة عيها أم في موضع يشكل خطورة على حياته؟ هل سيكون قادراً على ممارسة حياته كما كان سابقاً أم سيعيش باقي حياته بعاهة مستديمة؟ الأمر الثاني كيف حال الأبيض عروس الرمال التي لم يرها منذ سنين عددا، هل ما زالت عروس أم يتمها ورملها جنجويد أحالوا نهار جمالها إلى ليل قبح مظلم، السواقي على جانبي طريق الإسفلت المؤدي إليها يغني حالها عن سؤالها، أوراق أشجار ليمونها اصفرت ويبست من العطش، هجرها عمالها، ما عادوا يحسون بأمان وسيارات جنجويد قتالية تجوب الشارع جيئة وذهابا، مصنع الثلج، علامة من علامات الطريق، تركوه خرابة بعد أن نهبوا أي شيء صالح وغير صالح فيه، نقطة التفتيش خاوية على عروشها، وسيارة مقلوبة هنا، وسيارة محروقة هناك، ودفار محروق يسد نصف الطريق، محطة مياه السدر، عاثوا فيها فساداً وخربوها، جابوا عاليها واطيها، الركاب صامتون لأنهم خائفون، لا يدرون ما يخبئه لهم القدر، في

أي لحظة يمكن أن يظهر جنجويدي أو قاطع طريق، إنهم لا يشبعون أبداً من نهب أموال الناس، في أي لحظة يمكن أن يصوبوا بنادقهم المحشوة بالذخيرة إلى رؤوسهم، في أي لحظة يمكن أن يكونوا بلا هواتف وبلا مليم أحمر، سترهم وحفظهم الله إلى أن وصلوا مفترق طرق معروف اسمه (بايبلاين)، هنا عندما يأتي الجنجويد محملين بالغنائم التي نهبوها من الخرطوم، أحياناً تقطع عليهم الطريق قوات عمل خاص، تكبدهم خسائر في أرواح وعتاد ويفروا هاربين تاركين غنائماً منهوبة، والشواهد أمامهم، عدد يصعب حصره من سيارات مقلوبة ومحروقة فككت أجزاؤها وتركت شاسيهات عارية، تعدوا المصفاة وصلوا إلى أطراف المدينة، نقطة تفتيش كبيرة عند خنادق ومتاريس، أوقفوهم، نقطة تفتيش اسماً، حقيقة لا تفتيش ولا يحزنون، الحرب حرب، كل شخص ممكن أن يكون جاسوسا أو طابوراً أو متعاوناً إلى أن يثبت العكس، تركوهم يمرون مرور الكرام وسط سلامات وضحكات ومداعبات، وقفت الحافلة مع خط السكة حديد، لحسن حظه رافق جماعة ذاهبون إلى نفس المشفى الخاص الذي يقصده، هناك وجد أهلاً وأقرباء وأصدقاء ومعارف لحماده، حكوا له الحكاية من طق طق إلى السلام عليكم: (كان حمادة مع ابن عمه ماشيان نحو محطة الحافلات قرب أستاد الكورة، والناس من حولهم ماشين كذلك، كلهم يسمعون أصوات طلقات نارية بعيدة، أهل المدينة تعودوا على ذلك، تعودوا على هجمات الجنجويد على أطراف المدينة وصد الجيش لها، وأصوات الرصاص أصبح لديهم لا يختلف عن تغريد العصافير، فجأة رآه ابن عمه واقعاً على الأرض، تجمع حولهم الناس، اكتشفوا أنه مصاب بطلقة، أخذوه على عجل إلى المشفى الحكومي، نصحوهم بالذهاب به على عجل إلى مشفى خاص بعينه، هناك أجروا له فحوصات واسعافات أولية لازمة، ثم قرروا له

عملية مستعجلة، في نفس اليوم أصيب عدد من الناس، منهم موظف في ديوان الزكاة، أصابته طلقة في رأسه، لم ينفع معه دواء ولا طبيب، أسلم روحه إلى بارئها، ضحايا قذف عشوائي للجنجويد عددهم كبير، وكل يوم العدد في زيادة، هدفهم معلوم، أن يهجروا الناس من مساكنهم، ولكن هيهات لهم ذلك، أسياد المدينة، ملوك الأرض متمسكون ببيوتهم في ظل كل التحديات المؤلمة التي يعايشونها)، أدخلوه العملية، استغرقت زهاء ست ساعات، في هذه الأثناء ذهب لأداء صلاة الظهر بمسجد جديد بنوه قبالة كنيسة مشهورة بطراز معماري فريد جميل، كل من يشاهدها يتذكر بابا الفاتيكان وكنائس روما، قيادة الجيش ليست بعيدة من هنا، خنادق عريضة عميقة محفورة بكراكات تسد الشوارع، جنود على كتفهم بنادق يذهبون ويجيئون، وأصوات طلقات نارية تسمع من بعيد، نوافذ المسجد زجاجها أغلبه مهشم بفعل الرصاص، المصلون عددهم قليل، عادت له ذكريات أيام مضت:

(شهدت أيام شبابه الأولى وهو يتدرج بخطى ثابتة في مدارج مهنة تعليم وتأليم، مدينة أهلها طيبون، بديرية وشويحات، عروس رمال، بان جديد (اليوم سعيد.. وكأنه عيد.. يلا نشهد البان جديد- اليوم سعيد.. شرق الصباح من غير نشيد- زارني الوديد قال لي نقوم البان جديد)، جبل دامبير وقصة شجرة إكسير، خور أبيض، شجر تبلدي، سوق محاصيل، سوق أبو جهل، اسم غريب، تمنى لو كان اسمه سوق عكاظ، لأنه فعلاً يجتذب خلائقاً من كل مكان كما كان حال عرب جاهلية في غابر زمان، كل ثمار طبيعة بكر معروضة فيه، دوم، قنقليس، قضيم، كركدي، ويكة، لالوب، نبق، ليمون، برتقال، جوافة، هذا ما تذكره وما نسيه كثير، قبة إسماعيل ولي، سينما كردفان وعروس رمال، حلواني جروبي، دار رياضة وملاحم هلال أهلي ورفاق).

وبعد أن عاد للمشفى وجلس مع الجالسين والجميع يحبسون أنفاسهم ينتظرون ما يأتي به القدر، جاءتهم البشرى، بشروهم بأن العملية نجحت بعد أن كانت نسبة نجاحها عشرة في المائة، رأوا بأم أعينهم الطلق الناري الذي أصابه، حجمه كبير، قدر السبابة، طلق رشاش قرنوف وليس بندقية، ضرب من مسافة بعيدة، اخترق الجسم، أثر على السلسلة الفقرية، انحرف ونزل على الحوض، تبادلوا تهاني وقدموا حلوى لرائح وغادي، بات ليلته تلك في المدينة التي سرد عنها الفنان الكابلي حكاية لا تنسى، جاء إليها وهو في بدايات حياته الفنية، وكان الوقت صيفاً، سمع من المذياع الفنان احمد المصطفى وهو يغني أغنية مرت الأيام، قال: منذ ذلك الوقت كلما سمع هذه الأغنية في عز الشتاء فإنه يتصبب عرقاً، مرَ على ابن عمه في المشفى في الصباح الباكر، وبعد أن اطمأن على صحته ودعهم ومشى نحو موقف الحافلات، مر بطرف سوق أبي جهل، حركة الناس مزيج من خوف وعجلة، يمشون في صمت مريب، تعابير وجوههم توشي بأنهم يحملون هموماً تهد الجبال، وصل الموقف، حافلة صغيرة على متنها حفنة من ركاب، حجز مقعداً وأجلسوه على كنبة تحت سقيفة مسقوفة بشوالات فارغة وكراتين، جلس ما شاء الله له أن يجلس، في البداية رأى جنوداً كبارا في السن بشعور كثة ووجوه مغبرة وملابس رثة يحومون في الجوار، ثم سمع فتيات ينادين على ما يحملن على رؤوسهن من فول مدمس وتسالي وسمسمية، ثم غاب عن كل ذلك، ثم عاد إلى كامل وعيه على صوت ينادي عليه: (قوم يا حاج أركب، الحافلة تمت)، ركب وتحركت بهم حافلة قديمة مهلهلة، السيارات التي تتحرك في الطرقات كلها على هذا النحو، لأن الجنجويد ما رأوا سيارة بحالة

حسنة فما فوقها وإلا شفشفوها، وصلوا، المهم ليس في كم ساعة وإنما أنهم وصلوا سالمين، قبل رأس أمه وهو يزف لها البشرى بنجاح العملية، رفعت أكفها إلى السماء ودعت لابن أخيها بدعوات صادقات: (اللهم ألطف بعبدك ولدي حماده، اللهم بارك له في عمره، اللهم أحفظه، رده لأولاد سليماً معافى، اللهم أجعلها في ميزان حسناته، اللهم عليك بالجنجويد، أرنا فيهم عجائب قدرتك، دمرهم دماراً شاملاً، لا يغادر منهم أحداً)، ردد خلفها: (آمين، آمين يا رب العالمين).

(٢٠)

انحسر هطول المطر، بدأت هبائب الشتاء الباردة تلفح الوجوه، والليمون أخرج النوار وفتح الزهور، وجِمالُ بطيخ تحوم في الطرقات، على ظهورها شباك تتدلى من جنبيها مملوءة به، بطيخ بلدي، أبيض وليس أحمراً على السكين، صغير في الحجم، أصغر بكثير من الكرة التي يركلها اثنان وعشرون ويشاهدها مئات الملايين من ناقصي عقل ودين، ولكنه ذو مذاق لذيذ خاص، لا يستلذ به إلا من ترعرع تحت مطر، رأى بروقاً، وسمع رعوداً، أمه تعشق البطيخ وتموت فيه، كانت تلك اللحظة من أعذب لحظات قضاها معها، جمل بطيخ واقف عند الباب، وبطيخات خضراوات جميلات متدحرجات أمامها، ضربوا بالبطيخات الواحدة تلو الأخرى الأرض وشجوها إلى نصفين، اختاروا أحلاها ووضعوها أمامها، يا سلام وهي تضع لب البطيخ في فمها وتذوقه كما تتذوق فاكهة من فواكه الجنة، في واحدة من تلك اللحظات خاطبها بنبرة مملوءة بحب دفين:

- (يا أمي العزيزة، أولادي أرسلوا لأمهم رسالة فحواها أن زيارتها إلى السعودية باقي لها أقل من شهر على الانتهاء، ولذلك لا بد من مجيئها بأسرع ما يكون).

- (يا ولدي أنا عافية منك، اذهب معها، ما في زول غيرك يوصلها لهم).

- (إن شاء الله، سوف أقوم بذلك وأعود إليك، وأجدك في أحسن حال، وفي أتم صحة وعافية).

- (يا ولدي الصحة والعافية تاني وين، الباقي أمر الله).

- (يا أمي ربنا يعطيك طول العمر، وحسن الخاتمة).

ودعهم ومشى نحو مزرعته، في طريقه مرَ على أم عياله، وجدها مستلقية على سريرها في غرفتها، منزوية لا تكلم أحداً ولا

أحد يكلمها، همها الأوحد مغادرة هذا المكان بأي ثمن من الأثمان، خاطبها قائلاً:
- (أها يا حاجة السفر أصبح أمر لا مفر منه، الوقت يمر، والزيارة أوشكت على الانتهاء).
- (وكيف يكون السفر؟).
- (خيارنا واحد، بعد سقوط ود مدني، ما في غير طريق بارا أم درمان، وهو محفوف بالمخاطر، يتحكم فيه الجنجويد، كل ناس وحظهم، إذا قابلوهم جنجويد متاعيس عليهم العوض، نهب وقلة أدب).
- (نتوكل على الله ونمشي، الحذر لا يمنع القدر).
- (ما دام الأمر كذلك، توكلنا على الحي القيوم، أنا في طريقي للمزرعة ومن هناك أمر على موقف حافلات أم درمان).

مشى بخطوات نشطة نحو الموقف وقد انزاح عن كاهله حمل ثقيل، أمه وأعطته الضوء الأخضر، نال رضاها، زوجه ونالت مرادها بالشروع في السفر إلى أولادها، قابل الكوموسنجية الذين يقومون بتنظيم وإدارة حركة الحافلات، عرفه واحد منهم مسكنه قريب من بيت خالته، بين له أن الحافلات لا تتحرك من هنا إلا إذا جاءت حافلات من الجهة الأخرى، عدم مجيئها معناه أن الطريق غير آمن، واليوم وأمس لم تأتي حافلة، لذلك الحافلات متوقفة، أخذ رقم هاتفه ووعده بالاتصال هاتفياً عليه إذا ما جد في الأمر جديد. مشى نحو مزرعته، المسافة قريبة من هناك، وجد أبو سيفين وولده ومعهم نفر آخرون في غاية السرور يقلعون خضاراً، بعد أن حياهم وبش وهش في وجوههم أخذ فجلة، غسلها في ماء الجدول، مضغها كحلاوة قطن وفي طعمها لسعة محببة، تنحى بأبي سيفين جانباً وأسر له بما ينوي فعله، أنه على سفر، وربما تكون هذه هي زيارته الأخيرة لهم قبل سفره، أوصاه بالمزرعة خيراً، وأن الوافر خير معين له، وأن يتفقا ولا يختلفا، أبو سيفين بدوره تمنى له السلامة في السفر والعودة ليكملا معاً مشوارهما الذي بدآه، وأنه بصدد

زراعة طماطم وهذا هو موسمها، وإذا ما وفق الله ونجحت، ذلك يوم المنا، يوم الوصول إلى بر الأمان.

عاد إلى بيت خالته، جلس مع أمه، نظر في شعرها الخفيف الأبيض المنكوش، الذي كان طويلاً فاحم السواد، نظر في عينيها الذابلتين اللتان كانتا تومضان بنور الحياة، نظر في جسدها الواهن الضعيف الذي كان يتدفق قوة وصلابة، ها هو مجبور على فراقها بسبب تداعيات هذه الحرب اللعينة، تحدث معها في أشياء كثيرة، سمعت بعضها ولم تسمع البعض الآخر، ضعف سمعها قليلا، تذكرت بعضها ولم تتذكر البعض الآخر، ذاكرتها لم تعد كما كانت، كان همه أن يسمع صوتها يجلجل في أذنيه، لأن في صوتها ترياق له من كل ما يؤرقه ويسود عيشته بهموم وغموم. في اليوم التالي لم يتصل الكوموسنجي، قضى وقته كله بقربها، يراقبها وهي نائمة، يخدمها ويؤانسها وهي صاحية. في صباح اليوم التالي مع نسمات بدايات الشتاء الباردة رن جرس هاتفه، نبهه الكوموسنجي إلى أن الحافلة جاهزة للسفر، كانت لحظات تدفقت فيها عواطف ومشاعر جياشة، كأنهم يحسون أن فراقهم هذه المرة أبدي، لأن مع الحرب الموت يخيم بظلاله على كل بيت وعلى كل مكان، عانق أمه عناقاً طويلا، قبل رأسها، شم رائحتها، جرت الدموع من عينيها، خرج صوتها ضعيفاً خافتاً، ملائكي لحن من ألحان الجنة: (يا ولدي عافية منك ظاهراً وباطناً، إن ربنا مدَ في عمري، تمشي وتعود بالسلامة تلقاني في انتظارك، وإن ربنا أخذ أمانته، العفو والعافية لله والرسول، وأبقى عشرة على عيالك وعيال خالتك)، لم يتحمل، ودع خالته وأولادها، حمل أشياءه القليلة في كيس، خرج من باب الدار وعيناه تنظران في خشوع إلى أديم الأرض، إلى التراب الذي منه خلق وله يعود، غشي أم عياله، أخرج حاجياته من كيسه وأدخلها معها في حقيبتها، ودعت أمها وأهلها بعيون باكية، أخواتها حلفن يمين أن يرافقنها حتى الموقف، مشوا نحو الموقف وابن اختها يحمل لهما حقيبتهما، مروا بشارع النيم في الطرف الشرقي من

السوق، غرس أشجاره المستعمرون الانجليز، إنها أشجار معمرة، عمرها أكثر من سبعين سنة، اشتروا زوادة سفرهم رغيف من أحد الأفران المطلة على الشارع، وطعمية من بائع طعمية، وطماطم من بائع خضار، الحافلة كانت واقفة كحمار حرون، عفش الركاب مربوط أعلى سقفها، قال لهم الكمسنجي مكانكم محجوز، دلهم عليه، ودعا المودعين وركبا مع الراكبين، وكالعادة مع صوت أزيز موتور الحافلة، حلت لحظة الحساب، ساعة زمان وأكثر وهم يعدون الركاب، ويحسبون ما عندهم من مال، ولا يضبط حسابهم، يكررون العملية عدة مرات، ويتغالطون، وترتفع وتنخفض أصواتهم، والركاب يقولون لهم: (إذا تأخرنا في الوصول إلى أم درمان الرماد كال خشومنا، لأن المواصلات العامة تتوقف عند الساعة الخامسة مساءً، وحظر التجوال يبدأ في الساعة الثامنة مساءً، وبعدها من يحومون في الشوارع إما مجرمين أو حرامية، أو مجانين)، في النهاية بعد أن دخل اليأس في قلوب الركاب تحركت بهم الحافلة، ودعوا آخر البيوت وآخر أشجار السواقي، الطريق الذي كان قبل الحرب يعج بالحركة خالي هذه الأيام من الناس ومن السيارات والشاحنات، أوقفهم جنجويدٌ في أول ارتكازاتهم، يطل على بلدة أم قرفة، تاتشران عليهما رشاشات واقفتان طرف الشارع، وجنجويد على رؤوسهم كدمول واقفون باستهتار، صعدوا على متن الحافلة، دققوا نظرهم في وجوه الركاب بعيون خبيثة ماكرة، أمروهم بإبراز بطاقات الشخصية، ضالتهم الشباب وليس الكهول أو النساء، وبعد أن أخذوا إتاوة مالية معلومة من السائق أمروهم في منتهى التسلط والجبروت بالتحرك، تراءى له أنه رأى قُجَبْغا ذلك البلبوص، الوزغ، الحرباء، الحية، بلحمه وشحمه ووسخه وعفنه واقف ديدبان هناك، يبحلق بعيني ضبع مفترس في وجوه الناس، علق الركاب في انكسار على هذه المهازل وعلى ما ينتظرهم من بلاوي متلتلة:

- (عشنا وشفنا وليدات صغار آخر الزمن يبهدلونا).

- (واحدين منهم غرباء جائين من تشاد والنيجر ومالي).
- (المرتزقة الجنوبيين وجدوها فرصة دايرين يفشوا الغبائن القديمة فينا).
- (يا حليل أيام ناس منقو، «ما زلت في رحلاتي السعيدة.. حتى وصلت يامبيو البعيدة، منطقة غزيرة الأشجار.. لما لها من كثرة الأمطار، قدم لي منقو طعام البفرة.. وهو لذيذ كطعام الكسرة...».
- (يا أخوانا الناس ديل كلهم مرتزقة اشتروهم بالقروش، إن ماتوا يموتون فطيس).
- (الحكاية دي حدها وين).
- (العلم عند رب العالمين).

عند سماعه العبارة الأخيرة، حدثته نفسه: (متى يفيق الناس من نومهم العميق، التوكل في الدين مقرون بالعمل، لا يعملون، يعطلون الأسباب، أربعون مليوناً يبهدل حياتهم عدة ألوف من صعاليك ومجرمين، لو كل واحد منهم ملأ فمه بالماء وبخوهم به لأغرقوهم في بحر لجي، ولكنهم غثاء كغثاء السيل)، ثم صمتوا صمت القبور، كل واحد منهم استغرق في همومه وغمومه وأحزانه، أوقفوهم جنجويد في ارتكازهم الثاني المطل على بلدة جبرة الشيخ، هذه المرة ثلاث تاتشرات قتالية عليها رشاشات، وهم واقفون كأنهم أسياد البلد، يفعلون بالناس ما يشاؤون، نفس البهدلة ونفس المرمطه، وبعد أخذهم الإتاوة المالية المفروضة سمحوا لهم بالمرور، تراءى له أنه رأى قُجَبْغا ذلك البلبوص، الوزغ، الحرباء، الحية، بلحمه وشحمه ووسخه وعفنه واقف ديدبان هناك، يبحلق بعيني ضبع مفترس في وجوه الناس، وبعد مدة زمنية قصيرة تنبهوا إلى أن الحافلة وقفت فجأة لسبب ما، ساورتهم الشكوك، نظروا من النوافذ، رأوا جنجويدي ومعه رجل آخر يلبس جلباباً وسديري أسود يقفان بالقرب من سيارة يبدو أنها متعطلة، سحنتهما تدل على أنهما ينتميان إلى قبيلة الكبابيش، أيام الغفلة الميليشيا جندت أفراد من كل القبائل مقابل المال، لهم ولزعماء قبائلهم، طلبوا من السائق أن يسحب لهم

سيارتهم إلى مكان قريب، نظر الركاب إلى بعضهم البعض في دهشة، الطلب غريب، أهو رجاء أم أمر، وإذا ما استجاب السائق لهم وتأخروا ووصلوا أم درمان بعد الساعة الخامسة مساء موعد وقوف المواصلات ماذا سيكون مصيرهم، الله فكاك العقد فك عقدتهم اعتذر السائق بأن كرونة الحافلة بها عطل يمنعه من المغامرة بها بسحب حمل ثقيل، تنفسوا الصعداء والسائق انطلق بهم بدون أن ينتظر من الجنجويدي رداً، كل الركاب كانوا في حالة قلق وتوتر، يشعرون بأن حافلتهم بطيئة جداً لا تنطلق بسرعة كافية، وأن المسافات التي يقطعونها تباعدت أكثر من ذي قبل، تخطوا رهيد النوبة التي كانت محطةً عامرةً بارزةً في الطريق، أصبحت صحراء جرداء قاحلة منذ أن قتل فيها الجنجويد سائق شاحنة من الكبابيش ونهبوا شاحنته، ودارت معركة بين الفزع وبينهم، قتل فيها العشرات من الطرفين، وتدخلت الأجاويد ودفعت الديات، إنسان هذه البلاد رخيص، لا فرق في ثمنه وثمن ثور أو جمل، وصلوا أكبر ارتكاز، في مدخل أم درمان، كان سابقاً ارتكازاً لشرطة مرور وجهاز أمن، حولوه إلى ارتكاز كبير، أكثر من سبع سيارات قتالية واقفة على أهبة الاستعداد، بعض حاويات حولوها إلى معتقلات، ومباني جاهزة إلى مكاتب إدارية، هذه المرة التفتيش أكثر دقة، بعد إبراز بطاقات الشخصية أنزلوا كل الركاب ومعهم حقائبهم الصغيرة داخل الحافلة، عدا الكهول والنساء، فتشوهم تفتيشاً دقيقا واطلعوا على ما في داخل جوالاتهم، بعد مدة طويلة وبعد أن أخذوا إتاوة معتبرة سمحوا لهم بالمرور، تراءى له أنه رأى قُجَبْغا ذلك البلبوص، الوزغ، الحرباء، الحية، بلحمه وشحمه ووسخه وعفنه واقف ديدبان هناك، يبحلق بعيني ضبع مفترس في وجوه الناس، ما صدق الركاب أنهم عدوا سالمين تامين غير ناقصين عبر ارتكاز يوم القيامة، وما دروا أن أمامهم سبع ارتكازات ثابتة أخرى، وارتكازات وهمية لا يعرف لها عدد، أي ثلاثة جنجويد ومعهم تاتشر واحد أو ثلاث دراجات نارية يمكنهم أن يعملوا ارتكاز، ومن بينهم قُجَبْغا ذلك البلبوص، الوزغ، الحرباء،

الحية، بلحمه وشحمه ووسخه وعفنه واقف ديدبان هناك، يبحلق بعيني ضبع مفترس في وجوه الناس.

السائق المسكين ظل يدفع إتاواتٍ إلى أن وصل سوق ليبيا، جمهورية الجنجويد، جمهورية الفوضى، وصلوا والساعة تعدت الخامسة بقليل، يعني الحكاية فيها إنَ، إما حافلات في، وإما حافلات ما في، إذا ما في الرماد وكال خَشُم حماد، همهم قائلا: (وماذا بقي لهذا السائق المسكين، كل الأجرة التي دفعناها له ذهبت إلى جيوب الجنجويد)، رد صوت قائلا: (هم أسياد البلد وأنتم عبيدهم، تدفعوا بس، وأنتم ساكتين، من يعمل نفسه ديك ويصيح يذبحوه كالدجاجة). زحمة السوق تثير الخوف، جنجويد ببنادق وآر بي جي وكدمولات يحومون وسط أمواج متلاطمة من البشر، باعة ينادون على بضاعتهم، وباعة خضار وفواكه واقفون أمام طاولاتهم الخشبية، تاتشرات قتالية، ودراجات نارية، وعربات كارو، وركشات، وتك توك كلها تتزاحم مع الناس في طرقات السوق، مزيج الأصوات كأنه فحيح لهب جهنم الذي لم نراه ولكننا نعرف وصفه، حمل حقيبتهما وشقا طريقهما وسط الزحام نحو موقف حافلات سوق صابرين ومعهما رجل وقور تعرف عليه في أثناء الرحلة، اكتشف بعد مدة قصيرة أنه فقد أثرهما، حال الموج البشري بينه وبينهما، عند طرف أول ساحة في بداية السوق سمع من ينادي: (سوق صابرين، سوق صابرين)، ذهب نحو الحافلة التي عليها الدور، لم يجدهما وسط قلة من الركاب جالسون على مقاعدها، رفع حقيبتهما وأوصى عليها الركاب خيراً وذهب يبحث عنهما، ظن أنهما ذهبا إلى موقف حافلات صابرين القديم، ظل في حالة سعي بين الموقفين القديم والجديد لأكثر من سبعة أشواط، ولم يعثر لهما على أثر، وتساؤلات غبية بائسة متشائمة تملأ رأسه، ماذا حدث لها؟ أوقع لها مكروه؟ أأصابتها جلطة سكري؟ ماذا بيده أن يفعل في هذا السوق العجيب؟ ماذا يقول لأولادها؟ ماذا يقول لأهلها؟ كل حسابات هذه الرحلة تلخبطت، كل هذا التعب من أجلها، كيف الحياة بدونها؟ وبينما هو مستغرق في

تساؤلاته مواصلاً في أشواطه وإذ بصوت الرجل الوقور ينادي عليه، لم يصدق!!! أين كان؟ وأين هو الآن؟ عادت له روحه، خاطبه بنبرة فرحة قائلاً:
- (الحمد لله أين أنتما، تعبت قدماي من المشي بحثاً عنكما).
- (مشينا على الموقف القديم، قبل أن نصل إلى هناك، صادفنا حافلة صغيرة ينادي صاحبها على سوق صابرين، ركبتها فيها، ووقفت انتظر قدومك على الطريق إلى الموقف القديم).
- (أنا طبعاً حمل الحقيبة ثقيل علي، لذلك مع الزحمة تأخرت عنكم قليلا، وسمعت في أول السوق من ينادي على حافلات صابرين).
- (مررنا بهناك ولم نسمع أحداً ينادي، أين حقيبتكما؟).
- (تركتها في الحافلة التي عليها الدور لأنه من الصعب أن أبحث عنكما وأنا أحملها).
- (لنذهب ونأخذ الحاجة معنا إلى هناك).
خاطبها قائلاً:
- (يا حاجة قلبته عليك الدنيا وانت قاعدة هنا).
- (الدنيا أصلها مقلوبة الله يوصلنا بالسلامة).

عادوا إلى الموقف الجديد، الحافلة على وشك التحرك، الحقيبة في مكانها الذي وضعها فيه فوق أحد المقاعد، ركبوا ثلاثتهم، تحركت بهم الحافلة، بين لحظة وأخرى يوقفها جنجويدي، يطلب من السائق حق العضة، يدفع له ما تيسر، إلى أن وصلوا إلى ارتكاز كبير طرف السوق، مجموعة من السيارات القتالية، حواجز ببراميل واطارات سيارات، كدمولات مسلحة يعج بها المكان، تراءى له أنه رأى قُجَبْغا ذلك البلبوص، الوزغ، الحرباء، الحية، بلحمه وشحمه ووسخه وعفنه واقف ديدبان هناك، يبحلق بعيني ضبع مفترس في وجوه الناس؛ صعدوا كالقرود على متن الحافلة، أمروا بإبراز بطاقات الشخصية، أنزلوا عدداً من الشباب، سألوا عن صاحب قفتي بامية مرفوعتان فوق سقف الحافلة، أمروا صاحبها بالنزول معهم، همهم الركاب بصوت خفيض:

- (الله يكون في عونهم، من ينزلوه، لن يعود مرةً ثانية).
- (مستحيل يوقفوا حافلة ولا يأمروا أحداً بالنزول، معنى ذلك لدى رؤسائهم أنهم لا يؤدون عملهم كما هو مطلوب).
- (صاحب البامية ذنبه شنو؟).

قال الفحيل في نفسه:

- (الحمد لله حقيبتنا داخل الحافلة لو كانت فوقها لأمروني بالنزول وشتتوها حتة حتة).

بعد انتظار طويل عاد لهم الضحايا الذين أنزلوهم ناقصين أثنين، وبعد أن تحركت الحافلة، قال السائق:

- (عندهم هنا مكتب للنقل، أي حافلة لازم تورد مبلغاً معيناً في كل مشوار).

قال أحد الشبان الذين عادوا:

- (اتهموني اتهامات كثيرة، حكمها الإعدام، وبعد ذلك أخذوا كل ما عندي من مال وأخذوا هاتفي، وقالوا لي مع السلامة انت محظوظ، توكل الله).

قال صاحب البامية:

- (سألوني من أين أتيت بهذه البامية، رموني بتهمة التخابر مع الجيش، حلفت يمين، وحلفت طلاق، وحلفت بدقلو ذاته، حتى فكوني بعد ما شالوا كل قروشي).

مروا بعدة ارتكازات أخرى تتبع للجنجويد يتمركزون على رأس ونهاية كل حارة من حارات غرب أم بدة، يوقفون الحافلة ما شاء الله لها أن تقف، يكررون نفس الإجراءات المهينة، نفس الإتاوات، ونفس الادعاءات والصاق التهم لتخويف الناس، وبعد أن ينعدل مزاجهم ويشفوا غليلهم في الركاب البؤساء يأمروهم بعجرفة وبنظرات مقيتة بالتحرك، ومن بينهم يرى قُجَبْغا ذلك البلبوص، الوزغ، الحرباء، الحية، بلحمه وشحمه ووسخه وعفنه واقف ديدبان هناك، يبحلق بعيني ضبع مفترس في وجوه الناس؛ غابت الشمس وحل الظلام وهم يتحركون في بطء من ارتكاز إلى ارتكاز، الحافلة تتبع مساراً جديداً،

ليس مسارها المعهود، مساراً فرضته ظروف الحرب، طرف خور أبي عنجة العريض قابلهم أول ارتكاز للجيش، يعني مروا بالمنطقة المنزوعة السلاح بين الطرفين وهم لا يدرون ذلك، سيارات قتالية عليها مدافع، ومتاريس وحواجز، وقيامة قائمة، نزل السائق وذهب إلى رئيسهم، الله أعلم بما جرى، الإتاوات تفك العقد في كل مكان، أنزلوهم، طالبوهم ببطاقات الشخصية، وسألوهم سؤال منكر ونكير في القبر، ولم ينجو منهم صاحب قفتي البامية، اتهموه بأنه يتخابر مع الجنجويد، المسكين لعن البامية، وأم وأب البامية، ومن هداه إليها، ومن يتاجر فيها، ومن يأكلها، مروا بارتكازين آخرين للجيش قبل أن يصلوا إلى آخر ارتكاز طرف سوق صابرين، هنا إجراءات التفتيش أكثر دقة، وأكثر خشونة، أنزلوهم كلهم من الحافلة، لم يستثنوا أحداً بما في ذلك النساء، ريثما ينتهون من تفتيشهم الذي أثار إعجاب الكثيرين، وجعل لسان حالهم يقول: (لو كان كل واحد في هذه البلاد ينضج ويكرب شغله بهذه الجدية ما كان فعل الجنجويد بنا ما فعلوا)، تعدت الساعة بقليل التاسعة مساءً موعد بداية حظر التجوال بعد أن مدوه ساعةً كاملة، للصدف العجيبة أن الرجل الوقور ذاهب إلى الحارة التي تلي حارتهم، ولحسن حظهم وجدوا ركشة سائقها على استعداد أن يغامر بهم في هذا الوقت، وضع ثلاثتهم حقائبهم عليها وتوكلوا على الله، عند جسر خور أبو عنجة جهة سوق شنقيط قابلهم ارتكاز للجيش، أوقفوهم أمروهم بالرجوع من حيث أتوا، وبخوهم بأنهم لا يحترمون القوانين التي عملت لمصلحتهم، السائق أبرز لهم بطاقةً عسكرية، بعد توسل ورجاء، وبأنهم ذاهبون إلى الحارة التي أمامهم، وأن معهم حرمة لا تقدر على السير في هذا الوقت المتأخر، سمحوا للسائق بتوصيلهم والعودة إليهم على ألا يتعدى ذلك مدة عشر دقائق، وصلوا إلى بيتهم بالسلامة، ولا خيار للرجل الوقور إلا أن يبيت معهم حتى الصباح، ذهبوا إلى جيرانهم الذين يتخذون من بيتهم

متسعاً لهم، لم يصدقوا أعينهم حينما رأوهم، لأنهم يعرفون حجم تحديات وبلايا ونوائب ونوازل تصيب الناس وهم ينتقلون من مكان إلى آخر في زمن الحرب، دخلوا وجلسوا معهم، سألوهم عن أحوال البلد هناك والأهل ووساخة الجنجويد، أجابوهم بأن الحافظ الله من وسخهم الزفر الذي لم يترك مكاناً إلا ودنسه، وأنهم سيقضون ثلاثة أيام هنا ثم يواصلون سفرهم إلى السعودية، سألوهم بدورهم عن معاناتهم بسبب حرب ودانات ا تقع فوق رؤوسهم ورؤوس بيوتهم من وقت لآخر، أخذوا منهم مفاتيح دارهم، بعد مدة أتوهم بعشاء بسيط، زمن الحرب من أعطاك رغيفة واحدة كمن أعطاك كل مطايب الدنيا، لأنه أعطاك ما هو في أشد الحاجة إليه، ناموا ليلتهم تلك، ناموا وأصوات اشتباكات مسموعة من بعيد، وطلقات نارية مسموعة من قريب، وسماء تضيئ ما معروف أهي بروق أم قذائف صاروخية، ناموا كأنهم لم يتذوقوا طعم النوم من قبل، أبدانهم متعبة منهكة، رحلة ألم وعذاب استمرت من الساعة التاسعة صباحاً وحتى التاسعة مساءً، كل ذلك كان ممزوجاً بخوف مما يخبئه لهم القدر، الجنجويد لا أمان لهم، يفعلون ما يحلو لهم، لا يخشون الله ولا لومة لائم.

(٢١)

كعادته ذهب في الصباح الباكر إلى مسجد الحارة لأداء صلاة الفجر، ودعه الرجل الوقور الذي أصر على الذهاب إلى بيتهم في هذا الوقت الباكر لأنه خائف من أن يكون أهله في حالة لا تحمد عقباها لأنهم على علم بمغادرته إليهم بالأمس، عدد المصلين قليل جداً مقارنة بما كان عليه في السابق، المصلون لا يكادون يكملون صفين بينما كانوا في سابق عهدهم يضيق بهم المكان، وجوه قديمة اختفت وحلت محلها وجوه جديدة، كثيرون من أهل الحارة نزحوا منها، ونزح إليها قادمون جدد، أتوا من أحياء أم درمان القديمة ومن حارات أم بدة، الجنجويد فعلوا فيهم ما لم تفعله كل القبائل البربرية من قبل، قتلوا، اغتصبوا، نهبوا، دمروا، وحرقوا، وطردوا الناس من بيوتهم. بعد فراغه من الصلاة، وخروجه من المصلى ذهب نحو مبردة ماء كان مداوماً على الشرب منها، لم تنزل نقطة ماء واحدة من صنبورها، يبدو أنها لم تتغذى بماء منذ فترة طويلة، نظر في نخلات باسقات ثلاث، جدائلها مصفرة شاحبة اخضرار، الأرض أسفلها مغطاة بنوى قديم وورق شجر وأوساخ، شجرة جوافة، أوراقها نصف ميتة صفراء يابسة، صنابير ميضأة نصفها محطم، تعجب عندما رأى جاره يمشي أمامه، ضابط سابق في الجيش، كل من له صلة سابقة بالجيش بحث له عن منجا يلجأ إليه، إلا قليلون وهو منهم، مستهدفون من الجنجويد، مصيرهم إما تصفية أو حبس، عادت إليه هلوسته: (على نفسها جنت براقش، لما كانت الشوارع تهتف: (الجنجويد ينحل)، كانوا يقولون: (الجنجويد أتوا من رحم الجيش)، والآن أبناء العقوق يأكلون رحم أمهم، يأكلون من صنعوهم ومن مكنوهم، ويأكلون معهم شعباً كان نائماً في العسل، غير واعي ولا مدرك لما يحاك في خفاء لقتله وتدمير بلاده، وسيأكلون كل من يقف معهم الآن إذا ما دانت الأمور لهم، مخطط شيطاني هدفه طرد الناس من بيوتهم وأرضهم، وإتيان بأقوام جدد، متناسين أن الأرض لله يورثها من يشاء من

عباده)، لحق بجاره، تعانقا في حرارة، سأل كل منهما الآخر عن أحواله وأحوال أهله وأولاده، وحكى كل منهما للآخر عن مآسي سببتها الحرب للناس، سأله عن السفر إلى بورتسودان فهو كثير السفر إلى هناك، دله على مكان الحافلات الجديد ونصحه بالسفر أولاً إلى عطبرة، ومواصلة السفر في اليوم التالي إلى بورتسودان لتفادي مشقة مبيت في الطريق، ودعه أمام باب بيته عندما رأى جاره أبوعلي قادماً من ناحية بقالة البرقو، الناس مولعون بتسمية محالهم بقبائلهم، مرض من أمراضهم المتجذرة فيهم التي أوردتهم موارد التهلكة، فيما يعرفه من معارف أنها سمة من سمات التخلف التي تقعد بالمجتمعات عن التطور، ذهب إليه، كذلك تعانقا في حرارة، وسأل كل منهما الآخر عن الحرب وما آل إليه مآل وحال، سأله عن شمشرة، طرفة، التيمان حسن وحسين، بنت قضيم، والدهباية وولدها المفعوص رنقو، أجابه بأن شمشرة قال: (ده طرفي من حارتكم دي أنا ماشي لي أهلي في الجزيرة)، وطبعاً الجنجويد حصلوه هناك، ما معروف حي ولا ميت، طرفة كلامه كمل تب، قال: (أنا زي السمكة في المويه، مويتي الضحك والأنس، ما دام ده ما في أنا ماشي أهلي في القولد في الشمالية، «في القولد التقيت بالصديق.. أنعم به من فاضل صديقي، خرجت أمشي معه للساقية.. ويا لها من ذكريات باقية، فكم أكلت معه الكابيدا.. وكم سمعت آور أو ألودا...»)، التيمان حسن وحسين قاعدين في بيتهم في الحارة في أمان الله، ما زي تيمان الفتيحاب المنغوليان، لعنة الله عليهم، اشتغلوا مع الجنجويد، كشفوا لهم أسرار كل الحارات، دلوهم على بيوت الضباط والتجار، بعد أن كانوا يسوقون عربات كارو، صاروا يسوقون سيارات فارهات، وتزوجوا بحوريتين جميلتين، أما بنت قضيم التيمان حسن وحسين طلعوا من رأسها، ما عندها حاجة في البيت عشان تقول انقلبوا كدائس ولا نمور، والدهباية وولدها رنقو حسبوها حساب صحيح مشوا على أهلهم في نهر النيل، أهل الحارة الباقين فيها يمكن حسابهم على أصابع اليد؛ ودعه ومشى على البقالة، سقفها البلدي بنى عليه العنكبوت، نصف رفوفها محشوة

هواء، زجاجات المياه الغازية فارغة مرمية في صناديقها، هيئتها توحي بأنها أفلست وصاحبها على وشك تصفيتها، سلم على الصبي الذي يعمل فيها سلام معرفه وسأله عن حاله وحال أصحابها وحال بقالتهم التي أوشكت على الفناء، رد بأن البضاعة شبه معدومة والموجودة غالية والناس مفلسين ما عندها قروش، أخذ شاي وسكر ولبن بودرة وعاد إلى بيته، الحمد لله البوتاجاز بخير لأن في الأنبوبة بقية من غاز، غالبية الناس للطهي في هذه الأيام يستخدمون في مواقدهم فحماً وخشباً وأعواد شجر يابسة وأثاثاً قديماً. لا منجاة له من الذهاب إلى سوق شنقيط لإحضار ما يكفيهم من طعام لمدة ثلاثة أيام، مر على صاحبه أبو قناية في مكتبته، نفس الابتسامة، نفس عدم المبالاة، لم تغير الحرب فيه خصلة، المكتبة معتمة مغبرة بالكاد يستنشق من بداخلها هواءً نظيفاً، رفوفها يغطيها غبار وتراب تنادي على من يترفق بها وينظف ما علق بها، بعد عناق طويل حار حكى له بلسان لاذع عن كل ما جرى من أحداث الحارة في غيابه، الشين وانضم إلى الجنجويد، أبو كلام وكلامه كمل، بقى أعمى وأطرش، ود الغجرية عمل عملات توديه في ستين ألف داهية لكنه شرد ما معروف ليه مكان، لكن ما بعيد يكون شاويش ولا صول مع الجنجويد، واحدين قالوا الجنجويدي لما يموت يقوم بعاتي يعني شبح يشيل بندقاً ويحتل بيوت الناس، وبعد السرد الطويل أنبه بمكر بأنه معدود من جملة الذين تولوا يوم الزحف، وأن ذاكرة الحارة تسجل، وسيأتي اليوم الذي تكرم فيه أبطالها وتهين فيه من خانها، ودعه ومشى نحو جبل من القمامة يسد طريقه إلى السوق، عبر خندقاً كبيراً، قفز فوق متاريس من أعجاز نخل خاوية وحجارة، صعد طرف تل ترابي، حفنة من دكاكين مفتحة أبواب، مطعم، مخبز، جزارة، بائعي خضار، وبائعات كسرة و ويكة وفول مدمس، وباقيها تنوم قطط وكلاب على أبواب مغلقة بطبل ومسمطة بلحام، وسوق دقلو، ملك الأسواق، الذي له فروع كبنك الخرطوم في كل مدائن وأرياف، يعج ببضائع وأثاث منهوب أشكال ألوان، يزحم المكان باعة

ومشترين من الجنسين ومن كل الأعمار، ارتكاز الجيش في مكانه، الجنود راجلين وراكبين على دراجات نارية وسيارات قتالية يذهبون ويجيئون، المكان ساحة فوضى عارمة، حمل أكياس حاجياته وتسلل بهدوء نحو داره، أم عياله في هذا الأثناء كانت قلقة عليه، خاطبته بنبرة حادة:

- (يا حاج مشيت وين، ما عارف الدانات في أي لحظة ممكن تقع، ما سامع أصوات المدافع؟).

- (يا أستاذة، الجوع كافر، لازم نشوف لينا حاجة نأكلها).

- (خلاص ترجع بسرعة، ما تقيف مع فلان وفلتكان، وتتفاصح في فارغة).

- (أها موضوع السفر، غداً أذهب للموقف الجديد، استكشف الحاصل شنو، وبعد غد إن شاء الله السفر إلى عطبرة).

- (اتصلت بولدنا بالهاتف وسوف يكون في انتظارنا بموقف الحافلات هناك).

- (أترك الحوامة في الفاضي، والله يستر علينا لمن نغادر بالسلامة).

- (أنا ما فوقي حيل للحوامة، ومن هسي يا سرير جاءك بلاء).

وهل كل من رقد على سرير هو نائم، للنوم شروط، منها الالتزام بجدول لنوم، الانتباه لطعام لا جائع ولا متخم، توفير بيئة مريحة، غرفة حرارتها لطيفة ومظلمة وساكنة، تقليل قيلولة خلال النهار، ممارسة أنشطة بدنية رياضية، وسيطرة على القلق، وهذه الشروط انتفت منذ زمن بعيد، منذ أن اندلعت الحرب، جفاه النوم، قسمه ووزعه على جيرانه، وعلى كل من نكبته وسحقته الحرب، تململ في فراشه، بين صاحي ونائم غشته كوابيسه التي له بالمرصاد: (قتل مسلم أهون عند جنجويدي من بصقة يبصقها على الأرض، إنه جاهل أن قتل النفس من أكبر الكبائر، ولا يعرف حتى ما هي الكبائر، من يقتل مسلماً متعمداً جزاؤه: جهنم خالداً فيها، غضب الله، لعنة الله، وله عذاب عظيم، يوم القيامة يجيء بالمقتول ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دماً، يقول: يا رب قتلني هذا، حتى يدنيه من

العرش، فكيف إذا قتل ظلما أعداداً كبيرة، يجتمعون عليه ويجيئون به أمام الله فيقولون: يا رب سل هذا لم قتلنا؟ مشهد يوم الحساب عظيم، يقتص الله للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، فكيف حقوق مسلمين قتلهم هؤلاء المجرمون ظلما وعدونا، ويا للعجب من هم الذين قتلوهم ومثلوا بهم؟ إخوانهم في الدين والوطن، اختلقوا تبريرات باطلة وأسباب واهية، وأحداث مفبركة، ديمقراطية، مدنية، وتهميش، هذه بضاعة الدنيا التي يسوقونها، رائجة هنا، ولكنها كاسدة هناك، ما من محاسب لهم في الدنيا، أشرار يحمونهم، يقتلون والفائدة لغيرهم، يبيعون آخرتهم بدنيا غيرهم، إنهم أغبياء، بلهاء، وسفهاء، إنهم بهائم، بل هم أضل، في يوم الحشر يتمنون لو كانوا تراباً أو حجارة؛ دانتي في كوميديا إلهية تخيل حال الطغاة والقتلة في الجحيم، في الأنشودة الثالثة رأى دانتي حشداً من الطغاة في أعماق الجحيم يجرون عراة الأجسام في أوسع دوائر الجحيم، أطبقت عليهم الحشرات تلسعهم وتدمي وجوههم، يختلط دمهم بدمعهم ويسيل على الأرض، تلتهمه ديدان كريهة مزعجة عند أقدامهم، وفي الأنشودة الرابعة، ظهر نهر تغلي فيه الدماء، يعذب فيه مرتكبو خطيئة العنف، رأى سيلاً من القناطس مسلحاً بالسهام، تدور على النهر بالألوف، تضرب بسهامها من يعلو من المعذبين، رأى الطغاة الذين غرقوا في الدم حتى عيونهم، والقتلة الذين غطسوا حتى حناجرهم، ومعذبين آخرين غطسوا حتى صدورهم لخفة آثامهم، لو رأى دانتي أو سمع بما فعله الجنجويد لأخذت الكوميديا منحىً آخراً أكثر ألماً وتنكيلاً وعذابا. عند ضحى اليوم التالي، وصوت قذائف قوية متتابعة لمدافع كانت داخل خور مرزوق قدموها إلى موقع جديد طرف الحارة، يصم الآذان ويبعث على الجنون، مشى أولاً صوب ورشة الإلكترونيات فله مع صاحبها الحمش وشائج أخوة قديمة، ومن العار أن يأتي الحارة ويذهب ولا يمر عليه، وجده داخل كشك حديد كان مهملاً أمام ورشته، تعانقا عناقا طويلاً، حكى كل منهما للآخر حكايات تشيب لها رؤوس الولدان، قال الحمش بنبرة لا تخلو من أسف ومرارة: (من كان

يتخيل أن حالنا ينحط إلى هكذا درك أسفل، حضارة ومدنية بنيناها في قرون دمرها برابرة جنجويد في ساعة، ومن مهندس إلكترونيات تحولت إلى طباخ يبيع فتة لمن معه فلوس ومن جيبه خالي الوفاض)، ودعه وداع مسافر ومشى نحو سوق شنقيط، ركب ركشةً عامة مع راكبين آخرين إلى مكتب كهرباء الثورات، انطلقت بهم بين تلال قمامة، وبين فينة وأخرى يبدو من يحملون أشياءً على عربات كارو، يظهر عليهم أنهم من أسياد سوق دقلو، عبر جسراً مبنياً فوق خور أبي عنجة، مر بمحطة محروقات، خاوية على عروشها، سيارات محطمة مرمية هنا وهناك، دلف إلى يمينه ومشى حتى وصل الموقف، باصات سياحية ذاهبة إلى بورتسودان وإلى مدن ولايات شمالية كلها مصطفة هناك، زحمة ما بعدها زحمة، الناس سئموا حياتهم، فقدوا أمناً وأماناً، وفقدوا بيوتهم، ما بقيت لهم حيلة إلا أن يهاجروا ويتركوا الجمل بما حمل، ويا روح ما بعدك روح، سأل عن باصات عطبرة، أجابوه بأنها تبدأ في التحرك منذ الساعة العاشرة صباحاً، يعني الحضور للموقف قبل هذا الموعد، ولا يوجد نظام حجز، يعني تحضر بمتاعك، تقطع تذكرتك، تركب الباص الذي عليه الدور، أوراقك الثبوتية تكون معك، والتفتيش دقيق، خرم إبرة ما في حاجة تمرق كده ولا كده. شد الرحال إلى بيته، بيته الآن ولا يعلم هل سيكون بيته في مقبل الأيام، يحتله جنجويد، تمسح به الأرض دانة، أم يهده زلزال، فالزلازل تصحب النوازل التي تصيب عصاة الناس، حدث أم عياله بما علم، اتفقا على أن المغادرة صباحاً إلى أرض لا تُسْمعُ فيها أصوات قنابل ودانات وأزيز طائرات. قضيا ليلتهما وهما فرحان بقرب خروجهما من أتون محرقة يشعلها برابرة، وبقرب ملاقاة أحبتهما، وحزِينان على أبرياء طيبين يتعرضون لانتهاكات جسيمة لا إنسانية في كل لحظة، لا حيلة لهم إلا البقاء. بعد أن ودعا جيرانهما وأعادا إليهما مفاتيح بيتهما ركبا ركشة لواحد من أولاد الحارة ومعهما حقيبتيهما وانطلقوا نحو موقف الحافلات، قام الولد الطيب بكل الإجراءات وكفاهما شر كثير من المطبات، وبعد أن خضعا لإجراءات

تفتيش صارمة شكراه على وقفته التي لا تنسى وودعاه وجلسا على مقعديهما، ظلا قابعان عليهما حتى الساعة الحادية عشر قبل الظهر لحظة الانطلاق، الركاب جالسون يندبون حظهم العاثر الذي رماهم في هذا الباص المشؤوم، ويلعنون الحرب وأمها وأباها ومن تسبب فيها، ولا مغيث ولا مجيب لمستغيث، تخطى بهم الباص صينية كبري الحلفاية، انطلق شمالاً نحو وادي سيدنا، منطقة عسكرية استراتيجية فيها قاعدة جوية، أوقفوهم في ارتكاز جيش كبير، خضعوا لتفتيش، يعني تفتيش، ما في رحمة، أوراق تكون تمام، سؤال منكر ونكير، ما في حاجة اسمها ذكر ولا أنثى، كله عند الحلاق شعر، مروا بعدة ارتكازات وبعدة قرى، الشيخ الطيب، الوادي الأبيض، الوادي الأخضر، الحجير أم دوم، أرض فضاء، تتناثر شجيرات على جانبي الطريق، ثم بدت لهم جبال بكاش من جهة الغرب، ثم وقفوا عند ارتكاز كبير وبدا لهم من بعيد حاجز ترابي عالي يمتد على مد البصر، قالوا إنها حواجز وخنادق دفاعية وألغام مدفونة لحماية المنطقة من أي هجمات للجنجويد، وبعد أن خضعوا لإجراءات تفتيشية أكثر تشديداً وصرامةً انطلقوا نحو المتمة، مشهد عجيب، يجيب على كل من يسأل لماذا يطمع الطامعون في هذه البلاد، العالم مقبل على حروب لأجل غذاء وماء، ولو دخلها جنجويد أعداء إنسانية وعمران وجمال لخربوها كما خربوا مشروع الجزيرة، الأرض مسطح أخضر على مد البصر يمين ويسار طريق الإسفلت، أشجار مانجو وقريب وبرتقال نضارتها تسحر الأبصار، ونشر ريحانها يكاد يضمخ هواء مكيف الباص، ومن حولها ينبت فول مصري وبصل وفاصوليا وغيرها من خضروات، عبروا كبري المتمة الرابط بين المتمة من جهة الغرب وشندي جهة الشرق، ومن بساتين إلى بساتين، دندن بمزمار روحي خافت بكلمات تلك الأغنية الخالدة على مر الدهور، (يا حليل ربوع شندي.. بلد الجمال عندي- الفيها أنا فني.. والمتمة أمان- نذكر وطنا دوام.. سيبو الخلاف يا عظام- دايرين يكون لينا شان- مجلس نبيل طاهر.. فيهو الأدب زاهر.. بي نيلنا بنفاخر- وبي وطنا السودان.. في

الشاطئ يا حبان- ساهرتو بينا)، لم يتنسم عبير شندي إلا لدقائق معدودات عند نزل بعض الركاب ثم انطلق الباص نحو عطبرة، مروا بالبجراوية، المشهورة بأهراماتها التي لا ترى من هنا، ثم الدامر مدينة شيوخ المجاذيب، قبل الدخول إلى عطبرة مروا بثلاثة ارتكازات آخرها كان لا يقل في شدته عن سابقيه، استقبلتهم بسكة حديدها، ومصانع أسمنتها، وتاريخ نضالها الوافر، (مدينة أهلها طوائف وقبائل من كل فج، دار ثوار، (دار حديد ونار)، هبة نهر أتبراوي، هبة نيل، زمن الفيضان (الأتبراوي) عنيف، يحطم ويجرف كل ما يقابله، رئاسة سكك حديد السودان، مدينة عمال، دراجات هوائية، مكتبة بلية، مركز ثقافي بريطاني، مكتبة سكة حديد، مكتبة دبورة، مكتبة ثقافة، إستاد كورة، ميدان مولد، حي موردة، حي سوق، أم بكول، مربعات، سودنة، حسن خليفة (أنا سوداني أنا.. أنا سوداني أنا- كل أرجائه لنا وطن.. إذ نباهي به ونفتتن- نتغنى بحسنه أبداً.. دونه لا يرومنا حسن)، «وآخر الرحلات كانت أتبرة.. حيث ركبت من هناك القاطرة، سرت بها في سفر سعيد.. وكان سائقي عبد الحميد، أعجبت من تنفيذه بدقة ليسلم المسافر...». استقبلهما ابنهما صدام وصحبه الكرام، أخذوهما إلى ضاحية أم الطيور، نزلوا نزلة عند مدخل جسر عطبرة، انطلقت بهم السيارة في شارع ترابي على جانبيه تنمو أشجار كثيفة من الموسكيت والطلح والسدر، مروا بمصنع إسمنت قديم مهجور، ثم ضاق الطريق الذي يفصل بين بيوت الضاحية ومزارعها التي تمتد حتى النيل الذي يرى من عندها، وقفوا أمام مضيفة كبيرة للضيفان، أمامها سقيفة عالية تطل على مزارع، وخلفها مجمع يضم بيت أب وأم، وبيوت أولاد، قابلوهم بكل حب وترحاب، قضوا معهم خمسة أيام في نعيم دائم، لا يكدره إلا برد شتاء قارس، يصفع الوجوه، ويسبب إنفلونزا وكحة ورشح، لذلك لم تفارقه ملاءته الزرقاء الخشنة، ولا يكدره كذلك إلا لدغات بعوض ونمتي لا ينامان ليلاً أو نهارا، يذهب الرجال نهاراً لأعمالهم، فعلاً رجال لأنهم فقدوا كل ما يملكون في الخرطوم، الجنجويد احتلوا بيوتهم، نهبوا محلاتهم

التجارية، نهبوا سياراتهم، عبارة واحدة لا تتبدل يرددونها بقلوب مؤمنة: (المال مال الله والناس مستخلفون فيه، يأتي بمشيئته، ويذهب بمشيئته)، ويذهب هو إلى حيث المناظر التي تخلب الألباب، إلى الجروف وإلى النيل الذي احتواها من الجانب الآخر، يحكي لها عما في داخله من شجون وأحزان، يحكي لها عما أصاب وطنه من دمار وخراب لا يخطر على بال إنسان، يشكي لطيور القطا والقماري والعصافير التي تحلق في الأجواء حرة طليقة كما تشاء، ولطائر أوز وبط يبطبط بطبطةً منغمةً في حظيرته، ولناقة مربوطة وحوارها، ولبقرة وعجل صغير تدر لبناً يكفي البيت والجيران، ولأشجار طلح وسدر فتحت أزهارها، ولنحل بنى خلاياه بين أغصانها، ولشياه تنط ولغنم تمضغ فوق عشب أخضر، ولفراشات طائرة حائرة، ولأعواد عيش ريف تتمايل مع الريح يمنةً ويسرى، ولبرسيم أخضر طلع نواراً بنفسج، ولكمائن طوب نشرت أبخرتها رائحة عطر صندل، ولنيل رسامٍ رسم على صفحة مائه ظلالاً وأضواءً وأشجارا، نحاتٍ نحت طيناً وأحجارا، فنانٍ عزفت أوتار أمواجه ألحانا، عطارٍ نسائمه ترش ياسمينا وريحانا وصبارا، وفي المساء يعودون من أعمالهم، ويعود فتيانهم وبنادقهم على كتفهم بعد أن أدوا ما عليهم من خدمة في ارتكازات مستنفرين، يجلسون حول مائدة العشاء، في أكل وأنس وحكي لنوادر تنسيهم جنجوييداً وموتاً وحربا. ودعوهم في صباح اليوم السادس، وفي نفوسهم حسرة، وأمنيات صادقات أن يعودوا ويجدوهم وقد تغير حال البلاد والعباد وعادت المياه إلى مجاريها؛ الميناء البري الذي أخذوهما إليه تحفة معمارية، إجراءات التفتيش فيه دقيقة وسريعة، تحرك بهم الباص عند العاشرة صباحاً، اتجه شرقاً، تضاريس آخذة طابعاً صحراوي، صحراء بيوضة، أول قرية كانت (سوقدير)، بيوت بائسة من أعواد حطب مشتتة هنا وهناك، وإطارات تالفة تشد الانتباه مرمية على جانبي الطريق، ثم وصلوا إلى هيا، محطة كبيرة، بها استراحات لراحة الركاب، وباعة يعرضون منتوجات محلية كثيرة، ما أعجبه منها لب ثمار الدوم، لا

تقل لذة عن ثمار شجرة زيت النخيل، الأولى يمضغ ويبلع لبها ويمتص رحيقه، والثانية يشرب ماؤها، حمل منها كمية كبيرة، كانت لهم خير مؤنس أثناء رحلتهم، وخير هدية لمن هم ذاهبون إليهم، بعد أن كانوا يشاهدون من بعيد سلاسل جبال بحر أحمر رمادية وغرابيب سود، مع حلول الظلام اقتربوا منها أكثر وأكثر، ثم دخلوا وسطها، الطريق سفلتته قديمة وسيئة، مليء بحفر ومطبات، حلزوني متعرج بدرجة مخيفة، والباص ينطلق بسرعة لا تتناسب مع خطورة هذا التعرج، لم تخف أم عياله خوفها وكذلك هو لم يخف انزعاجه، وبعد أن كانوا في حالة صعود تئن وتشخر لوطأته ماكينة الباص دخلوا قمة ينحدر منها الطريق وينحرف بدرجة جعلت أبصار الركاب تزوغ، وقلوبهم تبلغ حناجرهم، تحت القمة هوة سحيقة، لا يرى لها قرار في ظلمات تراكمت، ظلمة نفوسهم ظلمتها وظلمة الليل البهيم، سمع ركاباً يهمهمون: (هذه هي العقبة الداخل لها مفقود، والخارج منها مولود)، تذكر قصصاً مأساوية حكاها الناس عنها، دائماً ما تنتهي إما بموت فظيع، أو بموت وحرق معاً، ولا منجاة لأحد، والأسباب جمة، منها اصطدام بحافة الجبل لأن السائق الغلبان سهران متعب، انفجار إطار من الإطارات، عطل مفاجئ في الماكينة، إن وصفوها بفلم من أفلام الرعب التي لا يسمح لصغار السن بمشاهدتها صدقوا، وإن وصفوها بمثلث برمودا أو مثلث الشيطان، أو مثلث الموت، أو مقبرة الأشباح، كذلك صدقوا، تعود هذه المسميات لمزاعم بوقوع كثير من الحوادث الغامضة، والغموض يكتنف المكانين، خاطبته أم عياله بنبرة لا تخلو من حسرة قائلة:

- (الله يستر، بلدنا كلها بقت عقبات في عقبات، طلعنا بشق الروح من عقبات جنجويد هناك، ودخلنا في نوع ثاني من عقبات).

رد عليها بنبرة هادئة لعله يبعث فيها نوعاً من طمأنينة قائلاً:

- (يا حاجة، ما دام ربنا نجانا من عقبات فائتة ح ينجينا من عقبات جائية).

وصلوا إلى (جبيت)، محطة كبيرة، مدينة عامرة تحيط بها سلاسل جبلية، هنا بيت القصيد، سلسلة من الباصات واقفة، ذكرته بذلك القطار، أطول وأبطأ قطار في العالم، قطار الصحراء في موريتانيا، أو قطار الحياة، يبلغ طوله كيلومترين، عبارة عن ثلاثة أو أربعة قاطرات تجر عربة ركاب واحدة، ومائتين عربة لنقل خام الحديد، هنا ارتكاز ونقطة تفتيش، تفتيشها أدق من كل ما صادفوه من تفتيش، استلقى بعض ركاب فوق حصى، استتر بعضهم بشجيرات موسكيت وهم يخرجون ما كان محبوساً في مثانهم من بول، ودخل بعضهم في جدال طويل حول ما هم فيه من عذاب مستمر، لعنوا حرباً ومن أشعلوها، لعنوا جنجويداً أذاقوا الناس الأمرين، وفوق الأمرين طردوهم من بيوتهم وملؤها عفناً وقذارة لأنهم أصلاً يعيشون في خلاء وما عندهم دورات مياه، بعد ساعة وأزيد تحرك بهم الباص، مروا بسنكات، تبدوا مبانيها من بعيد، ومن خلفها سلسلة جبلية ممتدة، منظر جميل بديع، ثم شاهدوا مبان من بعيد، قالوا لهم هذا هو مصيف أركويت المشهور، (فردوس الشرق)، مناخها معتدل طول السنة، قمم جبالها تغطيها غيوم، تحفها جبال من كل الجهات، توفر راحة وهدوء لنفوس متعبة من رهق الحياة، ثم وصلوا مدينة سواكن، موقف للشاحنات، مركز تفتيش كبير، منعوا الركاب من النزول، صعد عسكرٌ على متن الباص، وبعد سؤال وإبراز لبطاقات أنزلوا من شكوا فيهم للتحقيق، وكما في جبيت أخذت العملية زهاء ساعة وأزيد، تنفسوا الصعداء عندما وقف الباص في الميناء البري والساعة بلغت بعيد منتصف الليل، يعني دخلوا في وقت حظر التجوال، المكان

يغص بأعداد غفيرة من الناس، بعضهم نائمون وسط حقائبهم، بعضهم حائرون ماذا يفعلون، وبعضهم يسخطون ويتكلمون كالمجانين، بعد أن يئس من أن يأتي الحديث مع سائقي الركشات بنتيجة فتح الله على واحد منهم غامر بأخذهم إلى بيت أهلهم بحي الأغاريق في وسط المدينة، اعترضتهم في الطريق عدة نقاط تفتيش، لحسن حظهم أن السائق جندي في الخدمة، يعمل ساعات فراغه في هذه المهنة لأن راتبه لا يكفيه، ربما أن هذا شفع له عندهم، وربما أنهم رقوا لحالهما، عجوزان قادمان من أرض حرابة إلى أرض سلم، تقاذفهما أمواج بحر لجي هائج، لا يدريان ما هو مصيرهما، إلى بر أم قاع. وجدا أقاربهما (سعد)، وزوجه وأولاده وبناته في انتظارهما، كانوا على اتصال به بالهاتف، نام ليلته تلك تحت ناموسية منعت عنه شر بعوض لم يضن عليه بألحان طنين متواصل، تغطى بملاءته الخشنة الزرقاء التي طالما كفته شر البرد القارس، ربطت النوم من قرونه بخيوط نسيجها وجرته مطيعاً إليه.

(٢٢)

جلسا هو وسعد يرشفان شاي الصباح ورائحة البحر تستثير فيهما كثير من لواعج الماضي، وهواء بارد منعش يهب من ناحية البحر، شغلا شريط ذكريات مشتركة، عندما كان سعد في محمد قول، بلدة هادئة تنوم وتصحو على موسيقى أمواج البحر وهي تلثم رمال شاطئها كعاشقين التقيا بعد فراق طويل، كان مسئولاً عن محطة صيد الأسماك هناك، اسم كبير لقرية صغيرة، بيوتها من خشب، أهلها يربون جِمالاً ويصطادون سمكاً، «وبعدها استمر بي رحيلي.. حتى نزلت في محمد قول، وجدت فيها صاحبي حاج طاهر.. وهو فتى بفن الصيد ماهر، ذهبت معه مرة للبحر.. وذقت ماءً لا كماء النهر»؛ سعد عنده قوارب ولنشات تعمل بمحركات، يدخلون أعماق البحر، ما يرزقهم الله من سمك يحفظونه في ثلاجات موضوعة طرف الشاطئ، تأتيهم شاحنة ثلاجة كل أسبوع، تحضر لهم الثلج وتأخذ صيدهم من السمك، لأنه في ذلك الزمان لا توجد طاقة شمسية ولا يحزنون، أكبر أولاده كان عمره لا يزيد عن أربع سنوات، والآن عمره يقارب الثلاثين، كان ولداً عفريتاً يستيقظ مبكراً من نومه ، يذهب إلى الثلاجة، يعطوه سمكة واحدة، يأتي بها إلى الموقد وأمه تعد شاي الصباح، يشويها على الجمر، ويبدأ في تناولها حتة بعد حتة في فرح غامر، وأمه ترمقه بعينين مبتهجتين، قضى معهم شهراً كاملاً، من أمتع الشهور التي ما زالت عالقة في ذهنه، خاطبه بنبرة أتت من زمن بعيد قائلاً:

- (شوف الأيام يا حاج سعد كيف جرت، وكيف انتهت، كانت الدنيا كيف، وهسي كيف).

رد عليه بنبرة تفوح منها رائحة أيام خلت، عطرتها أخوة ومحبة قائلاً:

- (يا حاج من طال عمره يشوف كثير ويسمع كثير، ربنا يدينا حسن الخاتمة).

- (أنتم في نعمة والله، لا صوت قنابل ولا دانات، ولا منظر كدمولات وجوه شائهه فوق رؤوس شياطين قتلة، تثير نفوراً وغثيان).
- (لا أحد يا أخي يعلم ما تخبئه الأيام، لا يعلم الغيب إلا الله، نسأله السلامة).

بعد يومين لحق بهما ابنهما صدام، سفرهم للسعودية لا يتم إلا بعد إكمال إجراءات الدخول في بلد ثاني، وهم اختاروا دبي لوجود صهره هناك، قضوا في بورتسودان زهاء الأسبوع، مدينة مكتظة بأناس وسيارات، أغلبهم وافدون أتوا من ولايات الحرابة، عبارات ترحيب، (دبايوا)، (أتينينا)، (أوكوبام) تدندن في كل مكان، نظافتها لفتت انتباهه، جاء من حارة في مدينة جعلتها الحرب مستعمرة قمامة وعفن وأكياس نايلون، حيثما وجدت هذه الأكياس التي لا فرق بينها وبين جنجويد ينتفي شيء اسمه صحة بيئة، أكياس النايلون هنا كالجنجويد كالمخدرات ممنوعة يستعيضون عنها بأكياس ورق، المخالفة جزاؤها غرامة مالية كبيرة، بالمدينة فنادق كثيرة، كورنيش بحرها يضج بالحركة، معروضة فيه مصنوعات شعبية من قواقع بحرية وصدف، منتجع عروس، سِقالة سوق السمك، ميناء وسفن راسية، متنزهات، شاليهات عصرية، مقاهي وأسواق شعبية، كل ذلك لم يجذبه، لم يحرك فيه شعرة واحدة من شعرات رأسه الأشيب، جذبه وسحره وأشعل جنونه مكان واحد، شاطئ إصلاح قوارب صيد الأسماك بالقرب من بيت سعد، يذهب إليه صباحاً حاملاً كيس نايلون كبير به معدات صيد بسيطة، خيط عصب مربوط في آخره سنارة وبعدها ثقالة شريحة صغيرة من قصدير، كلها ملفوفة على قطعة صغيرة من ليف صناعي، وطُعْم مكون من دقيق قمح معجون بصفار بيض وبهارات، وقارورة ماء شربه، يمر أولاً بمبنى إدارة مصائد

الأسماك ثم بمطعم شعبي فريد، سقيفة كبيرة مساحة الأرض التي تظللها لا تقل عن مائة وخمسين متراً مربعاً، سيارات تزحم المكان، يأتي الزبائن من بعيد للاستمتاع بتناول قراصة، بدمعة، أو تقليه، أو فسيخ، وعلى بعد خطوات منه شاطئ البحر، يمشي بين قوارب تحت الصيانة، يلقي التحية على عمال منهمكون في دهنها، ألفوه وألفهم، يصعد فوق لنش مهجور، ومنه إلى أحد القوارب، ثم إلى قارب آخر، فيكون في داخل البحر بمسافة معقولة تتيح له صيداً بمزاج رائق، تعرف في نفس المكان على رجل عجوز مثله وشاب ظريف، كانا يأتيان يومياً للصيد لا يغيبان أبداً، تعلم منهما كثيراً من فنيات الصيد، هذه الفنيات في البحر تختلف عنها في النيل، مارسه من قبل في خزان الروصيرص، يلحمون السنارات من مقاس كبير في شكل خطافات وعند بوابات الخزان حيث اندفاع المياه ينزلونها بدون طعم ويكررون جذبها بقوة إلى أعلى، فتنغرز في أسماك جرفتها التيارات، وعلى شاطئ نيل الحتانة حيث شجيرات نامية على القيف تعيق عملية الصيد فيضطرون إلى استخدام أعواد طويلة يربطون عليها سنارات بخيوط عصب، أما هنا فما عليه إلا أن يجلس طرف القارب، ويرمي سنارته ويرخي الخيط إلى عمق معقول ويلف طرفه حول سبابته، وعندما يحس بنقر السمك يجذبه إلى أعلى، إذا حالفه الحظ يخرج سمكاً يتلوى بعنف طلباً للنجاة، في أول أيامه ما كان يأتي بسمك كثير، ولكن يوماً بعد يوم، نمت قدراته وملكاته، صار يعود قبيل المغرب وكيسه مملوء برزق وفير، وصحبته مع العجوز والشاب في كل يوم تتعمق أكثر، يتشاركون إفطار قراصة الفسيخ الذي يحضره الشاب من ذلك المطعم، علاقته بالبحر ليست علاقة سمك وكفى، البحر يتكلم معه، يناجيه، يعزف لروحه ألحان وأنغام وأغاني وأشواق، الأشواق إلى

الهدوء والطمأنينة والمحبة والسلام، ينسيه كل همومه وغمومه، ينسيه الحرب وويلاتها، ينسيه جنجويداً ووجوههم وأفعالهم القبيحة، ينسيه أنه واحد من نازحين ولاجئين مهجرين قسراً من بيوتهم، التقى بكثير من أقاربه ومعارفه الذين نزحوا إلى هنا، من بينهم أبو البشر ابن عمه الذي غادر مكرهاً بلده دار السمبر إلى ود مدني، وغادر ود مدني مكرهاً إلى هنا، حكى له حكايته وقلبه يتفطر ألماً وغبناً: (كنا في دار السمبر عائشين في أمن وسلام، نرى الجنجويد وهم يمرون من بعيد في طريق الإسفلت، ثم بدأوا يدخلون السوق، ثم دخلوا داخل البيوت، وحفر أهل البلد الخنادق وأقاموا التروس، وتاتشرات جنجويد قتالية، وسيارات منهوبة، وشاحنات ودفارات محملة بغنائم أصبح منظراً عادياً يومياً في طريق الإسفلت، مصحوباً بأصوات طلقات بنادق ورشاشات، خفنا على أولادنا لشعورنا بعدم الأمان، فضلنا الرحيل إلى الأبيض، مع أنها شبه محاصرة، ولكنها أكثر أمناً لوجود قوات الهجانة هناك، حالنا هو حال مستجير من رمضاء بنار، تأكد لنا أن الأبيض واقعة تحت ضغوط حصار محكم، المناوشات تحدث من وقت لآخر في أطرافها، أصوات الدانات وقذائف الكاتيوشا منعت أطفالنا النوم، تغيرت طباعهم، سيطر خوف على نفوسهم، خفنا عليهم، رجعنا مكرهين إلى بيتنا في دار السمبر، ضغوط نفسية تفاقمت علينا هناك، أفسدت علينا حياتنا، بدأنا نحس ونشعر ببوادر يأس وقنوط، ولا يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون، جلسنا في بيوتنا كألواح خشب مسندة بسبب عدم العمل والشغل، خفنا ضياع أولادنا بسبب قفل المدارس، كل هذه الأسباب أجبرتنا على الرحيل إلى مدينة ود مدني، بحثاً عن أمن وعمل ومدارس، اتفقنا مع أصحاب شاحنتين (زد اس)، رفعنا عفش بيتنا في

شاحنة وسيارتنا صغيرة هونداي في شاحنة أخرى، رحلتنا كانت قاسية مرة، خصوصاً على أولادي وأمهم، مررنا بقرى شريم، الدوم، والناظر، والكرامشة، ثم بلدة أم دم حاج أحمد التي دهم سوقها الجنجويد أكثر من مرة وأخذوا بضاعته وأمواله غنائماً، تناولنا فطورنا هناك، أخذنا قسطاً من راحة، ثم أخذنا زوادتنا وتوكلنا على الحي القيوم، قطعنا مسافات شاسعة، سهول خضراء مد البصر، «ومن هناك قمت للجفيل.. ذات الهشاب النضر الجميل، وكان سفري وقت الحصاد.. فسرت مع رفيقي للبلاد، ومرَ بي فيها سليمان على.. مختلف المحصول بالحب امتلا»، الموسم خريف، الجو طراوة، هواء منعش بارد، وكما تحيا الأرض الجدباء القاحلة بمياه المطر، كذلك أولادي خصوصاً أصغرهم، أنعش الخريف أرواحهم، وأصبحوا يغردون كالحمائم، ويتناطحون كالسخلان، نسوا كل المرارات، والأطفال أكثر نسياناً من الكبار، مررنا بقرى كثيرة، وبقهاوي كثيرة، أكثر ما أسعدهم شاي حليب، رشفوه ومصوه كما تمص الحملان ضروع أمهاتها، بتنا ليلتنا تلك خارج مدينة الدويم، خضعنا لإجراءات تفتيش دقيقة في ارتكاز للجيش، دبابات، وسيارات قتالية، وجنود يحملون السلاح، وسيارات كثيرة واقفة للتفتيش، المدينة مستهدفة والجنجويد ماهرون في تسلل بوسائل لا تخطر على بال، واقع الحال أجبر سائقي الشاحنتين على أن تكون رحلتهما حدها هنا، دخلنا الدويم ليلاً، العساكر تعبونا، قلنا لهم أننا ذاهبون للمبيت في ساحات جامعة بخت الرضا، لبعدها وخلوها من بعوض، بعد محاورة ومجادلة تركونا نذهب في سلام، قبل أن نكمل تجهيزاتنا للنوم نزل المطر، اضطررنا للاختباء تحت سياراتنا، مطر غزير وبرد شديد وأطفال ولا سقف يؤويهم ولا غطاء يدفئهم مأساة ما بعدها مأساة، في الصباح الباكر

أنزلنا سيارتنا وعبينا خزانها بالوقود، رفعنا عفشنا في دفار، وصلنا مدينة المناقل، التفتيش قبل الوصول إليها كان دقيق جداً، جعلنا في خوف من أن يلبسونا جريمة بأن لنا صلة بجنجويد، طالبونا بإبراز بطاقات الشخصية وأوراق السيارة، وأي وثيقة يمكن أن تبرئ ذمتنا من أي اتهام، وصلنا مدني والحمد لله بسلام، سكنا في بيت إيجار طرفها، وقعنا فريسة لغش وخداع، مواصفات البيت لا تتطابق مع عقد اتفاقنا مع مالكه، ثلاثة غرف بإيجار شهري خمسمائة جنيها، البيت غير مكتمل، لا أبواب ولا شبابيك، دخلنا في حيص بيص، إذا وجدنا العمل أو وجدنا المدارس، من يحرس لنا بيتنا؟ والمال الهامل يعلم السرقة ويقوي عين الحرامية، ومع كل هذي تحديات فشلنا فشلاً ذريعاً في إيجاد عمل لنا أو مدارس لأولادنا، زارنا كثيرون من أهل بلدنا المقيمون هنا، وفجأة ونحن لم نستقر بعد، وبدون مقدمات سمعنا أن مدني دخلها الجنجويد، مع أنه للمدينة مدخل واحد هو كبري حنتوب، فوجئنا بذلك بعد ثمانية وأربعين ساعة من فرحة غامرة بنصر غالي خرجت فيه كل البلد مواطنيها وجيشها في الطرقات يهللون ويكبرون ويزغردون، كان معنا ضيوف من أهل بلدنا في بيتنا، دخل علينا رجل من معارفنا، داعية من الدعاة همه في الدنيا الصلاح والحث على عمل الخير، مضروب بطلق ناري في فخذه، حار بنا الدليل ماذا نفعل له، قعدنا مع الضيوف نطمئن أنفسنا بالصح والكذب أن الأحوال ليس فيها ما يدعو إلى الخوف، خرجت إلى الشارع العام لأستجلي الأمور، رأيت أناساً مدنيين وعسكريين هاربين في اتجاه مدينة سنار، بعد برهة زاد عدد الهاربين، منهم من يهرول راجلاً، وسيارات وبصات تتسابق هاربةً في نفس الاتجاه، عند حلول العصر قررنا الخروج، كل الشواهد تشير إلى أنه لا بد مما ليس منه بد،

أحضرت سيارة كرين لحملي وأولادي ومعنا سيارتي، طلب السائق دفع أجرته مقدماً ونقداً، بعد جهد جهيد وأخذ من هنا وهناك أكملت له المبلغ، أتى ومعه ركاب على ظهرها، وبركوبنا معهم نحن، وضيوفنا، والرجل المصاب، وسيارتنا، لم تبق في السيارة السحاب مساحة نحمل فيها عفشنا، تركناه في الشارع على ذمة الجيران، تركنا أسرة، دواليب، شاشة، غسالة، ثلاجة، حواسيب، وحقائب في داخلها كل ما نملك من ملابس، حتى اللحظة لا نعرف مصير هذه الأشياء، كانت رحلة عذاب، نار جهنم موقدة، واقف على رجلي من مدني إلى سنار، من الساعة التاسعة والنصف مساءً وصلنا مع آذان الفجر، لأن الشارع مزدحم، ناس، عربات كارو، بطاحات، لواري، أي وسيلة نقل تخطر على البال، كنت في الطريق أتطلع في عيون أولادي وأمهم، الخوف يتملكهم، وددت لو أن لي القدرة على طمس أبصارهم في تلك اللحظات، حتى لا يشاهدوا المناظر التي أشاهدها، مناظر عجيبة لا يصدقها إلا من رآها رأي العين، الناس ماشين على أرجلهم يسابقون السيارات، صغارهم بين أديهم، متاعهم فوق رؤوسهم، أطفال، شباب، كهول، رجال ونساء، تركوا كل شيء وراءهم، كل واحد خائف على نفسه ينادي النجاة يا الله النجاة، تذكرت يوم الحشر، «يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»، صدق الله العظيم، وصلنا إلى استراحة زملائنا في العمل في سنار، وجدناها شبه خالية، بقي فيها موظف واحد، لأن أهل سنار نزحوا منها بعد أن سمعوا أن الجنجويد تعدوا مدني ودخلوا قراهم، سمع بخبرنا أقارب لزوجي في قرية من قرى شرق سنار اسمها (بادي)، جاءوا إلينا وأخذونا إلى قريتهم، غادر ضيوفنا إلى دار السمبر، عفشنا الذي أحضرناه معنا تركناه في الاستراحة، مكثنا معهم عشرة أيام، تركنا

سيارتنا معهم وسافرنا بحافلة إلى القضارف، وصلناها بعد يومين، نلف من قرية لقرية، لأنه مياه الخريف أغرقت الأرض وسدت الطرق، مضبات، وكباري، عرفنا بعد ذلك أن الجنجويد دخلوا قرية بادي التي كنا فيها ونهبوها، كانت رحلة شاقة، كابوس لن يفارقنا مدى الحياة، وصلنا اليوم التالي الفاو بجبالها العالية ونقطة الجيش التي تحرسها، ومنها إلى القضارف، وصلناها الواحدة صباحاً، بتنا في موقف الحافلات، ليلة سمارها الحرامية، حائمين وسط المسافرين طوال الليل، طردوا النوم من أجفانهم، ومع ذلك لم يسلموا من أذاهم، سرقوهم وسرقونا وبهدلوهم وبهدلونا، أناس طيبون مساكين مغلوبين على أمرهم يلقوها ممن؟ جنجويد من جهة، حرامية من جهة ثانية، عدم القرش من جهة ثالثة، كل الدروب سدت في وجوههم، في الصباح الباكر ركبنا باصات بورتسودان، مررنا بمدن كثيرة، الشواك، خشم القربة، كسلا، أروما، ثم بورتسودان، قطعنا مسافة سبعمائة سبعة وسبعين كيلومتراً، في أزيد من ثمان ساعات، يعني معاناة ما بعدها معاناة، وها نحن الآن في بورتسودان، وصلنا إلى قناعة أن بلادنا في ظل الحرب الدائرة أصبحت لا تطاق، الجنجويد خربوها، ونحن لا حول لنا ولا قوة، الحياة في مدني كانت غالية، بورتسودان أغلى منها، إيجارات السكن لا تطاق، أولادنا رأسمالنا على وشك الضياع، وجهتنا تحولت إلى مصر، سبقنا كثير من الأهل إلى هناك، ونحن الآن نعد العدة لذلك)، وبعد أيام قليلة غادر مع أولاده إلى مصر، أما الفحيل غادر وفي معيته أم عياله وابنه إلى دبي بعد أن ودعوا سعداً وأولاده وداعاً حميماً، وودع هو صحبه العجوز والشاب والبحر وداعاً دافئاً يليق بأيام حلوة قضوها معاً.

(٢٣)

غادرت الطائرة مطار بورتسودان، حوالي الساعة العاشرة مساءً، مطار عادي لا يرقى لمستوى المطارات الدولية في دول العالم الثالث، يفتقر لكثير من خدمات عصرية، إلى مطار دبي، وهو مطار ينافس أرقى مطارات العالم، وصلت حوالي الساعة الواحدة صباحاً، استقبل موظفو المطار المسافرين القادمين بحفاوة، أعطوهم شرائح إماراتية لهواتفهم، اتصل الفحيل بصهره الذي كان في انتظارهم، لم تستغرق الإجراءات وقتاً طويلاً، ومع سلاسة الإجراءات فالسائح والزائر منذ تلك اللحظة تحت رقابتهم ومتابعتهم الدقيقة، رقيب وعتيد الدنيا، التكنلوجيا الحديثة لم تترك شيئاً لعامل الصدفة، أقلهم ليموزين إلى مقر إقامتهم بوسط البلد، شقة مكونة من غرفة كبيرة بها ثلاثة أسرة، داخلها مطبخ صغير به بوتاجاز وثلاجة وغسالة وأواني طهي، بالإضافة إلى حمام، ودعهم صهره وذهب إلى مكان إقامته، لم يأتوا إلى هذا البلد كسواح وإنما جاءوه غصباً عنهم، لأن إجراءات زيارتهم للسعودية لا تكتمل إلا بالذهاب إلى بلد ثان، لأن سفارتها في بلدهم لا تعمل، انتظروا أسبوعاً كاملاً بعد قيامهم بحجز إلكتروني لمقابلة وكالة مختصة بإكمال الإجراءات في مجمع خصص لهذا الغرض، مع أنهم فعلوا ما فوق استطاعتهم، سألوا كل من يعرفون ممن مروا بهذه التجربة حتى لا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من أهل حظوظ تعيسة يجدون العظمة في الفشفاش، أمشي وتعال بعد أسبوع، وصرف على أكل وسكن، وكشف الحال في بلد غربة عيب ما بعده عيب، وبالفعل وقع المحظور طالبوهم بمستند جديد ما أنزل الله به من سلطان، حجزوا إلكترونياً لمرة ثانية بعد أسبوع، خلصوا مستندهم اللعين مع سفارتهم التي ما صدقت، لا تهمها معاناتهم كل ما يهمها جباية أكل سحت، ما دام أتوا إلى هنا فإن رقابهم سدادة وزيادة، ولا يهم ما تحت

البئر وغطاها، في المقابلة الثانية مرت الأمور على خير إلا بصمة عينه، فهو عجوز وبصمة العجائز قصتها طويلة، إذا ما فشلت أجهزتهم مع عينه التي أكل عليها الدهر وشرب يحولونه إلى مستشفى خارجي، ميتة وخراب ديار، لطف الله به نجحوا في أخذ البصمة بعد تلتلة مع جهاز آخر، أخذوا عنوان سكنهم وجوازاتهم وقالوا لهم: (مع السلامة، سوف تأتيكم جوازاتكم في مقر سكنكم فترقبوها). كثيراً ما كان يمشي بمفرده في طرقات وسط البلد، يستكشف هذا العالم الجديد، عمارات عصرية جميلة تطل على الشوارع الرئيسة، وخلفها بيوت قديمة يقطنها أجانب، غالبيتهم بنغال وهنود وباكستان، إيجار السكن بالسرير وليس بالغرفة، ما عندهم خصوصية، يخرجون وقتما يشاؤون ويعودون للنوم فقط، النظافة مبالغ فيها، لا صناديق قمامة ولا كلاب ضالة ولا قطط ولا نكاشو زبالة، إذا رميت منديل ورق مخالفة تدفع عليها غرامة، زهور وورود يجددونها مع المواسم تبهر الأبصار بجمال أخاذ، وأشجار زينة بأوراق خضراء تبعث الراحة وتهدئ الأعصاب، إشارات مرورية في كل مكان، الناس يقفون مع إشارات حمراء، ويهرولون يتدفقون كالسيول مع إشارات خضراء، نظام ما بعده نظام، كأنهم كائنات فضائية أو روبوتات، كان يجلس في المساء على أريكة حجرية لمنتزه صغير قريب من مكان إقامتهم، يرقب أولاد الآسيويين وهم يلعبون لعبة الكريكت المفضلة لديهم، ومع احترامهم لمشاعر الآخرين، أحياناً كرات عمياء تنطلق على غير هدى لتعكر على الجالسين صفو المكان. لموجدة يجدها في نفسه ما كان حريصاً على التمتع بما في هذه البلد من مزار سياحية وأعاجيب هندسية، وحتى صديقه البحر عليه قيود لا يستطيع أن يذهب إليه ويناجيه ويصطاد مما فيه من أسماك، بعد إلحاح شديد من ابنه ذهبوا إلى القرية العالمية، التي تجمع دول العالم في مكان واحد، تسوقوا في أسواق من مختلف الدول، ثم إلى حديقة الخور، شاهدوا

الدلافين ورأوا الناس يتفاعلون ويتصورون معها، وإلى سوق السمك، حيث اشتروا سمكهم المفضل وذهبوا بها إلى مطعم من مطاعم مطلة على شاطئ البحر، شوها لهم وهم جالسون على كراسي حول منضدة يتنسمون هواء البحر ويمتعون أنظارهم بمناظر خلابة وطيور البحر تحييهم بأجنحتها من بعيد، زاروا سوق نايف، من أقدم وأشهر الأسواق الشعبية، متاجره موزعة بين تجارة الأقمشة والملبوسات، والمنتجات الجلدية والالكترونيات؛ لم يذهب مع ابنه لأي مكان آخر ولو من باب المجاملة، ما فيه مكفيه، أحزانه وأحزان الحرب في بلده ما تركت له نفساً تستسيغ مباهج الدنيا، يعلم أن هذه البلد وجهة ترفيهية للسياح الذين يأتون للبحث عن الترفيه والمغامرة والتسوق وتذوق المأكولات، ويستمتعون بالتطور العمراني المذهل، وبالمقدرات الطبيعية والتنوع الحيوي وينعمون بمظاهر حياة فاخرة، من حفلات وعروض، وأطعمة ومشروبات، ورحلات بالقوارب، رياضة مائية، منتجعات صحية، مراكز لياقة بدنية، تسلية وألعاب، أنشطة ترفيهية ليلية، متاحف، رحلات خاصة، رحلات نهارية، جولات في الطرق الوعرة، ويعلم أن فيها معالم سياحية مميزة، برج خليفة، البرج الأطول في العالم لعدة سنوات قبل أن ينافسه برج الخور، أيقونة من أيقونات دبي المعمارية، يقصده السياح لأجل السباحة في قمته وتناول ألذ الأطعمة في مطاعمه، والاستمتاع بالمناظر الخلابة والتقاط أجمل الصور من منصات للمشاهدة ، جزيرة النخلة، سكي دبي، مدينة ثلجية، اثنان وعشرون ألف متر مربع مغطاة بثلج حقيقي لهواة ومحترفي التزلج على الجليد، آي إم جي، ستة عوالم ترفيهية مستوحاة من أشهر الشخصيات الكرتونية، وألعاب شيقة ومغامرات متنوعة، متحف المستقبل، أيقونة معمارية، حاضنة للعلم والابتكار والهام العقول لاستشراف المستقبل، يمكن الزائر من الانطلاق عبر الفضاء مع محطة الفضاء

المدارية، ومشاهدة كيف يتحول القمر إلى مصدر للطاقة المتجددة، برج العرب، أعجوبة معمارية، مصمم على شكل شراع السفينة العربية التقليدية، يوفر إقامة فاخرة لنزلائه، ويمكنهم من المشي على الشاطئ وممارسة الأنشطة المائية، أماكن ترفيهية للأطفال، كيدزانيا، توفر فرص حقيقية للأطفال لخوض تجربة الحياة الواقعية عن طريق مجموعة من الأنشطة التي تسلط الضوء على كافة الوظائف مثل التحضير للدراسات العليا وتقمص أدوار المشاهير، تشيكي مونكيز، أنشطتها تهتم بإدخال البهجة في نفوس الأطفال وتوسيع مداركهم، الأعمال الفنية، الباليه، الرياضة، وحصص لتنمية مهاراتهم في اللغات المختلفة، أولي أولي، توفر تجارب حسية وحركية ممتعة للأطفال، حل الألغاز واللعب بالفقاعات، والميادين المطاطية، اسكاي دايف، أكبر نادي يقدم رياضة القفز المظلي في الشرق الأوسط وركوب المنطاد، إكس لاين، أطول الحبال الانزلاقية في العالم، وأسرعها وأكثرها انحداراً، إذ يحقق تجربة الطيران فوق الأرض والبحر بسرعة تصل إلى ثمانين كيلومتراً في الساعة، المحمية الصحراوية، محمية طبيعية موطن لأكثر من خمسين نوعاً من النباتات، ومائة وعشرين نوعاً من الطيور، وثلاثة وأربعين نوعاً من الثدييات والزواحف، حدائق دبي، مساحات خضراء يانعة، نسمات هواء عليلة، ظل أشجار باسقة، حديقة بحيرة البرشاء، حديقة الممزر، حديقة مشرف، حديقة زعبيل، وحديقة خور دبي، شواطئ دبي، توجد بها خدمات رائعة ومرافق مميزة، يمكن للزوار الجري وركوب الدراجات الهوائية أو تحليق الطائرات الورقية الملونة، السباحة ومختلف الأنشطة الرياضية المائية، شاطئ الممزر، شاطئ جبل علي، شاطئ جي بي آر، وشاطئ الصفوح، متاحف تاريخية تعرض مراحل التحول من صحراء قاحلة إلى أيقونة حياة فاخرة، متحف دبي، متحف السكوكات، متحف القهوة، متحف الشندغة، ومتحف المرأة. كل هذه المعالم لا

تدخل ضمن دائرة اهتمامه، الحرب في بلده سدت نفسه عن أي شيء، جعلته عازفاً عن أي متعة من متع الحياة، حياة زائفة، لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في أموال وأولاد، لا يغتر بها إلا ناقصو عقل ودين، ولأنه لا شيء بلوشي متاح صدقة لوجه الله وإنما بمقابل باهظ، لا هم له إلا أن يغادر هذا المكان الساحوتة في أقرب سانحة، فهذه البلاد لن تشبع ولو أخذت منهم كل ما في جيوبهم، وما بقي في جيوبهم إلا قليل القليل، حمدوا ربهم ظاهراً وباطناً لحظة أن اتصل بهم مندوب مجمع الخدمات من مكتب الاستقبال ليأتوا لاستلام جوازاتهم، بعدها بثلاثة أيام كانوا على متن طائرة متجهة إلى مطار الملك خالد الدولي بالرياض، ساعتان وكانوا هناك، استقبلهم ابنهم وبنتهم وصهرهم الثاني، ذهبوا بهم إلى مكان اقامتهم في شقة مفروشة، قضوا شهراً بالتمام والكمال، أقرباؤهم كثر هنا، لم تنقطع الزيارات المتبادلة بينهما، أقرباؤهم في شوق لمعرفة أخبار حرب الجنجويد اللعينة، إنهم يعلمون أن وسائل الإعلام أحياناً تعظم الأحداث وأحياناً تقزمها حسب هواها، لذلك هم في شوق لمعرفة الحقيقة ممن رأى بأم عينه وسمع بأم أذنيه، مل الفحيل من كثرة ترداد نفس الحكايات مرات ومرات، يا ليت لو كانت مفرحة، إنها حكايات محزنة مؤلمة، زبدتها أن البلد في كف عفريت، غادروا إلى جدة ومنها إلى مكة في بداية شهر رمضان الكريم لأداء شعيرة العمرة، بعد الفراغ منها عادوا إلى جدة ومنها إلى تبوك عروس الشمال السعودي. إنه قابع في غرفته كطائر حزين مسجون في قفص من ذهب، يشرب ماءً مفلتراً من كل الشوائب، يأكل طعاماً مكملاً بكل أنواع الفيتامينات، يسكن في غرفة نظيفة تهويتها ممتازة ودرجة حرارتها معقولة، مهما وفروا له من سبل الراحة لن يعوضوه شبراً واحداً من ديار أهله وأحبابه التي كان يحلق في فضائها كما يشاء، ويغرد بين أشجارها كما يشاء؛ جمعته الديرة التي يسكن فيها بعدد من

السعوديين، كانوا خير الإخوة في الدين، وكانوا يتعجبون منا ويقولون لنا: (أنتم شعب طيب أيها السودانيون، مع كل ما تواجهون من ابتلاءات في بلادكم وجوهكم باسمة وببساطة تضحكون)، وجمعته بعدد من المقيمين بتبوك وبعدد من الزوار مثله لها، همومهم ومواضيع أحاديثهم شيء واحد لا يتغير أبداً، الحرب التي تدور في بلدهم الحبيب التي أتت على كل أخضر ويابس فيه، حيرت عقولهم، جنجويد سفلة سفاكو دماء فعلوا كل جريمة وموبقة عرفها ولم يعرفها البشر، وحثالة من أبناء جلدتهم معهم في خندق واحد، ودول تدعي أنها شقيقة تمدهم بسلاح على عينك يا تاجر، وعالم يدعي أنه راع لحرية وحقوق إنسان يتفرج على موت ودمار، سادي دي بطينة ودي بعجينة. الحاج ود عثمان حكى لهم بصوت متهدج متقطع حملت ذبذباته معان بينة لشعور بآلام مفجعة عميقة: (عملت في السعودية بمنطقة تبوك لمدة خمسة وعشرين سنة، عانيت فيها مرارة غربة وبعد عن الأهل، أحوش في الريالات ﷼ وراء ﷼ لكي أوفر لأولادي حياة سعيدة، والحمد لله أن أنعم علَي بأن أكمل أولادي تعليمهم بنجاح وأن مكنني من بناء بيتي بواحدة من أحياء بري بالخرطوم، الحمد لله بنيت بيتاً عمارة من طابقين، به ثمانية شقق، وبعد بلوغي سن الستين وفقاً لنظم العمل بالمملكة تقاعدت عن العمل، وقبل أن أعود نهائياً إلى بلدي شحنت كل اللوازم من أثاث وسجاد بما فيها مكيفات لفرش الشقق الثمان، ما عدا الثلاجات اشتريتها من هناك، عدت كهلاً يرغب في العيش بسلام في باقي أيام حياته في بلده وسط أهله، سكنت في شقتين وأجرت الباقي شقق مفروشة، وعندي سيارة توسان لقضاء مشاويري، يا سلام، فعلاً عادت لي الروح، عدت شاباً من جديد، ما أحلى الحياة في الوطن وسط الأهل، برغم وجود بعض المعاناة، وبعض المنقصات، وفارق كبير بين نمط حياتي الذي كنت أحياه في المملكة وحياتي الآن من ناحية توفر الخدمات والرفاهية، إلا

أن بلد الغير لن تكون لك بلد أبداً، فأنت في بداية ونهاية أجنبي وجودك لأجل مصلحة متبادلة بينكما، قبل الحرب بأسبوعين أغلقت شقتي بضبة ومفتاح، وأوكلت واحداً من أهلي لإدارة شئون شققي المفروشة وذهبت لأولادي في المملكة في زيارة كعادتي في كل عام، الحمد لله أديت شعيرة العمرة وجئت إلى أولادي هنا في تبوك، ولدي يعمل مديراً لأحد الفنادق، وبعد فترة جاءني خبر مشؤوم من هناك، وقع علي وقوع الصاعقة، سكان الشقق أخلوها، الجنجويد دخلوا العمارة، نهبوا كل ما فيها، لم يتركوا ولا كباية شاي، حتي السيراميك خربوه، والسيارة حاولوا اخذها ولكنهم لم يتمكنوا من تشغيلها لسر أعرفه لوحدي، ولحسن الطالع أنهم لم يهتدوا إلى مفتاحها الذي كان في جيب إحدى جبيي المعلقة داخل أحد دواليب ملابسي، المهم تركوها وذهبوا ليعودوا لها لاحقاً، نجح وكيلي بعد اتصالات ووساطات في العثور على من يقوم بإخراجها من بيتي وإيصالها إلى الجزيرة بما يعادل نصف ثمنها، وكما يقول المثل: (المال تلته ولا كتلته)، رضينا بحكم الله، كل شيء في الكون بعلمه وإرادته، وبعد رحلة طويلة، مرة حملوها على سحاب، وبعد أن وجدوا لها قطع غيار وصانوها في ورش سنار وصلوها إلى البلد، وهي الآن موجودة هناك، السيارة هي كل ما بقي لنا من عمارتنا، وما معروف هل ستبقى جدرانها على حالها أم ستهدمها دانات جنجويد أو قصف طيران. واساه في مصيبته قائلاً: (أجارك الله يا أخي، وأجار كل مظلوم في بلدنا الطيب، وربنا يخلف على كل من فقد ماله، والجاتك في مالك سامحتك، وما ضاع في الدنيا لن يضيع يوم يقوم الأشهاد). الحاج الجعفري حكى بنبرة لا تخلو من أسف عميق وشعور بأن ما جرى كان يعده ضرباً من المحال: (عملت في السعودية بمنطقة تبوك لمدة أربعين سنة، ثلاثون سنة كمهندس مدني في الحرس الوطني وعشر سنوات في عمل خاص، حينما أتيت إلى تبوك كانت بيوتها معدودة، فيها إشارة مرور

واحدة، فيها سوبرماركت واحد، فيها محطة وقود واحدة، كانت قرية صغيرة، الحمد لله عاصرت فترة تطورها إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن، مدينة عصرية سياحية تنافس كل مدن المملكة من الناحية الشكلية المعمارية الجمالية، ومن ناحية توفر كافة وسائل النقل والخدمات، يشار إليها بالبنان، والحمد لله لي علاقات واسعة وطيبة مع أهلها الذين يعتبروني واحداً منهم، الحمد لله الأولاد تعلموا منهم الأطباء ومنهم المهندسين، بعضهم يعمل هنا في تبوك وأنا الآن في زيارة معهم، وبعضهم يعمل في دول الخليج، بعد هذه الفترة الطويلة التي قضيتها هنا قررت الرجوع إلى بلدي نهائياً، كفاني غربة، باقي أيامي أولى بها بلدي، ورفاتي أولى به تراب بلدي، الحمد لله وله الشكر على كل نعمائه علي، عدت قبل سنوات سبع إلى مديني ود مدني، بنيت بيتي من طابقين، أثاثه كله شحنته من هنا، لدي ثلاث سيارات في البيت، دفار وصالونين، لدي مغلق لمواد البناء في وسط السوق، به كل مواد البناء، كنت في بيتي عندما دخل الجنجويد المدينة، مأساة مهما قلت لن استطيع وصفها، دخل هؤلاء الهمج البيوت، أخذوا كل شيء، لم يتركوا نفاخ النار، جردوني من كل شيء يعني بكلامنا بالعامية بقيت على الحديدة، مشيت أشوف مغلقي في السوق، ما تركوا فيه شيء، جالونات طلاء سلك، سعر الجالون ألف جنيه راحت في حق الله، الذين يحومون في السوق كضباع جائعة كلهم وجوههم توحي بأنهم شماسة ومجرمين، كل ما فعلته أغلقت دكاني، عدت كسيف البال أدراجي إلى بيتي، قضيت ثلاثة أيام، بعدها حزمت ما بقي لي من أمتعة ويممت شطر بورتسودان، ومنه جئت إلى هنا)، واساه في النازلة التي وقعت عليه قائلاً: (جعلك الله يا أخي من المحتسبين الصابرين، ودعاء المظلوم ليس له من الله حجاب، وغداً لناظره قريب)، الحاج فتح الله حكى بنفس يعلو ويهبط من شدة الغضب قائلاً: (هؤلاء الجنجويد ليسوا بشراً، الحرامي إذا سرق، ليس كالنار تأكل

كل شيء، الوحش المفترس الجائع يأكل على قدر حاجته ويترك الباقي لغيره من الحيوانات، البعوض لا يمص دم الإنسان كله وإنما يأخذ على قدر حاجته ويطير بعيداً، إلا هؤلاء السفلة، فصيلتهم أسوأ من كل هؤلاء، بيوتنا في الحاج يوسف الخرطوم بحري نهبوا كل شيء فيها، حتى نوافذها وأبوابها لم يتركوها، وبعد ذلك حقداً وحسداً وجهلاً منهم حطموا ما لا يمكن حمله، حتى بلاطها كسروه، المضحك المبكي أنهم فعلوا كل هذه الأفعال لأن الجواسيس المتعاونين معهم في الحارة قالوا لهم أن بيوتنا أصحابها كيزان فلول)، واساهم في الطامة الكبرى التي حلت ببيوتهم قائلاً: (جعلها الله في ميزان حسناتكم، والصبر مفتاح الفرج، اصبروا وما صبركم إلا بالله)، الشعور ببؤس وفقر نفوس وألم يملأ جوانحهم جميعا، يعتصر قلوبهم عصراً لا قبل لهم به، وما يزيد آلامهم أكثر وأكثر أنهم إذا ما نظروا في مصائب غيرهم تهون عليهم مصائبهم، غيرهم فقدوا أرواح فلذات أكبادهم وأحبابهم، غيرهم فقدوا شرف حرائرهم، غيرهم فقدوا كل ما يملكونه في الدنيا، مصانع، عمارات، وسيارات، صاروا على الحديدة، وطنهم كان وطناً شامخاً، مشت عليه مقولة عزيز قوم ذل، أهين إهانة ما بعدها إهانة، ذل ذلة ما بعدها ذلة، ممن؟ من الذين لا يسوون عند الله جناح بعوضة، عرب شتات سفاحين، ومرتزقة يلدغون كالثعابين، ومجرمين ضالين.

(٢٤)

مرت أيامه، قاسية، مريرة، ومؤلمة جداً، كرت لياليه، طويلة طول ما بعده طول، مملوءة بأرق ونوم متقطع وكوابيس، الصور المقيتة التي تختزنها ذاكرته لا تنفك من الظهور من وقت لآخر أمام عينيه في حالة صحوه، أما في حالة نومه فلها شأن آخر، كم من مرة وقع من على سريره أو ضرب الحائط بيده أو قدمه، إنه في حالة كر وفر دائم مع أشباح جنجويد، أحياناً يكون خالد بن الوليد سيف من سيوف الله يقطع دابرهم يريح العباد من كفرهم وشرورهم، أحيانا يكون دون كيشوت يحاربهم كما يحارب طواحين الهواء، وأحياناً هرقل يصرعهم كما يصرع الأسود، وأحياناً جرذ يفر من أمامهم كما يفر من قطط نهمة جائعة، حل عيد رمضان، فاتته صلاة العيد، لأنهم يؤدونها هنا في وقت مبكر، لا يفصل بينها وبين صلاة الفجر وقت طويل، أما في بلده يؤدونها في وقت متأخر، اجتمع كل أفراد أسرته في صعيد واحد، قضوا وقتاً جميلاً أنساهم قليلا من كآبتهم وكربهم بسبب ما يعانيه أهلهم في بلدهم من صلف وقلة أدب جنجويد، عيد ف الغربة لا طعم له ولا لون، وكذلك في زمن الحرب، يعني لا عيد هنا ولا هناك، عزاؤهم الوحيد حفيدته (سوسو)، بلطافتها وبراءتها وخفة دمها أبدعت جواً من فكاهة ومرح أدخل فرحاً وسروراً في نفوس الجميع، خلفت وراءها بعد عودتهم إلى بيتهم كلمة حلوة ما زال صداها تردده حيطان شقتهم التي يسكنون فيها: (أشي) يعني (أمشي) عندما لا تستملح تصرفات أحد الحاضرين نحوها، والشيء بالشيء يذكر، أطفال بلاده في سنها وأصغر وأكبر منها، حالهم يغني عن سؤالهم، في الجنينة يُذَبحون، في معسكرات اللاجئين من جوع ومرض يهلكون، في مدن وقرى الحرابة في حالة خوف ورعب وترقب يعيشون، جميعهم ربما لا يجدون لهم بيتاً ولا وطناً يضمهم حينما يكبرون؛ انقضت أيام العيد الخمسة وعادت الطيور إلى أوكارها، وبقي هو مع هواجسه وهلوسته وتأملاته، وجد له مغايراً أو مقابلاً موضوعياً لما يحدث في بلده، يمعن نظره فيه كلما مرَّ بجانبه في

طريقه إلى مسجد الديرة أو إلى أي مكان آخر، مشروع مباني مدرسة ابتدائية خاصة في بدايات تشييدها، مساحتها تقريباً تكافئ مساحة مربوع به اثنا عشر بيتاً، كل بيتين متقابلين، بمساحة أربعة آلاف وثمانمائة متراً مربعا، لم ير غير خمسة عمال ومعهم مهندس واحد يحمل أوراق رسوماته المعمارية والإنشائية يعملون فيه، هنا الناس يبنون وهناك الجنجويد يدمرون ويحرقون، هنا كل هذه المساحة حفرتها إلى عمق ثلاثة أمتار ثلاث كراكات في خمسة أيام، هناك ربما تأخذ أشهراً بسبب أنه تعمل كراكة واحدة فقط، وهذه الكراكة تتعطل من يوم لآخر، وتتوقف عن العمل لعدم توفر جازولين أو لغياب سائق لا يهتم بساعات العمل، هنا الكراكات تحفر والقلابات تنقل التراب إلى مكان آخر، وهناك لا يهم فلتسد كثبان التراب كل الطرق، هنا بعد الانتهاء من مرحلة الحفر والتسوية عملوا القوالب الخشبية للقواعد ثم ركبوا عليها حديد التسليح، وهناك تأتي الأخبار بأن جنجويداً دمروا مساجد ومستشفيات ومدارس في الخرطوم، هنا صبوا خرسانة على قوالب، وهناك جنجويدٌ ما فعلوه في الخرطوم من دمار فعلوه في أم درمان، هنا جاءت كراكات أعادت نفس التراب السابق على مرحلتين مع رش ودك لكل مرحلة على حدة، وهناك جنجويدٌ كرروا نفس أفعال دمارهم الشامل في الفاشر، هنا سلحوا الأرضية وصبوا عليها خرسانة، وهناك دمر جنجويدٌ جسوراً في الخرطوم، كل أعمال صب خرسانية تقوم بها خلاطات متحركة على شاحنات ومعهن شاحنة مضخة خرسانة تشبه فيل كرشه كبير وله خرطوم طويل، يتم نقل الخرسانة عبر أنبوب تسليم مثبت بذراع طي هيدروليكي على ذراع رافعة يصل طوله إلى اثنتان وستين متراً، يمدوه ويطووه في دقائق معدودة، يصل أخيراً إلى موقع الصب من خلال خرطوش طوله ثلاثة أمتار، هنا ما تقوم به هذه الآليات بكفاءة عالية وفي زمن وجيز يقوم به هناك عشرات العمال بكفاءة متدنية وفي زمن طويل، مرَ عليه شهر سماه شهر الحزن، نوازل ونوائب ومصائب كثيرة حدثت فيه، جنجويدٌ يهاجمون مدينة بابنوسة: (مدينة أهلها

مسيرية، أناسها مثقفون، عروس أبنوس، حي سكة حديد، على طراز إنجليزي، بيوته من طوب أحمر، استجلب من كوستي بالسكة حديد، غرف وصالات، حدائق غناء، أشجار مانجو، نخيل، جوافة، جهنمية، وموانع صواعق، الخريف أمطاره غزيرة صواعقه كثيرة، لا ينجو منها ناس أبقار وأشجار، أهلها يبنون بيوتهم بطين مخلوط بقشر فول، ثم يدهنونها بزيت قاطرات، حي القنطور، حي أبو إسماعيل، هوس بكرة قدم، لقاءات نار بين رابطة، سلام، وإسماعيلي، محطة سكة حديد، سوق رائج عندما تأتيها قاطرات ركاب، قفر جدباء عندما ترحل عنها، نادي سكة حديد ولا نادي خريجين بأم درمان، مصنع ألبان في وقت كانت فيه المصانع معدودة «ومرةً بارحت دار أهلي.. لكي أزور صاحبي ابن الفضل، ألفيته وأهله قد رحلوا.. من كيلك وفي الفضاء نزلوا، في بقعة تسمى بابنوسة.. حيث اتقوا ذبابة تعيسة»). قصفوها من بعيد، دمروا ما دمروا، وقتلوا ما قتلوا، نزح أهلها منها، لا يستطيعون العيش تحت قصف وحصار. جنجويدٌ يعيثون فساداً في دار حمر، همهم دخول مدينة النهود: (مدينة أهلها زينين، حَمَر، (أمشي بارا وديك أم روابه.. والنهود الآسر شبابا. والأبيض غرد حبابا.. درة رائعة وحائزة الكمال. يا بلومي شيل السلام...)، عروس تبلدي، أسطورة جريوات تبلدي، حمراية، أشجار هشاب، جبل حيدوب، فريق شايقية، سفر لواري وكسر عمود جمب وعمود طوالي، خوي، عيارة وخماس، بطيخ، صمغ وفول سوداني، أبيار منعم، فولة كبيرة، نادي سلام وأشجار تمر هندي وحناء، حميض، فول أبو نقوي أبو ليلا، أم برطبو، ملاح أم زميطة). أهلها في حالة رعب دائم، لأن الجنجويد إذا دخلوا قرية أو مدينة نهبوها وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة. صهره في الرياض، جاءته أخبارٌ من البلد أن أخاه ماشي في شارع بصحبة زميل له عائدين إلى بيوتهم من مكان عملهما، لحظة عبورهم الإسفلت وهم في بداية شارع ترابي ضيق يقودهم إلى داخل الحارة وإذ بجنجويد يمطرونهم بوابل من قذائف القرنوف، وقع على الأرض فاقداً للوعي، نقلوه إلى مستشفى النو، كان محظوظاً، أجريت

له عملية جراحية مستعجلة خلال أربع ساعات من وصوله المشفى، الجرحى عددهم كثير، الأولوية لشباب ولحالات حرجة، ربما لحالته لأنه مصاب إصابتين، وأحدة في رجله اليمنى أسفل حوضه، والثانية عدد من روايش معدنية دخلت بطنه وهتكت جزءً من أمعائه، وربما هناك معارف سهلوا له الأمور، بعد نجاح العملية رقد في المشفى لمدة أسبوعين، ثم أجريت له عملية جراحية ثانية في رجله المصابة في مستشفى آخر، اكتشفوا بعد فترة أن برجله عرج خفيف، يعني مسألته لم تنتهي بعد وتحتاج إلى إعادة نظر، جنجويدي طائش في لحظة سكر، في لحظة جنون بمخدر، في لحظة يأس من رحمة الله فعل هذه الفعلة التي كلفت الناس الكثير، الكلفة ليست كلفة المال، وإنما كلفة بحث عن علاج في ظروف حرب يعزَ فيها الحصول عليه بسهولة؛ العالم كله في حالة من جنون، غزة، أوكرانيا، اليمن، السودان، إبليس وجنوده يحرقون هذا العالم، يهدمونه فوق أهله، يموت من يموت وفي النهاية يصفو لهم الجو، يتمتع حزب الشيطان بخيرات الدنيا بدون منافسين، الفحيل في شوق لأن يأتيه خبر واحد يثلج صدره عن تحسن أحوال وطنه الذي حطمته وفتته وذرته رياح حرب لا تبقي ولا تذر، كان جالساً لوحده ينظر في شاشة التلفاز جاء ابنه وجلس بجانبه وعلى وجهه سحابة حزن بائنة حاول أن يخفيها بقدر ما استطاع، تنحنح وتلعثم ثم قال:

- (وصلني خبر مؤلم للتو، جدتي، أمك توفيت اليوم).

يا الله، وقع عليه الخبر كصاعقة، إنه يؤمن أن الموت حق والحياة باطل، انبجست دموع غير مرئية داخل عينيه، كستها غشاوة ظلامية كثيفة، اعتصر قلبه ومزقه ألم مر، قلبه ما عاد ينبض كم كان، أصابه وهن وتعب مفاجئ، قلبه يتسارع نبضه عندما يفرح ويتباطأ عندما يحزن، جوارحه كلها في حالة رعشة وقشعريرة وتشنج، دخل في عالم آخر، سمع صوتها وهي تقول آخر كلماتها له لحظة وداعه لها:

- (يا ولدي عافية منك ظاهراً وباطناً، إن ربنا مدَ في عمري، تمشي وتعود بالسلامة تلقاني في انتظارك، وإن ربنا أخذ أمانته، العفو والعافية لله والرسول، وأبقى عشرة على عيالك وعيال خالتك).

تذكر شنطتها، شنطة الحديد الخضراء التي كانت تحرص عليها في حلها وترحالها، وتردد لأحبائها عندما يأتون لزيارتها:

- (شنطتي الخضراء فيها كفني وحنوطي، أنا مستعدة ليوم الرحيل).

تأوه تأوهات متصلة، حدثته نفسه حديثاً ذا شجون:

- (يا من كنت نطفة من مائها وماء أبيك في لحظة سعادة، يا من حملتك في رحمها علقة ثم مضغة ثم عظاما، ثم عظاماً مكسوةً لحما، ثم خلقاً آخر هو أنت، تبارك الله أحسن الخالقين، يا من قامت بتربيتك ورعايتك بعد موت أبيك وعمرك أربع سنوات، يا من سهرت الليالي لمرضك، وجاعت لتشبعك، وعريت لتكسوك، ماذا فعلت لها؟ ماذا كان ردك لجميلها، ها هي ودعت الدنيا وأنت بعيد عنها، لم تودعها آخر وداع، لحظة أن شخص بصرها، لم تغمض عينيها إغماضتها الأخيرة، مهما قلت، مهما ذكرت من أعذار، حرب، جنجويد، شيطان أزرق، فقدك كبير، مصابك عظيم، ليلك بلا قمر، نهارك بلا شمس، وجسدك بلا روح، سوف تعيش باقي أيام عمرك في ظلام دامس، بلا نور أو أمل أو فرح).

لم يبرأ جرحه بعد، وإذ بجرح جديد يزيد آلامه ألماً، ابن خالته (فتاح)، بعد أن عاد من مشاركته ضمن قوات عاصفة الحزم، وبدأت الدنيا تبتسم له قليلاً، اشعل الجنجويد حربهم التي أحرقت حضراً ومدراً وحجرا، فتكت بإنسانه ودوابه وشجره، إنه واحد ممن رابطوا بثغر من ثغور جنوب كردفان، يحسبه مات شهيداً، أصابته في مقتل قذيفة من قذائف مدافعهم، قضى نحبه بعزة ونخوة وشرف، ترك سجلاً حافلاً ببطولات رفعت رؤوس أولاده فوق هامات أولاد متخاذلين ومتفرجين من ضعاف نفوس، يجلسون على طرقات، بدلاً من حمل سلاح لا هم لهم إلا القيل والقال وجنجويدٌ في كل يوم يزحفون نحو بيوتهم ليلتهموهم كما تلتهم حميرٌ تبناً.

ثم انفتح له جرح غائر آخر، أرملة خاله (بنت أحمد) ذهبت إلى مصر مع بناتها ماشية على قدميها، كانت تعاني من مشاكل صحية في قلبها، تعافت منها ولكن الأجل المحتوم لا يأتي بدون مسببات، هناك وقعت في الحمام، كسرت رجلها، وبعد عملية جراحية استأنفت حياتها بشكل عادي، ثم اشتكت من تعب ووجع خفيف، أخذوها للمشفى، أدخلوها غرفة عناية فائقة، وبعد لحظات معدودة فقدت حياتها، دفنوها في مقابر عثمان، يحرص السودانيون على دفن جثث موتاهم هناك، يدفنونها تحت الثرى، قبر وود أحد، لأنه في كلام كثير على مقابر متجددة، الدفن فيها فوق الثرى، غرف صغيرة يضعون فيها جثث موتاهم، وبعد أن تبلى عظامها يخموها في قطعة قماش ويضعوها في العظامة ليفسحوا مجالاً لجثة جديدة، كثير من الذين هربوا من ويلات حرب الجنجويد إلى مصر، ما هم إلا فارين من موت إلى موت، مات كثيرون منهم في الطريق بسبب ضربات شمس أو عطش دفنتهم رمال الصحراء، أو استقروا في بطون الهوام، ومن الذين نجوا دفن منهم من دفن في أسوان، وأسيوط والقاهرة، يا الله امرأة سودانية لاجئة، اشتكت بحرقة، عيطت! صرخت: (أسكن في منطقة مساكن عثمان بمدينة السادس من أكتوبر، مساكن مقامة بجوار مقابر، أسكن هناك مجبورة، لأنه سكنها رخيص، والرخيص برخصته يضوقك مغصته، نلقاها ممن؟ من الذين نسكن في وسطيهم، ولا من بيئة غير صالحة لحياة بشر، أم من مصريين ينادون علينا في شماتة: (يا سودا)، (يا سمارا)، (جيتو كرهتونا في بلدنا)، (شاركتونا في لقمة عيشنا))؛ يا الله!!! يا الله!!! ما أرخص بني آدم حينما يضيعون وطنهم! وما أرخصهم حينما يلجؤون إلى بلاد الغير، وما أرخصهم حينما يغيب عنهم أنهم مراقبون، أنهم تحت مجهر، من حقهم أن يفرحوا بأعراسهم، لأن الموت والحياة متلازمان، ولكن ما يحير ويغم ويؤدي للجنون، فحشهم وفجورهم وتماديهم في فرحهم ورقصهم وغنجهم ولهوهم ومآدبهم وبيوتهم محتلة؟ وعدوهم يقتل ويحرق ويغتصب ويعيث في أرضهم فسادا، كيف يتناسون ويتغاضون عن كل

مآسيهم وبلاياهم التي حدثت لهم؟ دماء أطفال، ونساء، وكهول تجلطت لم تشربها أرضهم بعد، جثث مغدورين من أهلهم تحللت ما زالت مرمية داخل بيوتها، كيف يبتهجون؟ يغتبطون؟ وينبسطون بلا حدود؟ وعدوهم مرغ أنوفهم بالتراب، وجعلهم أضحوكة بين الأمم. اللاجئة السودانية عيطت: (المصريون يشمتون فينا! يقولون لنا: المسنون والمرضى يهربون.. ماشي، على العين والرأس، أما الشباب!! كيف يهربون ولا يدافعون عن ترابهم، دي تمشي إزاءي؟).

المصائب لا تأتي فرادى، الأخبار التي تأتي من البلد هذه الأيام كلها مكدرة، محبطة، ومحزنة، بعد أسابيع قليلة كان وصهره في مشوار عادي، صهره يقود سيارته، صعدا جسراً، عند النزول رن جرس هاتفه، سمع كلاماً ثم شهق شهقة مسموعة، أوقف سيارته حذاء رصيف، جاءه شعور بأن خطب جلل حدث له، سأله بلهفة قائلاً: (إن شاء الله خير، إن شاء الله ما في عوجة؟)، رد باقتضاب بنبرة مشحونة بكل أحزان الدنيا: (توفى والدي)، أظلمت الدنيا في عيني الفحيل، فهو يعرف معنى أن تفقد أحد والديك، وفراق أمه ليس ببعيد، معناه أن تفقد ظهرك الذي يسندك، معناه أنك أصبحت ريشة في مهب ريح، تتلاعب بك كما تشاء، عادا إلى الشقة التي يقيمون فيها، اتصل صهره على أختيه بأمريكا وألمانيا، وبخالته في بريطانيا، تبادلوا التعازي في عزيزهم وحبيبهم، جمل الشيل الذي لا يعوض ولن تنمحي ذكراه مع تبدل الليل والنهار، أخته في ألمانيا دخلت في حالة أقرب للموت منها للحياة لأنها أصلاً كانت تتعالج من الإصابة بكورونا ولم تتعافى منها بعد، غشيت المكان سحابات حزن كثيفة، جلسوا أربعتهم، هما الاثنان ومعهما الأم وبنتها، الخبر كان صادماً له لأنه قبل ثلاثة أيام كان يتحدث معه، كان بصحة جيدة لم يشكو حتى من صداع، أسر إليه بأنه أصابه ضيق وملل من حياة القرية الرتيبة وأنه ينوي العودة إلى بيته في الثورة أم درمان، رد عليه بأن الأحوال الأمنية هناك ما زالت غير مطمئنة، وعليه أن يتريث حتى تتحسن الأوضاع أكثر، ولكنه كان مصمماً على العودة مهما كلفه ذلك،

لكل أجل كتاب، لا مرد لأمر الله، بعد أن أدى صلاة الجمعة في مسجد القرية وعاد إلى بيت العائلة اشتكى من وجع طفيف، حملوه إلى أقرب مشفى، وهناك أسلم روحه إلى بارئها، موتة يتمناها كل مسلم، موتة في نهار جمعة، حديث نبوي شريف من مات يوم جمعة سلم من عذاب القبر، نام نومته الأبدية في مقابر القرية. انعزل صهره من الناس في غرفته، عاش مع مصحفه وسجادته حياة روحية صافيه، تجسد له ماضي حياته أمام عينيه، طيف من ذكريات جميلة:

- (أبي دفنوه، ودفنوا معه تاريخاً ناصعاً يشهد له بحسن معشر وكرم أخلاق، بعد تخرجه من الجامعة في نهاية ستينات القرن الماضي عمل في السلك الإداري، تدرج من ضابط إداري وحتى أميناً للحكومة، عشق تراب بلده، لم يهاجر كما هاجر الآخرون طلباً للمال عندما كان الإداريون يعدون صيداً سهلاً لدول الخليج، ظللنا نعيش في بيت خاله الذي رباه منذ صغره إلى أن بلغ سن التقاعد، ما بنى لنا بيتاً إلا بعد أن بلغ هذه السن، كان في إمكانه أن يبني عمارات إذا سلك الطرق التي سلكها رصفاؤه، كان عضواً فاعلاً في مجالس آباء عديد من مؤسسات تعليمية، كان رجل بر وإحسان، نذر حياته لأجل إسعاد الآخرين، كان رجل آخرة وليس رجل دنيا، كان شمعة تحترق لتضيء لكل من هب ودب، عالمه مسح دموع غلابه، أينما كانوا وكيفما كانوا، ما يعمق أحزاني أكثر كل هذا حدث في غمضة عين وأنا غائب عنه، لم أغسله، لم أكفنه، لم أستره في قبره، لم ألق عليه نظراتي الأخيرة وهو مسجى بلا روح، وما يعمقها أكثر وأكثر لا فائدة من سفري إلى هناك، ليس فقط بسبب حرب جنجويد لعينة شردت الناس من بيوتهم، ولكن جرحي عميق، ويحتاج إلى وقت طويل لكي يندمل، سقانا من كأس

حبه الذي لا ينضب ونحن صغاراً، هو والمرحومة أمي كانا أسعد زوجين على وجه الأرض لا هم لهما سوى أن يكون بيتنا فردوس من فراديس الأرض، لا فيه هم ولا غم ولا جزع، رحلا عن الدنيا وتركانا أنا وأختي بعد أن اطمأنا علينا وتركانا وديعة لمن لا تضيع عنده الودائع، سعادتهما بنا وهما يبتسمان ويهشان في وجوهنا لا تدانيها سعادة، سعادتهما بنا وهما يسندانا ونحن نطلع سلم الحياة درجة من بعد درجة كنا نراها تتوهج في عينيهما، والآن كسفت شمسنا، وخسف قمرنا، وما بقي لنا إلا طلب الرحمة والغفران لهما من رب رحمن رحيم).

جاءه المعزون من أقاربه ومن الذين يسكنون في نفس الديرة، خففوا عليه أحزانه، وذكروه بأن الموت قدر لا مفرَ منه، مصير الأولين والآخرين. ثم مضت الأيام بالفحيل مجدبة مكفهرة، عمره في تناقص، أجله يدنو، عاش طويلاً، رأى من الدنيا ما رأى، سمع منها ما سمع، رشف من كاساتها أفراحاً وأتراحا، يعيشها الآن رغم قساوتها، حبيس جدران غرفة في تبوك في السعودية، يبث شكواه ونجواه لحيطانها، حيطان من حجارة، وإن من الحجارة ما ينفرج فتجري بينها الأنهار، وما يتصدع فتخرج العيون والينابيع، وما يسقط من أعالي الجبال من خشية الله، قلوب البشر هذه الأيام أكثر منها غلظة وقسوة، يحكي لهذه الحيطان عن وطنه الذي كان زينة الأوطان، مروج خضراء وأنهار جارية، حدائق وبساتين وغابات، أغنام وخراف وأبقار وجمال، زراع ورعاة، أهله مسالمون طيبون كرماء، يعيشون لدنياهم كأنهم مخلدون فيها، ويعيشون لأخراهم كأنهم يموتون غداً، أرواحهم

تحلق في علياء مع قرع طبول نوبة أحباب الله وأجراسها ومديح مادحي النبي العدنان، يرضون بقليل ولا يطمعون في كثير، قناعتهم هي كنزهم الذي لا يفنى، طاف عدداً من بلاد الله، مقارنة بهم إنهم ملائكة أطهار في جلود بَشر، في هذا الزمان الذي شهد معظم علامات الساعة الصغرى ولم تبق إلا علاماتها الكبرى، ها هي بلاده يكثر فيها هرج ومرج، وقتل وسبي وزنا، والفاعلون زنادقة يعبدون أصناماً بشرية، يظنون أنهم حينما يقتلون فهم عند الله شهداء، وهم يموتون والله راض عنهم، والله تقدست ذاته وأسماؤه وصفاته طيب لا يقبل إلا طيباً.

(٢٥)

هنا في تبوك توجد قاعدة جوية عسكرية، صوت أزيز طائراتها يصم الآذان، في أول أيامه فيها كانت أصواتها تخيفه وتزعجه، وتذكره ما يجري في بلاده من حرب ضروس، تستخدم فيها كل أنواع أسلحة تقليدية خفيفة وثقيلة، خوفه كله من أن يحصل جنجويدٌ إرهابيون على أسلحة غير تقليدية، يوفرها لهم من يرعونهم ويحركونهم من تحت الستار، بعد أن تأقلم على هذه البيئة الجديدة أصوات الطائرات أصبحت عادية لا تختلف عنده من شقشقة عصافير أو بطبطة بط، تغزل في جمال تبوك، أشجارها وزهورها وورودها التي تزين شوارعها الرئيسة، بساتينها التي تسر الناظرين مثلما في بلده دار السمبر، وكما اشتهرت بلده بليمونها (ليمون بارا)، اشتهرت تبوك بوردها وفاكهتها (ورد تبوك)، إنه مغرم بالزراعة في أي مكان، حيثما وجد بساط سندس أخضر وجد سلوى وراحة، هنا في تبوك كما هناك في دار السمبر، الأرض خصبة والمياه الجوفية وفيرة، هنا المياه على عمق أكثر من ألف متر وهناك أقل من خمسة وثلاثين متراً، هنا يستخدمون بيوتاً محمية بكثرة، يزرعون قمحاً وفواكه وخضروات، وورداً تسوق داخليا وخارجيا، يستخدمون أحدث تقنيات زراعية متطورة، دولتهم تدعم الزراعة بسخاء، تمنح قروضاً ميسرة، وتأمن آليات زراعية ومكائن ومضخات ري، وتوفر إرشاد زراعي عن طرق مثلى لزراعة وري، تعقد دورات تدريبية وورش عمل تهتم بنقل خبرات وتجارب الآخرين، يحتفلون كل عام بمنح جائزة لمزرعة نموذجية، وهناك كل هذا مفقود، المزارع يعتمد على نفسه في كل شيء. جاءه خبر تعيس، جنجويدٌ اقتحموا دار السمبر، اقتحموا واحدةً من فراديس الله في الأرض، تأوه وردد في داخله في حسرة:

- (دار السمبر فصولها ما أروعها، صيف، موسم سموم وشمس حارقة، وأبو فرار، وسرب طوير عطشى ترد سواقي خضراء يانعة فتكون صيداً سهلاً لبندقية جده (حولي) خرطوش أبو ماسورة واحدة، خريف، موسم أمطار، خضرة، بطيخ، تبش، قصب ذرة،

لعب في برك، سقوط بيوت طين جالوص على رؤوس أصحابها؛ شتاء، موسم برد ناشف ييبس الجلود ويجعلها جلود فئران (جُقوُر)، يشققها أخاديداً غائرة، موسم لفازلين وزيت سمسم، وبطائن نوم لذيذ عميق، وطماطم من وفرتها ورخصها تعطى بدون مقابل).

لم تنفعهم متاريسهم وخنادقهم التي أهملوها، لم تنفعهم بنادقهم وسكاكينهم وعصيهم أمام آر بي جي، دوشكا، وسيارات دفع رباعي برشاشات ثنائية ورباعية، لم تنفعهم مجالس لغو فارغة، لم تنفعهم أحياء كدقلي وبانت، رضخوا لأمر واقع، نزح منهم من نزح، وبقي من مغلوبين على أمرهم من بقي، تحكم جنجويدٌ في مداخلها ومخارجها، فرضوا إتاوات على ناس وسيارات وحافلات وشاحنات ودواب، فرضوها على كل عين حي، وما هو ببعيد يوم يفرضونها على أمواتهم، لن يجرؤوا على حمل جثامين موتاهم إلى مثواها الأخير في مقابر (أباب حمد) إلا بعد دفع ضريبة تصاريح دفنها، احتلوا مباني مركز شرطة وسجن، أقاموا لهم قاضي ومحكمة وسجانين، أشجار كبيرة اتخذوها مخبأ لسياراتهم القتالية خوفاً من قصف طيران، التاريخ الاستعماري يعيد نفسه، مفتش جنجويدي حل محل مفتش إنجليزي، عساكر تشاديين وماليين ونايجريين حلوا محل عساكر إنجليز، الإنجليز كانوا يبنون وهؤلاء ينهبون ويهدمون، الإنجليز أهل حضارة وهؤلاء أهل جلافة، الإنجليز يصنعون التاريخ وهؤلاء خارج التاريخ، استعمارهم جاء في وقت أصبح فيه الاستعمار شيء من ماضي؛ مزرعته كذلك أصبحت شيء من ماضي، خاف الوافر وأبو سيف على مضختها، أخرجوها من باطن الأرض، خافوا على خراطيشها ومعداتها، رحلوها إلى مكان آمن، دجاجها ما عادت له فراريج ولا ديك ولا أثر، جداولها أضحت يابسة تشتكي مر عطش، أحواضها فيها بقية من خضار ميت يابس أصفر، أبوابها مسكرة بطبل، كأن لم تغن بالأمس، جاءه عبر الهاتف صوت ابن عمه

المسكين أبو البشر من القاهرة، ما زال لاجئاً يسف تراباً هناك، حكى له بواقي حكاية مؤلمة:
- (دبرنا حالنا مع أناس يعرفون بعض المهربين المأمونين الذين يقومون بتهريب بشر من أرض سمر إلى أرض كنانة مصر، ركبنا الباص من بورتسودان إلى عطبرة، ومن عطبرة ركبنا حافلة صغيرة إلى أبو حمد، اتصل بنا مهربون وبدورهم اتصلوا بالسائق لينزلنا في قرية معينة، وبالفعل وجدناهم في انتظارنا، أخذونا إلى قرية ثانية، ذبحوا لنا وأكرمونا غاية إكرام، فوجئنا أن في هذه القرية بساتين أشجارها ملتفة، حيرتنا أشجار برتقال مثمرة، ثمرها عجيب، ومن هناك تحركنا إلى أبو حمد، نزلونا في بيت من بيوتها إلى أن يجهزوا بوكسي السفر، خرجنا حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، انطلقت بنا السيارة في طريق صحراوي وعر، توقفت بنا في قهوة بعد حلول الظلام، الدنيا برد شديد، تحركت ثلاث بكاسي هايلكس في وقت واحد، حدث لنا شيء يستحق الذكر في الطريق، قدامنا نقطة شرطة، السيارة التي أمامنا وقفت، سائقنا لم يقف، طاردنا عسكر بسيارتهم، أوقفونا وضربوا سائقنا ضرباً مبرحاً، أخذوه بعيداً منا، ولما عاد سألناه ماذا حصل؟ قال: القصة وما فيها تخويف، دفع مكوس، وبعدها خلاص تعدي، رحلتنا تلك مغامرة تستحق أن تسجل في سجل أخطر مغامرات عبر صحراء مخيفة، عفشنا محشور داخل صندوق البوكس، والركاب رجال ونساء أرجلهم ممددة خارجه، الصندوق مسيج بحبال، يعني كالسمك داخل شبك، المهربون يخافون من أشياء كثيرة قد تعترض طريقهم، يجازفون بكل ما يملكون، ربما يفقدون أرواحهم أو سياراتهم، حرس حدود من طرف البلدين لهم بالمرصاد، لذلك أجرتهم عالية، جلس بجانب السائق شخصان واحد معه جهاز لاسلكي والثاني معه سلاح، نبهونا منذ البداية أن أي شيء يمكن أن يكون صادماً أو قاتلاً يخطر على البال وارد في أثناء هذه الرحلة، وأن السيارة سوف تنطلق بأقصى سرعة لا يهم حفر أو مرتفعات، والحبال هي حبال نجاتك في حالة إذا أمسكت بها بقوة، أما إذا أهملت ووقعت

عليك العوض، لن تتوقف السيارة لإنقاذك أبداً، وستطمر جثتك الرمال، ولن يهتدي أحد إلى مكانك، الحمد لله وصلنا الحدود بين البلدين ولم يقع منا أحد، كمنوا واستخبوا بنا وسط جبال عالية لمدة ساعة ونصف بحجة أنهم يستشعرون خطراً ما، جاءت سيارة مصرية كالبضاعة قلبونا فيها، تمنوا فينا من الأجرة ما يملأ جيوبهم حسب أحلامهم، بعد مرور ثلاثة أيام وصلنا مكان اسمه الكسارات، ومن هناك ركبونا ميني بص أوصلنا إلى مجمع لاجئين داخل أسوان، وصلنا مرهقين تعبانين ومتسخين، وجوهنا عليها غبرة ترهقها قترة، وأجسادنا ما فيها موضع إلا ويئن ويشتكي، استقبلنا ورحب بنا بعض إخوة لنا في أسوان، مكثنا فيها قرابة ستة أشهر، مدينة جميلة، من أكثر المدن شاعرية، من أكثرها سخونة وشمساً وجفافا، جوها مشرق ومشمس على مدار السنة، شتاؤها قصير ودافئ، ركبنا فلوكة، سفينة شراعية تقليدية، تجولنا بها حول جزيرة فيلة، التي تقع في منتصف نهر النيل، زرنا أطلال معبد خنوم، وضريح أغا خان تحفة معمارية نادرة، وقبة الهوا، جبل صخري على الضفة الغربية للنيل به مقابر منحوتة، ومعبد أبو سمبل الذي يقع على الضفة الغربية لبحيرة ناصر، ويعتبر واحد من أعظم الأعمال في الهندسة الأثرية إذ تم نقله إلى هذا المكان قبل أن تغمره مياه السد العالي، وقبل أن تغمر حلفا دغيم، حلفا القديمة ولا باريس، وغرب سهيل إحدى التجمعات النوبية في أسوان رمز صداقة مصرية سوفيتية، وجزيرة النباتات، من أقدم الحدائق في العالم تحتوي على العديد من الأشجار والنباتات النادرة، وفندق كتراكت، أنشأ على صخرة من الجرانيت الوردي يطل منها على النيل بطابع أسطوري شرقي، ومسجد الطابية الذي سمي على اسم المنطقة التي أقيم فيها، ومتحف النوبة، به ما يزيد عن خمسة آلاف قطعة أثرية، والمقابر الفاطمية، يرجع تاريخ القباب الموجودة فيها إلى القرن الرابع الهجري، والمسلة الناقصة على الشاطئ الشرقي للنيل على بعد كيلومتر واحد من أسوان، ومتحف النيل، يضم قاعات عرض ومؤتمرات ومكتبة وقاعة كبار زوار

ومسطحات خضراء، ومتحف أسوان أو متحف جزيرة إلفنتين، يضم كثير من تماثيل الملوك وبعض المومياوات للكبش رمز إله مصر القديمة (خنوم)، وأنواع من الفخار، ولوحات جنائزية، بحيرة ناصر، أكبر بحيرة صناعية في العالم، وخزان أسوان، وهو يختلف عن خزان السد العالي، أسوان غسلت فينا رهقاً وتعباً وبعض هموم، عشنا فيها أياماً حلوة لا تنسى بغض النظر عن ارتفاع درجة حرارة الجو، تذوقنا حلاوة الأمن، فرهد أولادنا من جديد، تدفقت مياه الحياه في وجوههم، عادت لها بسمات وضحكات بريئة، أدخلناهم مدارسها، وبعد أن أكملوا سنتهم الدراسية انتقلنا إلى أم الدنيا القاهرة، ركبنا القطار خلسة إليها، سجلنا أسماءنا في مفوضية عامة للاجئين، سكنا في البداية في حي النزهة، قابلنا فيه كثيراً من أهلنا الذين لجئوا إلى هناك، ثم انتقلنا من هناك إلى مدينة بدر لأن القاهرة زحمتها شديدة وحرها لا تطاق، نحن أولاً وأخيراً هدفنا مصلحة أطفالنا، ألا يتضرروا أبداً من إفرازات هذه الحرب اللعينة، بعد أن أوقفت السلطات المصرية مدارسنا السودانية عن العمل بحثنا عن إمكانية مواصلة تعليمهم في مدارسهم المصرية). ختام كلامه: (جنجويدٌ مستعمرون جدد دخلوا بلدنا دار السمبر، لم يبق لنا خط رجعة، العدو من أمامنا والعدو من خلفنا، مغاليق الغيب مفاتيحها عند الله، نسأله الستر والثبات على الملة وعدم الخذلان، مشوارنا طويل، وزادنا قليل، نمشي على كف القدر ولا ندري عن المكتوب).

مرت أيام الفحيل حبلى بجديد كثير مثير، جديد خالي من أية بشارة فرح، جنجويدٌ يتمددون وينتشرون، كجراد آل فرعون، أكلوا زروعهم، وثمارهم، وأبوابهم، ونوافذهم، وسقوف بيوتهم، وثيابهم، لأن دعماً خارجياً من عتاد حربي متطور ووقود يأتيهم عبر الحدود، ومرتزقة ومجرمون يتدفقون من دول الجوار، وتجاوزاتهم بخرق قوانين دولية مسكوت عنها، وجيش يتقوقع ويتخندق ويدافع، لأن حصار عليه مضروب، ممنوع عنه سلاح، ولأي خطأ منه غير مقصود يقومون الدنيا ولا يقعدونها، ويلوحون تخويفاً بعقوبات، إنها لعبة

أمم وليست لعبة جنجويد، لأنهم جرذان لا يسوون حفنة ملاليم؛ في خضم هذه الأحداث جاءه اتصال من عمه، ما صدق أنه سمع صوته الحنون، الذي غيرت بحته ونبرته الحرب ومآسيها، بعد تحية وسلام وتعزية في وفاة أمه خاطبه قائلاً:

- (عدنا بأعجوبة من الجزيرة، عاد نصفنا، ونصفنا الآخر ما زال هناك).

صمت طويلاً ثم أردف قائلاً:

- (عندنا مشكلة في السكن).

رد قائلاً:

- (بيتي فيه ساكنون من الجيران، ويمكنكم أن تقاسموه معهم، أسكنوا في الجزء الأكبر وهم في الأصغر، إنهما منفصلان، الخصوصية والشرعية متوفرة، وهذه الأيام الناس يسكنون في البيوت كيفما كان، الضرورات تبيح المحظورات، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا، وتعودوا عزيزين مكرمين إلى بيتكم).

رد بنبرة شاكرة قائلاً:

- (بارك الله فيكم، غمة وستزول بإذن الله).

رد قائلاً:

- (أحكي لي حكايتكم العجيبة، والله بقدر ما أنا حزين جداً لما جرى لكم، إلا أني في أشد الشوق لسماعها).

قال بنبرة لا تخلو من أسى وأسف وشعور بذل وإهانة من أناس أراذل لا يسوون فردة جزمة قائلاً:

- (عندما كنا في بيتنا في التلال بحري كنا نشاهد من بعيد ألسنة دخان وأصوات قذائف، ومن وقت لآخر تأتينا أخبار الحرب متفرقة وحياتنا تسير شبه طبيعية، ولكن الخوف كان يتعاظم في نفوسنا بشكل كبير، ظللنا على هذا المنوال فترة من الزمن، ودوام الحال من المحال!! جيراننا يتناقصون إنهم في حالة نزوح دائم، في كل مرة تنزح أسرة أو أسرتين، الباقون الصابرون القابضون على الجمر لم ينزحوا لأنهم لا

يعرفون لهم ملجأ يلجؤون إليه، ثم بدأ الجنجويد يتمددون يزحفون كالنمل الأسود نحو الأطراف! يدخلون بيوت المواطنين! ويعيثون فساداً في المؤسسات الخدمية وخاصة المستشفيات! دخلوا مشفى البان جديد أقرب مشفى لنا، أكبر بناتي على وشك أن تلد جنينها الذي يتحرك في بطنها، ما تحركت سيارة إلا وقام جنجويد بإيقافها وضرب من فيها أو أسرهم أو قتل بعضهم، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين يعملون في حقل طبي، كنا ممن صبروا وصمدوا طوال هذه المدة إلا أن علامة حمراء بدأت تلوح لنا في الأفق، كثرة تعديهم على مواطنين عزل وعبثهم بمستشفيات وكثرة ارتكازاتهم أدخلت في نفوسنا الرعب، كان لنا صديق من أهل الجزيرة فتى اسمه (مصباح)، من قرية تسمى خليف ضواحي أبو قوته، طلب منا الخروج إلى قريتهم، تفاكرنا وأولادي في هذه السانحة، التي إذا ما ضيعناها ربما نندم عليها في مقبل الأيام، ولات حين مندم، توكلنا على الله في النزوح في أرضه الواسعة، نشدنا سلامتنا وسلامة أولادنا وأعراضنا، ومن كان في معية الله لن يضيره شيء أبداً، لا جنجويد ولا شيطان أخرس ولا أبكم، سهل الله لنا أمر حافلة وجهتها مدينة الحصاحيصا، كان الخروج في ضحى الثلاثاء السابع عشر من أكتوبر العام ثلاثة وعشرين، كل الجيران الذين بقوا في بيوتهم كانوا في وداعنا بعيون باكية، وبقلوب وجلة خائفة، لم نحمل معنا سوى قطع ملابس معدودة وأغطية برد لأطفالنا، كان بالحافلة أسرة واحدة، شاب وأخيه وأخته وأمه، وأسرتي، زوجي وأربع بنات وبنتي الكبرى وأطفال ثلاث وطفلتان، مشهد مروع، الأطفال بحكم براءتهم لا يدركون أنهم

يغادرون بيتهم هرباً من عدو لا يرحم وأنهم ذاهبون إلى غياهب مجهولة، والباقون في قلوبهم حسرة ما بعدها حسرة، يعرفون ماذا يعني أن تكون لاجئ أو نازح، إنك تحت رحمة الغير إما أعطوك أو منعوك، وإما حموك أو تركوك نهباً لسباع دنيا لا ترحم، لذلك كانت قلوبهم واجفة ضرياتها زائدة، لأنهم يعلمون أن قليلاً من أهل هذا الزمان يفقهون معنى حديث النذير البشير: (أرحموا عزيزاً ذل، وغنيا افتقر، وعالماً ضاع بين جهال)؛ عرج بنا السائق على بيت في أطراف شرق النيل مكون من غرفة واحدة وراكوبة صغيرة وحوله بيوت متفرقة، أخرجوا من بطنه عفشاً وكراتين وجوالات لا يعلم ما بداخلها إلا صاحبتها التي تركب معنا، ورفعوا أجهزةً كهربائية ثلاجة وشاشة وغيرها، ملأت هذه المرفوعات داخل وسطح الحافلة مما استثار فينا بواعث ريبة وشك، كانت رحلة اكتنفتها رعاية الله، الولد الشاب وابننا كانا ينزلان في كل ارتكاز، يبرزان بطاقات الأرقام الوطنية ويجيبان على أسئلة منكر ونكير، وحالما يصعدان الحافلة يسألهما من بداخلها عن الارتكاز أجيش هو أم جنجويد؟ إن كان للأول يشعرون بالارتياح وإن للثاني يمتعضون ويشعرون بالخوف إلا ارتكازاً واحداً شذ عن هذه القاعدة، وصلنا الحصاحيصا عن طريق شمال أم ضوا بان وبطريق الإسفلت إلى كبري الحصاحيصا ثم إلى سوقها، وجاء رجال المباحث وشددوا مع المرأة في أمر عفشها، نزلنا من الحافلة وتركناهم وشأنهم معها، وأطفالنا حالتهم يرثى لها، أعمارهم ما بين سنتين وعاشرة يخوضون هذه المعمعة، عيونهم ما رأت إلا كل سمح جميل على شاشة التلفاز وأذنهم ما سمعت إلا ألحاناً وطيب كلام، وما شربوا إلا

ماءً زلالا وما طعموا إلا طعاماً شهياً، والآن حدث ولا حرج، تائهون بين موت وحياة. من هناك اتصلنا على مصباح، رد علينا بغاية حفاوة وترحاب، كان الوقت عصراً والشمس تدنو للغروب، لم نجد إلا حافلة واحدة قاصدةً قرية الفريجاب بالقرب من الذاكرين في منتصف الطريق إلى خليف، نزلنا فيها الساعة التاسعة مساءً، اتصلنا بمصباح فأرسل لنا سيارة مع إخوة له، وضعنا فيها سقط متاعنا وشكرنا صاحب القهوة التي كنا فيها على حسن استقباله وضيافته لنا، بعد عناء ومشقة وأمطار هطوله وعبور برك وترع، وصلنا إلى خليف، سلمها الله وأهلها من كل شر، كانت أسرته الكريمة نساءً ورجالاً وصغاراً وكبارا كلهم في انتظارنا، كان استقبالا حافلاً ينم عن كرم وعراقة أصل، بشاشة وجوههم كانت خير عنوان لرسائلهم إلينا، هكذا حال أهل الجزيرة وبلاد السمر قاطبة، تصافحنا وتعانقنا وتعارفنا وجاءوا لنا بطعام ثم سمحوا لنا بالنوم لنأخذ قسطاً من الراحة بعد تعب سفر طويل، في الصباح التالي جاءوا لنا بأواني شاي وزلابيا وجاء الجيران الذين لم نتقابل معهم أثناء الليل، وفي أنس بهيج قضينا وقتاً ليس بالقصير ثم انفضوا عنا، تركونا وذهبوا إلى أعمالهم ومزارعهم ومراعيهم، الحديث عن كرمهم وحفاوتهم وحسن عشرتهم يطول ويطول، مهما وصفت لن أوفيه حقه، لا ينقطع أحدهم عن مضيفة الضيفان إلا لسبب قاهر، ويأتي الابن إن تأخر الأب، جلسنا في معيتهم لمدة شهرين بالتمام والكمال، يا الله!! أخجلونا، أعطونا دروساً في الشهامة والكرم، ذكرونا حاتم الطائي ومناقبه، ثم تحركت بنا سيارة ابن لهم اسمه (حمزة) أنا وبعض أفراد أسرتي ومعنا خالته إلى

الحصاحيصا وضالتنا أن نبحث عن فرص عمل هناك، قمنا باستئجار منزل بأبي فروع قرية تقع شمال المدينة بمبلغ اسمي زهيد لأسرة عريقة، تخالطت أسرتي مع أسرهم وأسر أخرى فصاروا أسرة واحدة، كانت الحياة في تلك القرية هادئة وآمنة، مكثنا فيها أسبوعين تقريبا، غادرناها وعدنا إلى قرية خليف بعد أن يئسنا من فرص العمل، وفي هذا الأثناء وضعت بنتي مولودة في مستشفى أبو قوته، وبعدها بيومين دخلها جنجويد واستباحوها، خربوا مشفاها وفر الناس ناجين بجلودهم من بطش هؤلاء الأوباش الهمج الذين خرجوا من البلدة ثم عادوا إليها بعد أيام قليلة واحتلوا محكمتها وغيرها من المؤسسات، بعد ولادة المولودة رجع بعض أفراد الأسرة إلى أبي فروع حيث خال لهم هناك وبقي الباقون في خليف، في هذه الفترة دخل جنجويد الحصاحيصا، ودخل الخوف في نفوسنا على الذين بقوا في أبي فروع لأنها قريبة من هناك، ولكن مصباح وحمزة أبت شهامتهما وعزة نفسيهما إلا أن يفعلا المستحيل في سبيل إغاثتهم، جاهدا في الوصول إليهم من طريق غير معروف وغير مطروق، خرجوا بهم من أبي فروع إلى الحصاحيصا بعربة كارو ومن هناك بسيارة إلى قرية تسمى سوحان، منها مشوا على أرجلهم نحو قرية خليف لعدم وجود مواصلات ولسوء الطريق، ولعناية ربهم وحسن طالعهم وجدوا سيارةً مقلوبة في الطريق، شارك حمزة في إصلاح السيارة فهو أصلاً سائق وصاحب خبرة في ميكانيكا السيارات، تعاونوا على رفع السيارة وحملوا بضاعتها عليها مرةً أخرى، وانطلقوا إلى خليف، نزلوا هناك، وواصلت السيارة إلى وجهتها، بعد ثلاثة أسابيع من وصولنا إلى خليف

طلع بعضنا ومعنا حمزة بطريق طويل إلى سوحان ثم إلى كيجاب والذاكرين ومنها إل طابت الشيخ عبد المحمود ثم إلى الحصاحيصا ومنها إلى أبي ضلوع، سلك سائق المركبة بنا طرقاً غير معهودة من الصباح إلى غروب الشمس لأن الترع مكسورة والمياه بحار جارية خوفاً من دخول الجنجويد إلى القرى، وبعد وصولنا إلى أبي ضلوع سمعنا أن جنجويداً قد دخلوا الحصاحيصا، استولوا على المرافق وبيوت المواطنين وقطعوا شبكات الاتصالات، منذ ذلك الوقت انقطعت الأخبار بين شطري أسرتي، شطر قرية أبي ضلوع وشطر قرية خليف، ولكني كنت في غاية الاطمئنان عليهم لأني تركتهم تحت رعاية إخوة كرام بررة، مضى أكثر من شهرين زاد فيهما جزع الأم على بناتها، فألحت على الذهاب إليهن رغماً عن كل المخاطر المحدقة بالطريق، رافقاها حمزة ومصباح بطريق المناقل، اعترض طريقهم جنجويد فعادوا مرغمين إلى قرية العزازي، وبعد أن باتوا بها تحركوا صباحاً إلى المناقل ومنها إلى طابت الشيخ عبد المحمود وباتوا بها، كل ذلك في شهر رمضان ثم وصلوا إلى الحصاحيصا في اليوم الثالث علماً بأن هذه المسافة في الظروف العادية تستغرق ساعتين فقط، ومن هناك توجهوا نحو خليف، دخلت الأم على بناتها ومن هول المفاجأة علت أصواتهن وانهمرت دموعهن بغزارة، هرع الجيران نحوهم لمعرفة الخبر، وعمت الفرحة في تلك اللحظة الجميع، سعدوا باللقاء أياماً وليالي ولكن قلوبهم كانت متعلقة بمن بقوا بأبي فروع، وبحمزه وأمه اللذان سافرا ولا يعلم أحد لهما خبر، ولا إمكانية للاتصال بهما إلا عن طريق شبكة استار لينك التابعة للجنجويد

وأجرة الاتصال ثلاثة ألف جنيه للساعة الواحدة، ويتطلب ذلك الذهاب إلى المناقل أو العزازي. الجنجويد كانوا يدخلون خليف لنهب السيارات إلا أن شبان القرية عبر مكبرات الصوت بالمساجد كانوا يعلنون عن اسم صاحب السيارة ومكانه فيهب الرجال ويقفون حائلاً دون ذلك، وكثيراً ما تعرضوا للضرب بالرصاص الحي، كسروا أيادي وأرجل كثير منهم وقتلوا بعضهم، دخلوا المنزل الذي كنا فيه وكانت فيه سيارة تاكسي، قابلهم حمزة سألوه عن مفتاحها، لم يعجبهم كلامه هددوه بالقتل، سمع صاحب السيارة بالخبر، جاءهم بالمفتاح، لم يستطيعوا قيادتها لعطل فيها، عادوا لها بعد شهر وسحبوها بعربة أخرى، نهبوا من هذه القرية أكثر من مائة سيارة، جاءوا مرةً أخرى لأخذ سيارة من أحد بيوت القرية بناءً على معلومات من متعاونين معهم من أبناء القرية، تمنع صاحب البيت بحجة أن السيارة أمانة عنده، قتلوه أمام أهل بيته وأخذوها، مرة ثانية جاءوا لنهب سيارات، اعترضهم أهل القرية، أطلقوا عليهم النار، أصابوا أحدهم في ظهره، كل ذلك حدث في شهر رمضان المعظم، لله جنود خفية لا يعلمها إلا هو، يسلط جنجويداً على جنجويد، يتقاتلون على سيارات منهوبة، في مرة من المرات قال أحدهم لرفقائه: هذه السيارة محجوزة لأخي، قال آخر: محجوزة لابن عمي، وببساطة انتهت الحكاية بقاتل ومقتول، أبناء القرية الذين انضموا إليهم أو تعاونوا معهم نهايتهم أنهم قتلوهم بدم بارد، أتوا بامرأتين للقرية ليقمن بإعداد شاي لهم، تشاجروا حول أن تذهب إحداهن معهم وتبقى الأخرى أو يذهبن الاثنتان، أفنى بعضهم بعضا، رموا جثث قتلاهم في

النيل وذهبوا في حال سبيلهم؛ حل العيد، والناس في حزن وضيق لا يعلم مداه إلا الله، دعونا الله مخلصين له الدين أن يخلصنا من هؤلاء الأوغاد، ويعود الأمن والسلام إلى بلدنا الذي تكالبت عليه دول الشر؛ بعد هذه المدة الطويلة التي مكثناها هنا عزمنا على العودة إلى أم درمان بعد أن سمعنا أن الأوضاع هناك قد تحسنت ويمكن للناس العودة إلى منازلهم، الباص السفري هو وسيلتنا الوحيدة للخروج من أبي فروع إلى بورتسودان، سفينتنا للنجاة من جحيم الجنجويد، جاء المسافرون بحقائبهم وأمتعتهم، صدرت أوامر الجنجويد بتفتيش العفش على الأرض قبل رفعه على الباص، وبعد مجيء قائدهم ورأى كبر حجم العفش أمر بذهاب الباص من وسط القرية إلى طرفها الجنوبي حيث يوجد ارتكاز لهم هناك، أنزلوا كل الركاب الرجال، أوقفوهم صفاً واحداً وطالبوهم بإبراز بطاقات هوياتهم، الجواز لديهم لا يبرئ الذمة لعدم وضوح المهنة، صعد آخرون على متن البص وهم يتفحصون وجوه باقي الركاب والحقائب التي على الرفوف، أما الحقائب داخل أدراج الباص أنزلوها كلها وفتشوها بدقة وعبثوا بمحتوياتها، همهم الأشياء الثمينة الذهب والمال وأي مستند يجعلهم يبتزون الناس باتهامهم بأنهم فلول أو لديهم خلفية عسكرية، تحرك الباص بعد ثلاث ساعات تفتيش، مررنا بأربعة ارتكازات إلى أن وصلنا إلى كبري رفاعة، بعد كل نصف كيلو ارتكاز، ينزلون كل الركاب ما عدا كبار السن والنساء، نفس الأسئلة عن الهوية والوجهة المقصودة، إن شكوا في راكب لأي سبب من الأسباب يقومون بتفتيشه بدقة ويأخذون جواله ونقوده، بعد وصولنا الكبرى اتجهنا نحو مدينة

رفاعة، مررنا بقليل من الارتكازات الصغيرة والإجراءات فيها خفيفة نسبياً، بعدها مررنا بأراضي سهول البطانة، «ودعته والأهل والعشيرة.. ثم قصدت من هناك ريره، نزلتها والقرشي مضيفي.. وكان ذاك في أوان الصيف، وجدته يسقي جموع الإبل.. من ماء بئر جره بالعجل...»؛ قبيل مغيب الشمس وصلنا قرية ود جودات، وصلناها بعد عناء ورهق وتعب، الجلوس على مقاعد البص من شروق الشمس حتى غروبها أمر غير محتمل، هرع أهلها نحونا كبارا وصغاراً، قادونا إلى مضيفتهم، أخذوا النساء والأطفال إلى داخل بيوتهم، أحضروا لنا على عجل ماء شرب ووضوء وفرشوا الفرش للصلاة، بعد أدائنا لصلاة السفر قصراً وجمعاً وجدنا الساحة ملئت بأسرة ومراتب ووسائد، ثم بدأ كرمهم الحاتمي الفياض مع ضيق ذات يدهم!! تسابقوا لخدمتنا، كل أصناف الطعام في متناول أيدينا، خبز، أرز، لحم، عصيدة بروب وتقليه، لبن، شاي، قهوة، وبسكويت؛ شيوخ كبار في السن خدمونا بأنفسهم ونادوا على أولادهم بإلحاح للقيام بالواجب نحونا على أكمل وجه، مع طلوع الفجر، وبعد أداء الصلاة نوينا على الرحيل، ولكنهم أبوا لنا إلا بعد شرب شاي لبن وتناول زلابيا وفطائر وبسكويت، بعد ذلك أذنوا لنا بالمغادرة مع دعواتهم لنا بالسلامة وأن يحفظنا الله في حلنا وترحالنا ودلونا على طريق خلوي تفادياً للشفشافة وقطاع الطرق، انطلق بنا الباص والجميع تلهج ألسنتهم بشكر وثناء على هؤلاء القوم الذين يضرب بكرمهم المثل، شعرنا بقدر من أمن وأمان إذ لا توجد ارتكازات للجنجويد بعد رفاعة، في طريقنا إلى القضارف قابلنا أول ارتكاز للجيش في مكان قريب من

القدمبلية، كانت فرحتنا لا توصف، ثم مررنا بها، وبعدها بمسافة ليست بالقصيرة رأينا طريق الإسفلت وذلك بعد مسيرة يوم ونصف على التراب، تعاظمت فرحتنا عندما سمعنا رنين أحد هواتف الركاب، من شدة الفرح صاح الجميع: (دخلنا الشبكة، الشبكة دخلت، كنا وين وهسي نحن وين، يا ما أنت كريم يا رب)، وصلنا القضارف، نزلنا للصلاة وتناول وجبة الإفطار، ثم وصلنا عند المغرب إلى كسلا نزلنا وبتنا بها، وعند الصبح شربنا الشاي بها وغادرناها إلى سنكات، فطرنا بها وكانت تلك هي آخر وجبة لنا نتناولها مع أصدقائنا وأحبابنا أهل خليف الذين أبت نفوسهم الأبية إلا أن يرافقونا في رحلتنا هذه حتى هنا، كانت لحظة وداعهم وفراقهم قاسية جداً علينا، انهمرت دموعنا وحزنت قلوبنا وتدفقت مشاعر حبنا العميق لهم، ومنها ركبنا باصاً وجهته هيا ثم عطبرة، مررنا بسلاسل جبلية وبأراضي جرداء خالية، عند العصر كنا في عطبرة، استأجرنا غرفة جوار أحد مساجدها، قضينا ليلتنا هناك، صلينا الجمعة بالمسجد الكبير، الذي أدهشنا بحسن هندسته وجماله وسعته، وسمعنا خطبةً بعثت في نفوسنا أملاً، وأنستنا ما كنا فيه من عذاب وألم، بعدها ركبنا حافلة إلى شندي عبر طريق معبد مناظر طبيعية حوله ممتعة جميلة، تكثر فيه نقاط ارتكاز الجيش والتفتيش فيها دقيق جداً خصوصاً للقادمين مثلنا من الجزيرة، هناك في شندي جمعتنا الصدفة بجيران لنا عندما كنا نسكن الحاج يوسف، عشنا معاً أياماً عامرة بالود، شتتنا أيدي سبأ هذه الحرب اللعينة، وها نحن نلتقي بدون موعد فأجبرونا على النزول في ضيافتهم، قضينا معهم ليلتين أنستنا ما نحن فيه من رهق وضياع

وقلة حيلة، والجنجويد لعنة الله عليهم لاحقونا حتى هنا بمسيراتهم التي اسقطها الجيش بعد أن أحدثت خسائر طفيفة، خرجنا في الصباح الباكر على متن باص إلى أم درمان، الجيش منتشر في الطريق حتى مشارفها وشوارعها، وصلنا بالسلامة سوق صابرين ومنه إلى منزل ابن أخي في الحارة التاسعة والستين الثورة، ومنه إلى بيتكم بالثورة، بمجرد أن دخلناه أصابتنا رعشة، اغرورقت أعيننا بالدموع، عادت لنا صورة ملكة الدار، أمك، عليها رحمة ورضوان من الله، كانت تلقانا في زياراتنا لها هاشة باشه، تطير نحونا بأجنحة فرح، وعندما تأتينا في (التلال)، وتقضي معنا ما شاء الله لها أن تقضي، يتحول بيتنا إلى جنة، يغرد فيها أطفالنا كما لم يغردوا من قبل، عشمنا وظننا في الله لا يخيب أبداً، قريب جداً سوف يخرج الغاصبون ذليلين من بيوتنا، سوف تعود الحياة إلى طبيعتها ونعود كطيور الرهو والسمبر عندما تؤوب إلى أوكارها في الخريف!!! لم يطب لنا بعد المقام في بيتكم هنا، أنَى يكون لنا ذلك وشطرنا الآخر في خليف، وما بين هنا وهناك، واليوم وغداً، أهوال وعواصف ورعود لا يعلمها إلا الله). ثم كلمتني بنيته التي يكفي ما قاسته من معاناة أن تنال به رضاً من الله وينال به الجنجويد سخطاً منه، قالت بنبرة لا تخلو من حزن وألم وكمد: (حكايتي حكاية تبكي الغنماية، عند وصولي إلى خليف كانت حاملاً في شهري الثامن، ذهبت إلى مشفى أبو قوته وحددوا لي موعداً للولادة، وكنت أذهب لهم للمتابعة من وقت لآخر، وعند حلول الموعد ذهبت وأهلي إلى هناك بصحبة مصباح وأهله ولفيف من أهل القرية، وبحمد الله ولادتي كانت طبيعية ورزقني الله بمولودة

صالحة، وبعد رجوعنا إلى القرية بيومين دخل جنجويد أبو قوته في يوم سوقها، اليوم الذي يأتي فيه أهل القرى من حولها لبيع ما عندهم وشراء احتياجاتهم، عاثوا فيها فساداً، أدخلوا الرعب في قلوب أهلها، نهبوا السيارات والأموال، سطوا على الصيدليات والبنوك، اقتحموا المشفى، غادره المرضى هاربين على غير هدى، استولوا على المحكمة ونصبوا فيها قضاة من مجرمين ونهابين، فر الناس على الأقدام ناجين بحرائرهم وأطفالهم، بعد احتلالهم للقرية أصاب الشلل كل القرى من حولها، وانقطع الناس من المجيئ إليها إلا بعد ترقب وحذر، جاء أبي وباقي العائلة من أبي فروع إلى خليف للمشاركة في فرحنا بتسمية المولودة، قضوا معنا أياماً ثم عادوا، تركوني ومولودتي وأمي وبنتي التوأم وأكبر أبنائي لله وذهبوا، لم ينقطع التواصل بيننا وبينهم لوجود شبكة الاتصالات، ثم حدث انقطاع كامل لها استمر إلى اليوم، انقطعت عنا خدمات الكهرباء والماء لمدة شهرين، ومما زاد من قساوة معاناتنا عدم وجود وقود للسيارات والوسيلة الوحيدة المتاحة لنا عربات كارو، يذهب ابني وأخ لمصباح بها لجلب الماء من قرية خرفان المجاورة لوجود طاقة شمسية بها، علمنا بإمكانية الاتصال عن طريق شبكة استار لنك بقرية العزازي التي يستغرق الوصول إليها ساعة وزيادة، سافرت برفقة حمزة إلى هناك، اتصلت على زوجي بقطر، طمأنته على أحوالنا وبدوره طمأنني على أهلي بأبي فروع الذين كان على اتصال بهم، المتعاونون مع الجنجويد بقرية متاخمة لخليف وفروا خدمة ستار لنك مما سهل لنا الاتصال بأهلنا على فترات متقاربة؛ رجع أبي ومن معه إلى أم درمان، ولم نتمكن نحن من السفر

لوجود جنجويد بالقرى المجاورة، وعزوف أهل السيارات عن السفر خوفاً منهم، بعد هدوء الأوضاع ودعنا أهل القرية ليلاً ومع ساعات الفجر الأولى ركبنا لوري برفقة مصباح، خوف الدنيا كله تجمع واستكن في قلبي، خوف على مولودتي التي لا حول لها ولا قوة، ثدياي جلود جف لبنها من سوء التغذية، وعيناي كلت من النظر إليها وهي في حالة يرثى لها، وصلنا قرية اسمها (طربانة)، توقفنا فيها لوصول تحذيرات بأن جنجويداً وشفشافه متواجدون بقرية مجاورة اسمها (الجميلية)، عادت كل السيارات من حيث أتت وبقينا نحن في هذه القرية، ضيفونا وأكرمونا غاية الإكرام وعند المساء دخلت سيارات إلى القرية مما يعني أن الطريق آمن، ركبنا في لوري محمل بدقيق وعيش ذرة ذاهب إلى قرية العزازي، بعد وصولنا إليها بتنا ليلتنا مع أسرة صديق لمصباح، ما وجدنا منهم إلا حسن ضيافة وكرم، مع شروق الشمس ركبنا بوكس إلى المناقل، كنت أهز وأقرص مولودتي لكي أتأكد من أن أعصابها الحسية ما زالت تعمل، وأنها حية ترزق، استغرقت الرحلة أربع ساعات، كفانا الله شر الجنجويد، مررنا بعدة نقاط ارتكاز للجيش وخضعنا لإجراءات تفتيش دقيقة لحقائب ولأوراق ثبوتية، وعند وصولنا المناقل رن جرس هاتف المصباح، وكان المتحدث ابن خالته من قريتهم خليف التي غادرناها، أفضى إليه بأخبار محزنة، جنجويد دخلوا القرية، قتلوا ابن خالته أصابوا أخاه وابن خاله، الأول في رأسه والثاني في رجله ، لأنهم حاولوا الذود عن امرأة استنجدت بهم، هذا الحادث المؤسف كان سبب تأخيرنا في المناقل، أُسعِفَ المصابون إلى مشفاها، جاء أهل صديق لزوجي في قطر واستضافونا

ببيتهم، قضينا معهم عشرة أيام كنا نذهب خلالها لزيارة المصابين للاطمئنان عليهم، بعدها ودعناهم جميعاً وودعنا مصباح الذي تعذر عليه مرافقتنا إلى أم درمان، مع شروق الشمس شددنا الرحال ركبنا الباص إلى سنار، وكنت أهش بكفي أمام عيني مولودتي لكي ما أتأكد أنها تبصر، وأهمس في أذنيها لأتأكد أنها تسمع، ومنها إلى جبل مويه ثم الدندر التي بتنا فيها، مع الصبح واصلنا رحلتنا مررنا بالفاو ثم سنجة ثم القضارف ثم كسلا، وكان المبيت بغرفة استأجرناها بها، وصلنا سنكات مع صباح اليوم الثالث لمغادرتنا خليف، غادرنا سنكات إلى عطبرة نهاية رحلة الباص الذي كان يسير على حفر وطرق رملية، ويتفادى شارع الإسفلت بقدر الإمكان ولا يتوقف إلا لأكل أو نوم، استأجرنا غرفة وبتنا ليلتنا هنا، بعد شروق شمس اليوم الرابع ركبنا باص إلى أم درمان، لم تفارق عيناي عيني مولودتي، في كل لحظة كنت أشك أنها في رمقها الأخير، وأنها تحتضر، كانت هامدة كالحجر، لا بكاء ولا صراخ ولا حركة، نزلنا للإفطار في شندي، وبسبب خضوعنا لتفتيش دقيق في عدة نقاط ارتكاز للجيش تأخرنا في الوصول قبل وقت الحظر مما جعلنا نضطر للمبيت في (البادوبا) وهي منطقة عسكرية بالريف الشمالي، في الصباح غادرنا إلى أم درمان، وصلنا لأهلنا، كان لقاء!!! ويا له من لقاء، فرحة ممزوجة بدموع، لقاء أمل بعد يأس، لقاء شموس بعد ظلام، لقاء اشتياق لا يدانيه اشتياق، سبحان الله، المولودة كأنما نفخت فيها الروح من جديد، فرهدت، حركت أطرافها الصغيرة بعنف، لو كان المواليد يتكلمون في المهد لتكلمت، لكنها أصدرت صراخاً وبكاءً بصوت عالي).

الفحيل ما عاد هو الفحيل، أصبح غريباً على نفسه، شاخ خلال هذه السنة البئيسة، شهره مقداره سنة مما يعدون، ما رأى وما سمع وما استشعر فاق حد تصور خياله، وحد تصور تشاؤمه، أن يأتي يوم يعيش فيه أهل بلده في سرداب مظلم، يعيشون تحت رحمة قراصنة وبرابرة وآكلي لحوم بشر، ذلك كان عنده ضرب من المحال، أنَى يكون ذلك في قرن وصلت فيه البشرية مراحل متقدمة من التطور واحترام حقوق الإنسان، ذلك عنده ضرب من المستحيل، تأكد له بما لا يدع مجال للشك أن كل الذي تدعيه البشرية ما هو إلا قشور، أما جوهرها، فهو هو، الإنسان!!! هذا الكائن العجيب! مهما تقدم وتطور نفسه هي هي، أمارة بالسوء إلا من رحم الله، الفحيل ما هو إلا بالون مملوء بهواء نوائب وهموم، على وشك أن ينفجر ويشظى إلى نثار تلعب بها الريح وتشتته في كل مكان.

(٢٦)

سافر الفحيل وأهله إلى الرياض أم المدائن السعودية لقضاء بعض الوقت مع صهرهم وولدهما وبنتهما هناك، لم تستغرق الرحلة بالطائرة من تبوك أكثر من ساعة ونصف، قضوا فيها أوقاتاً ممتعة أنستهم بعض ما هم فيه من ضجر وسأم وكدر، ولكنها لم تنسيهم ما يلاقي أهل بلدهم من ضيق وبؤس وعنت، بهرته مظاهر التقدم العمراني فيها، برج المملكة يعتبر من أشهر ناطحات السحاب في العالم، وبرج الفيصلية أول ناطحة سحاب بنيت في المملكة تشرف على قمته كرة زجاجية بقطر أربعة وعشرين متراً، جبل طويق أبرز المعالم الثقافية التاريخية والسياحية، قصر المصمك، عبارة عن حصن يتكون من أربعة أبراج مراقبة، مبني من اللبن، وقصر الحكم، أحد المعالم السياحية التي تعرض تاريخ المملكة والرياض، طبيعتها الصحراوية اشتهرت بظاهرة التخييم، المبيت ليلة أو أكثر في خيم بعيداً عن المنزل، مركز الملك عبد الله المالي، مطار الملك خالد الدولي، جامع الإمام تركي بن عبد الله، مركز الملك عبد العزيز التاريخي، المتحف الوطني السعودي، وكثير من المتاحف الرسمية والخاصة، مركز الملك فهد الثقافي، مكتبة الملك فهد الوطنية، مكتبة جرير، قصر طريف، المهرجانات والأحداث الثقافية السنوية مثل المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية)، نظافتها وصحة بيئتها يشهد عليها خلوها من ذباب وبعوض، وبالطبع حينما تأتي سيرتهما على مسامعه يقشعر بدنه ويتذكر لياليه السود التي كان يقضيها في أرق دائم ودم مهدر في الفارغ يذهب إلى بطون بعوض نهم لا يشبع ولا يخجل.

جاء لزيارتهم أقرباء لصهرهم، حكوا لهم عن معانتهم في مدينة أسمرة العاصمة الأريتيرية التي كانوا فيها، قضوا فيها شهراً إلا قليل ينتظرون إكمال إجراءاتهم للحضور للمملكة، لاجئون كثر من بلاده يملئون طرقات المدينة، أهل المدينة طيبون ومهذبون ويرحبون بالضيوف، عملتهم (النقفة) قوية، الدولار يعادل خمسة عشر منها،

الاتصالات عندهم مشكلة والانترنت مشكلة أكبر، المدينة على ارتفاع ألفين متر فوق مستوى سطح البحر، مناخها بارد نسبياً، مركز تجاري هام، فيها وزارات وسفارات ومؤسسات حكومية، يعمل أهلها في تجارة وصناعة، وبعضهم في حرف يدوية وتربية ماشية وزراعة حبوب وتبغ وبن في ضواحيها، فيها شوارع واسعة تجملها أشجار نخيل تصطف فيها، بها ساحات وحانات ومقاهي، تطغى ثقافة إيطالية على كثير من مناحي الحياة خصوصاً الطعام، اسبريسو وكابتشينو ولاتيه، لقبوها ب (روما الصغيرة)، بها آلاف مباني تحكي عن فن زخرفة قديم، وطابع روماني جديد، وطراز فيكتوري، شيدت إبان فترة إريتريا الإيطالية، زاروا دار الأوبرا، جامعة أسمرة، سينما امبيرو، مبنى فيات تاقليرو، محطة السكة حديد، المبنى القديم في الحي الأوروبي، المركز التاريخي لأسمرة، فندق إمبريال القديم، وبنسيون كاسا ديلقي إتالياني، زاروها ليملئوا وقت فراغهم، ويحاولوا أن ينسوا ما هم فيه، ينسوا ما فعله فيهم الجنجويد، قد ينسوا لأنهم كبار سن، ولكن أطفالهم لن ينسوا ما حصل أبداً، سيشبون عن طوق وفي رأسهم شيء واحد أن يأخذوا ثأرهم وثأر بلادهم ممن فعلوا ومولوا ودعموا هذه الحرب. ذكره هذا الحديث قريباً له بيته في أم بدة نهبه جنجويد بالكامل، لم يتركوا فيه حتى الملاعق، لجأ وعياله إلى يوغنده، استجار من رمضاء بنار، الفقر فيها متفشي، تعد من بين الدول الأكثر فقرا في العالم، تشهد تهديدات مستمرة من اضطرابات مدنية وهجمات إرهابية وأنشطة إجرامية، تركهم في هذا الأتون في العاصمة كمبالا وذهب إلى دولة جنوب السودان لأنه وجد له عملاً هناك، صورتها القديمة أنها غير آمنة وينتشر فيها إجرام ونهب، تغيرت هذه الصورة نوعا ما بعد مصالحات سياسية وقبلية، هذا حال الذين يدخلون هذه البلدان بأوراق رسمية، أما اللاجئون حكاياتهم عجيبة، حمائم وسط وحوش وضباع وصقور، لجئوا إلى بلاد الفقر فيها مزروع، والأمن معدوم، والقتل والموت محتوم، اللاجئون في معسكر كرياندنقو بشمال يوغنده على الحدود مع دولة جنوب

السودان يواجهون ظروفاً قاسية، فرص البقاء أحياء شبه معدومة، معسكر الرنك بدولة جنوب السودان، جوع ومرض وأمطار غزيرة، معسكر كأي في الحدود الاثيوبية، غير آمن بسبب نشاط معارضة وشفتة وتفشي أمراض وجوع. هذه الحكايات ذكرته زميلاً له معلماً مثله اتصل به ليخبره بأنه وصل إلى ليبيا ويبحث عن عمل، والعمل صعب جداً، وإن كان له معارف هناك يمكن أن يساعدوه فليدله عليهم، ضاقت به الدنيا في مدينته النهود، ركب الصعب مكرهاً في رحلة محفوفة بمخاطر، ركب هو وأم عياله وعياله تاتشر مهربين إلى ليبيا، لا ينوي الذهاب إلى أوروبا فردوس أفارقة مفقود، وإنما فرار من نار حرب بدأت ألسنة لهبيها في الوصول إلى ديارهم، رحلة تهريب مرعبة حاصرهم فيها جوع وعطش وبطش مهربين وأهوال صحراء مرعبة، وخطف واغتصاب من قبل ميليشيات مسلحة وارد في كل لحظة، كثيرون لقوا حتفهم في الصحراء بدون ماء وغذاء ووقود، كثيرون عدوا من المفقودين ولا يعرف لهم أثر، وكثيرون نضجت جلودهم من الحر ودفنوا بسبب ضربة الشمس، في سبيل رحلات الموت هربا من الموت دفعوا دم قلوبهم مائتان وخمسين ألف جنيه سوداني مقابل كل رأس إلى الكفرة الليبية، تفادى المهربون بوابات تفتيش الطرفين المتحاربين، وصلوا نقطة المثلث، وهناك كان الاختيار بين مهربين سودانيين أو ليبيين، الأسلم لهم الليبيين، لأنهم أهل البلد، واجهوا الموت عدة مرات قبل وصولهم إلى الكفرة.

زار الفحيل حي (غبيراء) في واحدة من جولاته القليلة داخل الرياض، ارتبط اسمه بأبناء جلدته، كما ارتبط حي (منفوحة) الذي يفصل بينه وبين هذا الحي شارع واحد بأبناء أرض الكنانة مصر، به شارع تنتشر على جانبيه محلات وبقالات تبيع منتوجات بلاده، ومطاعم تقدم مأكولاتها المفضلة، عصيدة، قراصة، وكسرة، لم يعجب هذا المكان الكثيرين من الذين يخافون على سمعة بلادهم، يقولون إنه يعكس صوراً غير حميدة، مظهر العاملين فيه لا يتحلون بشياكة ونظافة تبدو على العاملين من الجنسيات الأخرى، أكياس

(الصعوط) معروضة على رصيف الشارع، يبصقونه بلا مبالاة في أيتها حتة بطريقة تثير الاشمئزاز، أما المطاعم فإنها عجب عجاب، العاملون فيها ملابسهم متسخة ومبهدلة، عراريق وسراويل، لا يرتدون قفازات، طاولات الطعام حدث ولا حرج، صراخ وعياط وهرطقة، يا حليل أيام أن كان آباؤهم وأجدادهم خير سفراء لبلادهم، يضرب بهم المثل في تحضر وأمانة، أما اليوم فإن هؤلاء الوافدين الجدد، كل من هب ودب، من كل الأصقاع، لا يهمهم في هذه الدنيا سوى جمع المال، يضرب بهم المثل في التخلف وإثارة الفوضى، وفضيحتهم هنا ليست ببعيدة، فاتنة من الفاتنات اللائي يشير إليهن العابثون بالبنان!!! مصيبة من مصائب منصات تواصل اجتماعي، اشتهرت بنشر محتويات دعائية، وموضة، وأناقة، أسلوبها لا يخلو من إثارة وابتذال، أتوا بها للقيام بعمل دعائي للترويج لافتتاح مطعم جديد في هذا الشارع، المخزي والمخجل، بودي جارد حراس شخصيون خلفها وجمهور يعج بهم المكان يتدافعون للتبرك والتمسح بها والظفر بنظرة إليها، يا ليتهم كلهم كانوا شفع يافعين!! منهم من وخط فوديه الشيب، نسوا أن الأبطال هناك، يتدافعون في ميادين القتال، يذودون عن تراب وطنهم ببسالة أذهلت العالم، وأن بيوت وشرف وكرامة هؤلاء الحثالة من أهل (غبيراء) يدوس عليها جنجويد أنجاس بأحذيتهم القذرة.

كان جالساً في غرفته عندما جاءته زوجه لتخبره بأن بنتها وقعت من سريرها وبأنها في حالة صحية غير مفهومة، ذهب إليها على عجل، فعلاً كانت مسجاه على أرضية الغرفة وتشتكي بصعوبة من خدر وألم في رجلها ويدها اليمنى، بمشقة حملوها ورفعوها على السرير وهي تئن من الألم وأنفاسها تعلو وتهبط، اتصلوا بالإسعاف، كانوا في حالة بائسة من شعورهم بخوف وقلق وعدم اطمئنان على صحتها، زاد توترهم وقلقهم أكثر وهم يترقبون في أي وقت وصول سيارة الإسعاف التي اتصلوا عليها، وتمنوا لو أن لها أجنحة تطير بها، حمدوا الله على وصولها، صعد مسعفان للدور الثالث بمعداتهما، قاما بإجراءات

كشف أولي، سألاها عن كل ما تشكو منه، وفي الحال قاسا ضغطها وعملا رسم لنبضات قلبها، وتنفس كل من في البيت الصعداء بعد أن أكدا لهم أن فحوصاتها الأولية لا تشير إلى أمر ذي بال يبعث على القلق، ومع ذلك لا بد من أخذها لأقرب مشفى للاطمئنان أكثر على صحتها، أخذوها بالإسعاف إلى مشفى (علي بن علي) بعد معاناة من إنزالها من الدور الثالث بالسلم على كرسي بدلاً من النقالة التي تعذر عليهم استخدامها، أحاط بها الأطباء في قسم طوارئ المشفى، أعطوها محاليلاً وريدية ومسكنات، قاموا بعمل تحاليل لازمة وصور للرجل ورسم للمخ، بدأت حالتها تدريجياً في التحسن، وبعد أن أخذت لها غفوة أو نومة طالبوها بمحاولة المشي، كل نتائج التحاليل والصور كانت إيجابية ولا تشير إلى ما يبعث على الخوف، وبالفعل خرجوا قبيل صلاة العصر من المشفى وهي ماشية على قدميها بعد أن دخلتها على نقالة، الفحيل لا يترك مثل هذه الأحداث تمر مرور الكرام، لأن في قلبه جرح ينزف، جرح بلده الحبيب، قال في نفسه: (الأعمار بيد الله، ولكن في دار السمبر، وفي كل مكان وطأته ونجسته أحذية الجنجويد هذه الأيام، إذا وجدت تحاليل فإنها بمعدات بدائية، وصور أشعة ورسم مخ من أحلام اليقظة التي لا تتحقق أبداً، والعلاج لأي داء - إن وجد - محاليل وريدية وبندول، أو محاية وبخرات ودعوات شيخ بالشفاء، أو أعشاب أدوية شعبية، والشافي رب العالمين، أين هذه البلاد وأين نحن، الفرق بيننا بحساب الزمن شاسع جداً، ميليشيا، ومجرمون خرجوا من السجون، ومرتزقة، وعطالة، وجهلاء، وشماسة، وحلفاء داخل غير وطنيين، وحلفاء خارج طامعين، دمروا بلادنا وأحرقوا فيها أخضراً ويابساً، دمروها حجراً حجر وطوبة طوبة، مسحوا بها الأرض، لم يتركوا فيها شيئاً قابل للحياة، تركوها خرابة خاوية على عروشها ينعق فيها بوم، تحوم وترتع في شوارعها وأزقتها كلاب وقطط ضالة، جعلوا أهلها في حيرة يندبون حظهم العاثر الذي جعل منهم لقمة سائغة ليأجوج ومأجوج هذا الزمان).

عادت له عادة ذميمة، هلوسته التي تكاد أن تؤدي به إلى حافة الجنون: (نعم كانت في أيام طفولتنا حياتنا بسيطة وطبيعية، وبعض كبار السن يعدون حياتهم أفضل منها، كانت الأمراض قليلة، يعزون ذلك إلى أن الناس كانوا لا يتناولون أكلاً مثلجاً أو معلباً، يأكلون طعاماً طازجاً غير ملوث ومنتج محلياً، وأنهم كانوا يتناولون عسلاً وسمناً ويشربون لبناً وزيت سمسم، وأنهم بدلاً من رياضة بدنية كانوا يمارسون أعمالاً شاقة، يشقون ويعرقون طوال اليوم، وفي كثير من الأحيان كانوا يتداوون بعلاجات ليست لها آثار جانبية لخلوها من مكونات كيميائية، يتداوون بأعشاب ونباتات، وبعضٍ من طرق روحانية، وكي بنار، وجبر كسور، وختان، وحجامة لإخراج دم فاسد، ومعالجة جروح، وداية الدية للولادة، وشلاق لتطبيب عيون، ولكن قد تكون الحقيقة غير ذلك، أمراض بسيطة كانت تؤدي إلى الموت، وأمراض كثيرة كانوا لا يعرفونها، وكثير من مواليد وأمهاتهم ماتوا أثناء الولادة، وكثير من الذين سلموا عيونهم للشلاق فقدوا أبصارهم إلى الأبد، وبعد أن تحسنت الصحة حول العالم بشكل عام بدرجة مدهشة بسبب قضاء على كثير من الأمراض، واختراع أجهزة طبية، ووصول إلى أدوية جديدة، أصبحت الصحة في العالم أفضل مما كانت عليه في الماضي، وبلادنا ليست استثناء من ذلك، شهدت في السنوات الأخيرة طفرة ملموسة في مجال الصحة، زاد وعي صحي عند الناس، انتشرت كليات طب في أنحائها، زاد عدد مشافٍ حكومية وخاصة، زاد عدد مراكز ومعامل تحاليل طبية، زاد عدد أطباء بمختلف تخصصاتهم ودرجاتهم، زاد عدد أطقم مساعدة لهم،

أنشئت مصانع أدوية، انتشرت صيدليات، أصبح الدواء في متناول الجميع، ما عاد الناس يذهبون للعلاج في الخارج إلا في حالات نادرة، كل هذا ما بين غمضة عين وانتباهتها دمره الجنجويد، دمروه والعالم في بلاهة وخساسة يتفرج، لم يدينوهم بكلمة واحدة، لا غرب ولا شرق ولا عرب ولا عجم قالوا كلمة حق في وجه باطل، مائة مشفى حكومي وخاص دمرها الجنجويد في الخرطوم، دمروا مشافي الولايات التي طالتها يد حربهم الشاملة، استهدفوا أطباء وكوادر صحية بالقتل، خربوا ودمروا وسلبوا ونهبوا مصانع أدوية ومعامل وأجهزة ومعدات طبية، ماذا بقي في بلادنا من خشاش الأرض، هل بقي لنا ما نخاف عليه حتى يجلسونا في طاولة تفاوض واحدة مع من أوصلونا إلى هذا الدرك السحيق من التخلف، عادوا بنا ألف سنة إلى الوراء، البل ثم البل، والجغم ثم الجغم، الأرض إما لنا أو لهم، لن تسعنا معاً، إما أن نعيش أعزاء مرفوعي رأس أو نموت شهداء أحياء ورزقنا على الله).

(٢٧)

عاد الفحيل إلى تبوك، مثقل بهموم لا أول لها ولا آخر، الحرب في بلاده ما زالت مشتعلة، والجنجويد يعيثون في بلده الفساد، يتفننون في ابتداع أساليب بربرية، وحثالة من أبناء وطنه يمالئونهم ويهتفون ويصفقون لهم، ومن يدعون أنهم إخوة في دين وعروبة مع أسياد لهم يمدونهم بعتاد وسلاح، وطامعون من صهاينة وغربيون يقفون في صفهم وينافحون عنهم في محافل دولية، عندما يخرج من شقته لأي سبب من الأسباب، يقابله في الجهة الأخرى من الشارع ذلك المقابل أو المغاير الموضوعي لما يجري من هدم وتدمير في بلاده، مشروع المدرسة الابتدائية، يشاهد البنائيين وقد وصلوا إلى مرحلة متقدمة، يستخدمون طوباً إسمنتي في البناء لخفته وقلة امتصاصه للرطوبة، يشاهدهم وهم يغطون الجدران بطبقة إسمنتية لتكتمل عملية التماسك، ثم يشاهد آليات وقد جاءت ومعها ذلك الفيل بخرطومه الطويل وصبت السقف الخرساني، والأخبار التعيسة تأتيه من بلاده الحبيبة، دمر جنجويدٌ كباري، ومستشفياتٍ ومدارساً وبيوتاً، ثم شاهدهم وهم يعملون قوالباً خشبية، يركبون حديداً، وجاءت نفس الآليات وصبت خرسانة، شاهدهم وهم يرشون الصبة بالماء عدة مرات حتى لا يحدث انكماش للخلطة، ثم شاهدهم وهم يستكملون عملية تركيب حديد اسليح للأعمدة، ويركبون عليها قوالباً خشبية، ثم يبنون جدراناً باستخدام الطوب، والأخبار المحبطة تأتيه من بلاده المغدورة، جنجويدٌ نهبوا تركتورات وآليات زراعية، قتلوا وطردوا مزارعين من حقولهم وقراهم، كرر البناؤون نفس الخطوات الأخيرة لكل دور من المبنى، شاهدهم بعد أن اكتمل البنيان وهم يبدؤون أعمال تشطيب داخلي، سباكة، كهرباء، حلوق أبواب ونوافذ، محارة وتشطيبات، بلاط، تركيب أدوات صحية، تركيب أبواب ونوافذ، دهان وتركيب علب كهرباء، وفي هذا الأثناء تأتيه الأخبار، أخبار تثير شفقة وغماً ونكد، تأتيه من بلاده الموتورة التي تكالبت عليها كلاب مسعورة، الجنجويد لم يتركوا شيئاً إلا ونهبوه، ولم يتركوا

إنساناً إلا وطردوه وهجروه، ولم يتركوا بهيمةً إلا وذبحوها وأكلوا لحمها، ولم يتركوا وحشاً ولا طائراً في محمية طبيعية إلا وأفنوها، إن هذا المُقابل الذي يرمز لبناء وتعمير ينكأ له في كل لحظة جراحاً لن تندمل أبداً.

عندما يعود الفحيل إلى غرفته يناجي حيطانها، يبثها شكواه، عله يجد منها ما يبرد بعضاً من نيران تفري حشاه، وفي ليلة جافاه فيها النوم، لم يقدر على نسيان أو دفن مواجعه، صور تغضب ملائكة السماء وترقص لها شياطين الأرض فرحاً تثمل عينيه، وتفري أحشاءه، وتدمي قلبه، الجنجويد يهاجمون قرية ود النورة في الجزيرة مرتين مما أسفر عن مقتل ما لا يقل عن مائة مدني، يحاصرونها ويمطرون أهلها بوابل من الرصاص، مجازرهم في الجزيرة لا تحصى ولا تعد، قرى الهدى، والشيخ السماني، وتمبول، وسنار، وغيرها كثير، يقصفون بمدفعية من بعيد، يهاجمون بطيران مسير، وبمركبات قتالية ودراجات نارية، يقومون بقتل واعتقال ونهب وترويع وتشريد مواطنين عزل، يدخلون مدينة الفولة يقومون بتصفية أربعين من أبناء جبال النوبة؛ تنهد تنهدات عميقة، توغل ببصره في عمق أعماق التاريخ!!! أهرامات، آثار، مخطوطات! انتابته هلوسة تاريخية، نبش فيها كما لم ينبش نابش من قبل، جراح قلبه عميقة جداً، آلامها فظيعة جداً! ما جرى لبغداد عاصمة الخلافة العباسية وما يجري في الخرطوم عاصمة بلاده الحبيبة، فتح عقله، ملأ قلبه بمشاعر وطنية صادقة، ملأ جوانحه بإيمان عميق بأقدار الله وعزته وجبروته وعدله في كونه الذي خلقه وسواه، أوصله إلى حقيقة بينة لا مراء فيها، أن النصر لا محالة آت، لأن الله منجز وعده، وعَد الله بنصرة أهل الحق ولو كانوا ضعفاء، ومهما زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، فإن النصر آت بقوة الإرادة وبالدعاء معاً، غصباً عن عين كل خائن، مرجف، معوق، ومخذل؛ كشف له غشاوةً وأغطية وميز له صفوفاً، عرفه خبيثاً من طيب، وكشف له عن أقنعة كثيرة، الحرب وصلت ذروتها وبدأ العد

التنازلي للعفن، والجيش والشعب نفسهم طويل، أبهرته حواء وطنه، أنجبت أبطالاً في زمن امتلأ وفاض بأقزام، والنصر دونه تضحيات جسام، وجزاء هذه التضحيات عظيم، الشهادة لمن قتل دون ماله، دمه، دينه، وأهله.

همس له التاريخ:

- (الخلافة العباسية كانت في أضعف حالاتها قبل غزو المغول، طغى نفوذ ترك وفرس حيث استأثروا بالمناصب وسيطروا على دولة وجيش، أغلب سكان بغداد كانوا مطحونين بسبب فساد وظلم وسوء إدارة، ضعفت سلطة الخلافة على الولايات، انقسم أهل بغداد بين سنة وشيعة مما جعل أصابع الاتهام تشير إلى الشيعة بأنهم تعاونوا مع المغول بسبب سوء معاملة الخليفة لهم، الصليبيون في الشام كانوا على صلة بالمغول يحثونهم على غزو الخلافة).

قابل همس التاريخ له بهمس مثله:

- (نحن كذلك، أهل السودان، كنا في أضعف حالاتنا، منقسمون إلى فئات متناحرة، إسلاميون، شيوعيون، تقدميون، سلفيون، مدنيون، عسكريون، وطوائف أخرى متشاكسه عديدة؛ طغى نفوذ الجنجويد العفن وأصبحوا فوق الدولة وفوق القانون، الشعب مطحون بسبب الغلاء مما جعل ضعاف النفوس يقعون بسهولة في براثنهم).

همس له التاريخ بأسرار قتلة عتاة عاشوا في زمن مضى:

- (نشأ المغول أو التتار في شمال الصين في صحراء (جوبي) في منغوليا، وخرجت منهم قبائل كثيرة وعندما سيطروا على هذه المنطقة أطلق اسم المغول على هذه القبائل الرعوية. جيوش المغول وحشية همجية لأنهم لا يؤمنون بدين من الأديان السماوية، ولا يعرفون عرفا أخلاقيا في تعاملهم مع الآخرين سوى أن (الحق للقوة). يعبدون أوثاناً وكواكبا، وكانت لهم ديانة غريبة هي خليط من أديان مختلفة جمعها جنكيز خان من إسلام ومسيحية

وبوذية، وأخرج كتاباً سماه (الياسق) أصبح دستور دولة التتار وعقيدتهم...).
وهمس بدوره للتاريخ، بأسرار قتلة وحوش يعيشون في زمن حاضر:
- (تجمع عربان الشتات في تخوم صحراء غرب أفريقيا، لا يقلون عنهم وحشية وبربرية، يدينون بالإسلام اسماً وهم أبعد خلق الله عنه شرعةً ومنهاجاً وتعاليماً، القتل، النهب، الزنا، والاغتصاب عندهم فروسية ورجالة، أن تدمر، تحرق، تخرب كما يحلو لك فأنت تستحق إطراءً ومديحاً وتمجيدا).
همس له التاريخ:
- (سقوط المدن لا يأتي إلا بعد مقدمات، دسائس وخيانة ومؤامرات، حادثة سقوط بغداد ومقتل آخر خلفاء الدولة العباسية كان جيش المغول مائتي ألف مقاتل وجيش بغداد عشرة آلاف فقط، رئيس وزراء الخليفة ابن العلقمي هو وبطانته أقنعوا الخليفة أن يُخَفّض عدد الجيش من مائة ألف إلى عشرة آلاف، إنه متهم صراحة بأنه خائن ومتآمر مع المغول، وأنه كان يزودهم سرا بالمعلومات، ويخدع الخليفة...).
وهمس بدوره للتاريخ:
(يا تاريخ ذات المقدمات حدثت عندنا، ابن علقمينا وبطانته ليسوا متهمين وإنما جاهروا صراحة بوقوفهم في صف الجنجويد، ألعوبة في يد الأعداء، لا يهمهم أن تضيع البلاد وتتناثر قطعة بعد قطعة ما دام في النهاية هم موعودون بمناصب وأمجاد ضاعت منهم).
همس له التاريخ:
- (وكانت نتيجة هذه المقدمات سقوط ودمار وهلاك، أخذ التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها بمن فيهم الخليفة، كان هولاكو شديد الحنق عليه لعدم استجابته لمطالبه التي تمثلت في اظهار الخضوع والطاعة والاستسلام، أن يمده بالجنود، ويدمر الحصون ويردم الخنادق. مالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من رجال

ونساء وولدان ومشايخ وكهول وشبان، لجأ كثير من الناس إلى الآبار وأماكن الحشوش، وحُفَرِ الوسخ، وكمنوا أياما لا يظهرون، كان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم هناك، جرت الميازيب من الدماء في الأزقة، المساجد، الجوامع، والرُبَط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من يهود ونصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي، طائفة من التجار أخذوا لهم أمانا، بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم؛ وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، القتل استمر أربعين يوما، عدد القتلى ما بين مليون ومليونان. يستدعى الرجل من بني العباس من دار الخلافة فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى المقبرة فيذبح كما تذبح الشاة، ويأسرون من يختارون من بناته وجواريه. ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوما بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس فيها أحد إلا شواذ الناس، تلال من القتلى في الطرقات، سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتن من جيفهم البلد، تغير الهواء فحصل بسببه وباء شديد تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، اجتمع على الناس غلاء، وباء، فناء، طعن، وطاعون. ولم يبق مسجد، ولا دار، ولا شجر إلا واشتعلت فيه النيران، ولما نودي في بغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان في المطامير وحفر الوسخ والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم وباء

شديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى. قتلوا الخليفة أدخلوه في شوال ولفوه في سجادة وركلوه بالأرجل، ويقال إنهم خنقوه أو غرقوه، ثم قتلوا ابنيه أبو العباس وأبو الفضل، وقتلوا من عثروا عليه من العباسيين، قتلوا بعض العلماء، الأمراء، والأعيان. أضرموا النيران في بيت الحكمة وهي إحدى أعظم مكتبات العالم القديم، ألقوا بالكتب في نهري دجلة والفرات، فتحولت المياه إلى اللون الأسود من أثر المداد، فتكوا بالكثير من أهل العلم والأدب، وأخذوا كثيرين منهم معهم، دمروا الكثير من المعالم العمرانية من مساجد وقصور وحدائق ومدارس ومستشفيات، أخذ هولاكو كل ما جمعة خلفاء المسلمين في خمسة قرون من جواهر وذهب وأموال، وزع هولاكو نسوان الخليفة على قواده، ونسوان المسلمين على جنوده، وبعد كل هذه الجازر عين المغول رجال الخليفة الخونة في مناصب الدولة...).

تأوه بصوت مسموع (آه، آه، ثم آه)، ثم همس للتاريخ:

- (يا تاريخ ذات النتائج حدثت لنا، كأنهم ينحدرون من جنس واحد، المغول هناك والجنجويد هنا، ما تركوا فاحشة ولا سيئة إلا وفعلوها، يتنافسون في تطبيق ما جاء في كتاب شيطاني واحد، حذو حذوهم، حذو النعل بالنعل، والحافر بالحافر، ما فعله المغول بالخليفة فعله الجنجويد بوال من ولاة الولايات).

جهر له التاريخ بصوت اهتزت له بشدة طبلتا أذنيه:

- (ثم جاءت بداية النهاية، سقطت حلب، غادر هولاكو وترك على رأس جيشه أعظم قواده (كُتَبْغَا)، دخل دمشق، وأرسل فرقة احتلت نابلس ثم اخترقت كل فلسطين واحتلت غزة، ما بقيت إلا مصر ليسيطروا تماماً على أمة الإسلام، أرسل هولاكو إلى قُطْز

حاكم مصر كتاباً كله تهديد ووعيد، لكنه رفض الإنذار، قتل رسلهم وعلق رؤوسهم على أبواب القاهرة، وصمم على لقائهم خارج مصر، خرج بجنده وانضم إليه جند من شام وعرب وتركمان من قلعة الجبل في القاهرة، التقى الجمعان في عين جالوت، طوقوا قوات المغول، وأحرزوا تقدماً في القتال، سجل التاريخ هزيمة المغول وقتل أميرهم (كُتَبْغاَ). كانت هذه المعركة بداية النهاية للإمبراطورية المغولية التي لم تهزم في معركة من قبل...).

وجهر بدوره للتاريخ بصوت عالي رددت صداه حيطان وأشجار وجبال:

- (نعم ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وضاقت علينا نفوسنا، ولكنا لا نقنط من عدالة السماء، الحق ثابت والباطل مضمحل، وكما انتهى المغول إلى هزيمة واندثار، سيحذو حذوهم بمشيئة الله هذا النبت الشيطاني، طيور الوقواق، هؤلاء الجنجويد، كل الطغاة يقرأون من كتاب واحد، وينتهون إلى مصير واحد).

أجهش التاريخ بالبكاء، بكى بكاءً مراً.

رق الفحيل لحاله وسأل:

- (ما الذي يبكيك يا كاتم الأسرار؟).

أجاب قائلاً:

- (أبكي عليكم إذا ما قدر لكم، في غفلة منكم، أن يحكمكم جنجويد!!! جلحة، برشم، كيكل، قُجّه، تارك صلاة، قرن شطة، دبر عنز، دبر جريو، دبر كديس، دبر شيطان...!! زعيط، معيط، شعيط، لقيط، قليط، خريط، ونطاط حيط، سيسومونكم سوء العذاب إلى يوم يبعثون).

وجلجل صوت ذلك المعلم (معلمو)!! «عبد الرحمن علي طه» في أرجاء الغرفة، وفي أرجاء كل فصول مدارس الأساس التي أخلاها الجنجويد من معلميها وتلاميذها وسبوراتها وطباشيرها وحطموا مزهريات أزهارها، كما كان يجلجل سالفاً في فصول المدارس الأولية، أيام العهود الزاهرة، أيام لا جنجويد، لا همج، ولا يحزنون:

- «كل له في عيشة طريقة.. ما كنت عنها أعرف الحقيقة، ولا شك أن في بلادي.. ما يستحق الدرس باجتهاد، فابشر إذاً يا وطني المفدى.. بالسعي مني كي تنال المجدا...».

أما صورة قُجَبْغا (ذلك البلبوص، الوزغ، الحرباء، الحية، بلحمه وشحمه ووسخه وعفنه واقف ديدبان هناك، يبحلق بعيني ضبع مفترس في وجوه الناس)، رآها محفورة إلى الأبد في أذهان السُمْر، أهل سودان العزة والكرامة، تذكرهم بأسوأ أيام تاريخهم، وتشحذ هممهم لبناء دولة، قوة اقتصادية وعسكرية، يهابها ويخشاها ويعمل لها ألف حساب، عدو وصديق، قريب وبعيد.

(تمت)